مختارات

جرجي زيدان

دار الهلال بمصر

سنة ١٩٣٧



جرجي زيدان

١٨٦١-١٩١٤

جرجي زيدان

في صفحة

* ولد مؤسس الهلال في بيروت في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٦١
* تلقى مبادىء العلوم في بعض مدارسها الابتدائية
* واضطر الى ترك المدرسة صغيراً لمساعدة والده
* ودرس اللغة الانكليزية في مدرسة ليلية في مدة لا تتجاوز خمسة أشهر
* ثم انتظم في « جمعية شمس البر » الأدبية فكان يحضر حفلاتها
* وفي سنة ١٨٨١ صمم على ترك شغله والمثابرة على طلب العلم
* دخل المدرسة الكلية ببيروت لدراسة الطب فمكث بها سنتين
* حدث اختلال في تلك المدرسة فخرج منها بعد ما نال شهادة في العلوم الصيدلية
* جاء مصر عقب الحروب العرابية لتكملة الطب
* حول عزمه عن دراسة الطب واشتغل محرراً بجريدة الزمان
* وفي سنة ١٨٨٤ سافر في الحملة النيلية الى السودان مترجماً بقلم المخابرات
* عاد الى مصر بعد عشرة أشهر وقد نال ثلاثة أوسمة مكافأة له على خدماته
* في سنة ١٨٨٥ انتدبه المجمع العلمي الشرقي ببيروت ليكون عضواً عاملا به
* أقام ببيروت عشرة أشهر فدرس اللغات العبرية والسريانية واخواتهما
* في سنة ١٨٨٦ انتدبته مجلة « المقتطف » لادارة أشغالها ، فقام بذلك نحو عامين
* انصرف بعد ذلك الى الكتابة والتأليف
* في سنة ١٨٩٢ أصدر مجلة الهلال
* كان في أول نشأة الهلال يتولى وحده جميع شئونه
* فلما اتسع نطاق الأعمال في الهلال عهد في ادارته الى شقيقه واستخدم آخرين
* أكب على التأليف والتحرير ، فكتب بعد نشأة الهلال مؤلفات جمة
* قام بعدة رحلات أهمها رحلاته الى الآستانة والى أوربا وفلسطين
* في ٢١ يوليه سنة ١٩١٤ وافته المنية فجأة ففاضت روحه الى خالقها

مقدمة الطبعة الاولى

هذه مجموعة مقالات لمؤسس الهلال رحمه الله تبحث فى موضوعات اجتماعية وعمرانية وأدبية واخلاقية تلذ مطالعتها لكل قارىء . وقد اختار هذه المقالات مؤسس الهلال نفسه ، وكان عازما على اصدارها فى كتاب فعاجلته المنية قبل أن يتاح له ذلك

وانه ليسرنا أن نتمكن اليوم من نشرها ، ويقيننا أننا نؤدى بذلك واجباً وخدمة معاً . ومن مميزات هذه المختارات أنها خلاصة اختبارات كاتبها ونتاج قريحته ـ أنها خلاصة اختبارات رجل عرف الناس واعترك الدهر ، ونتاج قريحة استمدت وحيها من ملاحظة الحوادث والأشياء بعين الحكمة والتبصرة

الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذه المختارات فى ثلاثة أجزاء . وقد رأينا عند اعادة طبعها ان نحصرها فى مجلد واحد شامل لأحسن مانشر فى تلك الاجزاء الثلاثة

حاجتنا الكبرى

نحن فى إبان نهضة اجتماعية هي من ثمار المدنية الحديثة، وفى دور من التحول والانتقال، لا بد لنا فيه من أشياء كثيرة نحتاج اليها

اننا فى حاجة الى كثير من أسباب هذه المدنية، لاغنى عنها لمن هم فى مثل حالنا. فنحن محتاجون الى ترقية التعليم فى المدارس، والى اصلاح حالتنا الاجتماعية، وتحسين أحوالنا الاقتصادية، والى سائر عوامل الارتقاء على اختلاف وجوهه. لكن حاجتنا الكبرى انما هى: « الأخلاق الراقية »

الأخلاق الراقية

الاخلاق تمثل الأمم أكثر مما تمثلها سائر المواهب. والامة انما ترتقى أو تسقط وتسود أو تذل بأخلاقها، لا بعلومها ولا بثروتها. اعتبر ذلك فى تاريخ الأمم قديماً وحديثاً، فانك لا تجد النصر إلا حيث تكون الاخلاق الراقية. نهض الرومان وهم أهل خشونة وشظف من العيش، ولم يمض زمن بعيد حتى فتحوا العالم المتمدن حول البحر المتوسط، وتسلطوا على أمم شتى خضعت لهم، ليس لقلة أموالها أو جهل أهلها بل لضعف اخلاقها. يكفيك من تلك الامم اليونان، وهم اصحاب العلم والفلسفة، دانوا للرومان، وهم أهل جهالة وخشونة. وانما غلبهم الرومان باخلاقهم اللازمة للفتح فى ذلك العهد، نعني البسالة والثبات والاتحاد ونحوها

نهض العرب فى صدر الاسلام، وهم أهل جاهلية لا علم عندهم ولاثروة، ولكنهم كانوا أهل أريحية ونجدة وشجاعة أدبية واستقلال فكر وصبر على المكاره. فحاربوا الروم خلائف أولئك الرومان الفاتحين، وهم أهل ثروة وعلم وفلسفة. لكن الاخلاق اللازمة للتغلب كانت قد ذهبت منهم، وضعفت نفوسهم من الانغماس فى الترف

والاركان الى الرخاء ، وقد تمزقت وحدتهم من ضعف الاخلاق ، فغلبهم العرب وهم أقل منهم عدداً وأضعف عدة . وانما غلبوهم بالاخلاق

وقس على ذلك الجرمان الذين هبطوا على المملكة الرومانية من الشمال ، وكانوا أهل بداوة وخشونة مثل العرب الذين صعدوا اليها من الجنوب . وقد فعلوا فعلهم وأسسوا دولا جديدة على أنقاض الدولة الرومانية ، هي الدول الأوربية الحديثة الباقية الى هذا العهد . وأرسخها قدماً فى السيادة ، وسعة المملكة ، أمتنها أخلاقاً ، نعني الانكليز . وهم يحكمون أضعاف عددهم من الأمم ، بينها أمم تفوقهم ذكاء ونباهة وعلماً وثروة ، لكنهم حكموها بالاخلاق

ولكل تمدن أخلاق تسود فيه ويقدسها أهله ، لانها من دعائم ذلك التمدن . فهى عندهم أخلاق راقية ، وقد لاتعد راقية فى تمدن آخر . فالتمدن الاسلامي بني على الأريحية والنجدة والحلم والسخاء والوفاء ، فهى من أرقى الاخلاق بالنظر الى ذلك التمدن . لكن بعضها لا يعد راقياً بالنظر الى المدنية الحديثة ، والبعض الآخر لا يزال معدوداً من أرقى الاخلاق . ويهمنا فى هذا المقام الاخلاق التى تلائم هذه المدنية ، والتي لابد منها لرقى الأفراد واصلاح الجماعات . وهي ترجع الى خلقين رئيسيين : «الصدق ، والثبات» كل منهما ينطوي على عدة فروع . فلنتكلم عن كل منهما

١ — الصدق

الصدق سيد الاخلاق ، لأنه ينطوى على أهم السجايا الراقية ، ولذلك قلنا في غير هذا المكان : «علم ابنك الصدق ،والصدق يعلمه كل فضيلة » ، ويوافق ذلك حديث نبوى فى هذا المعنى ، خلاصته أن رجلا أتى النبي وأسلم ثم قال : « يا رسول الله انما أوخذ من الذنوب بما ظهر ، وأنا أستتر بخلال أربع : الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، والكذب ، فأيهن أحببت تركتها سراً » فقال : « دع الكذب » . فلما تولى الرجل من عنده هم بالزنا ، فقال : « يسألني رسول الله ، فان جحدت نقضت ما جعلت له ، وان أقررت حددت » فلم يزن ، ثم هم بالسرقة ، ثم بشرب الخمر ، ففكر فى مثل ذلك فرجع الى النبي ، فقال : « يا رسول الله قد تركتهن جميعاً »

فلنذكر الاخلاق التى تدخل فى باب الصدق ، وأهمها الشجاعة الأدبية ، والاعتراف بالخطأ ، والأمانة ، والوفاء ، والشعور بالواجب ، والتعويل على الحقيقة ، والمبادرة الى العمل . واليك تفصيل ذلك :

١ ـ الشجاعة الادبية

وقوامها الجرأة فى الرأى ، والصراحة فى القول ، أى أن يبدى الانسان رأيه بلا خوف ولا حذر . فهل هذا الخلق شائع بيننا أم نحن فى حاجة اليه ؟ لا يختلف اثنان فى اننا من أجبن الأمم فى ابداء الرأى . من منا اذا سئل عن رأيه فى موضوع أجاب بصراحة ، ولم يراع خاطر سامعه ؟ حتى فى المسائل العامة التى تنشر فى الصحف ، فانك لا تقرأ فيها رأيا لا تتنسم منه رائحة المسايرة أو المجاملة . وأغرب من ذلك انك تجد لبعضهم رأيين متناقضين فى مسألة واحدة ، قالهما فى حالين مختلفتين راعى فيهما مصلحته

ويتناول هذا الوجه من الشجاعة الادبية نشر النصح والارشاد فى العامة ، ويدخل فيه بث المبادىء الصحيحة والآراء الصائبة ، ولو خالف ما ألفه العوام أو تعودوه . وهو من مقتضيات المدنية الحديثة التى صار للعامة فيها صوت يسمع

ونشر النصح فيهم يقوم أكثره بالصحف والمجلات أو بالقاء الخطب فى الأندية . والاخلاص فى ارشاد العامة أفضل ضروب الشجاعة لأنه يغني عن سواه . وقادة الافكار اذا أخلصوا النصح للامة ، وعرفوها حقوقها وواجباتها ، كفوها مؤونة الخلاف بينها وبين حكامها

فهل قادة الافكار عندنا عاملون بهذه الفضيلة ؟ من من أصحابك اذا سألته رأيه فى مسألة هامة تثق بأنه يخلصك النصح بلا مراءاة أومجاملة ؟ ألا ترى الاكثرين يتهيبون من إبداء آرائهم لئلا يكون فيها ما يسوؤك فيتنصلون ويواربون . وقد يقولون عكس ما يعتقدون ارضاء لك ، لأن من الآداب الاجتماعية الشرقية أن نرضى جليسنا بأية وسيلة كانت ! ولو عقلنا لكان فى ابداء نصحنا له ارضاء نافع ، لاننا اذا كان اعتقادنا فيه يسوؤه ، والتصريح بفكرنا يغضبه ، فعذرنا أننا أردنا اخلاص النصح . وقد يتحول ذلك الغضب الى رضى وشكر

وفى كل حال فالصادق يجب عليه أن يبدى رأيه بصراحة واخلاص . وإلا فقد كذب لا عن رغبة في الكذب أو طمعاً فى كسب ، وانما عن خجل ، لئلا يسىء مخاطبه. وقد يكون السائل من عامة الناس يتقدم الى بعض الكبراء بوساطة أو معروف يلتمسه منه فيعده خيراً ويسوف الانجاز لانه لا يريد أن يجيب ملتمسه ، أو لا يقدر عليه . فما كان أجدره أن يصارحه برأيه أول الامر ! لكنها علة متمكنة فينا سببها الجبن الادبى

٢ ــ الاعتراف بالخطأ

الاعتراف بالخطأ من أكبر دلائل الارتقاء ، وهو لا يصدر إلا عن نفس كبيرة وخلق قوى لأن « الاعتراف بالخطأ صواب ، والاقرار بالعجز قوة » . وهل أصغر نفساً ممن يعرف خطأه ويحاول كتمانه بالمكابرة . انه يكذب على نفسه . ويخدع أصحابه . ويحاول أن يشارك الله سبحانه وتعالى فى العصمة من الخطأ

لذلك نرى الامم الراقية تبث هذه الروح فى نشئها من طفولتهم برواية القصص التى تمجد هذه الفضيلة . وربما كان الانكليز من أكثر الأمم سعياً فى هذا السبيل . وتلك كتبهم المدرسية ملأى بهذه القصص . وناهيك بما يتناقله حكماؤهم من الاقوال المأثورة فى هذا المعنى

فاذا اقتدينا بهم ، وبثثنا هذه الروح فى أطفالنا ، وشجعناهم على الاعتراف بالخطأ الذى يقع منهم ، شبوا عليه وهان على أحدهم اذا انتقد صاحبه عملا من أعماله أو خلقاً من أخلاقه أن ينظر فى انتقاده بعين الاخلاص ، فاذا رأى الحق فى جانبه وافقه وشكر له صنعه واجتهد في اصلاحه . ولا يتأتى الاصلاح من غير هذا السبيل . والشاب الذى يهون عليه الاعتراف بالخطأ بشره بمستقبل مجيد ، وأما المكابر المغرور فالأمل باصلاحه بعيد

٣ ــ الامانة والوفاء

لا حاجة بنا الى بيان فضيلة الامانة والاستقامة وصدق المعاملة أو وفاء الحقوق ، فانها من أبسط مظاهر الصدق وهي بدهية شائعة . وانما نوجه الانظار الى خطأ نحن فى حاجة الى إصلاحه نعني « الاخلاف بالوعد » فانها عادة شائعة كأنها طبيعة فينا ويعدها الاجانب من الغرائز الشرقية . دعنا من المماطلة فى دفع ما علينا من الحقوق المدنية أو التجارية،فان القضاء يعلمنا القيام بها برغم ارادتنا . وانما نوجه التفات القارىء الى الاخلاف بالحقوق الادبية من وعد بزيارة أو مقابلة ، وهو عنوان الاخلاف بسواها،لأن الرجل الذى يهون عليه أن يعدك بزيارة وهو ينوي الاخلاف بوعده،ينبغى لك أن تتجنب معاملته ، لانه يخلف كل وعد . ولو أقسم لك انه فاعل فانه يحنث باليمين ويكذب على نفسه ، فكيف عليك ؟

أليس من الاخلاق الضعيفة أن يعدك صديقك بعمل يؤديه فى وقت معين ويؤكد لك ذلك وهو لا ينوى القيام بوعده مع علمه انك فى انتظاره على مثل الجمر ؟ ــ

إلا اذا كان تخلفه عن اضطرار ، وإذن وجب عليه أن ينبئك بما حال دون وفائه بأقرب وقت ، ولكننا لا نفعل هذا ولا ذاك . نعد الوعد ونحن لا ننوي الوفاء ، ولا نبالى بمشقة الانتظار أو الفشل . اننا فى حاجة الى إصلاح هذا النقص بالتربية من الصغر فى البيوت ثم فى المدارس

على اننا سائرون فى هذا السبيل من طبيعة العمران لكثرة احتكاكنا بالاجانب الذين يقدسون الوعود ، ويدققون فى انجازها . وناهيك بنظام المصالح فى الحكومة وغيرها ، فانه مبني على الدقة فى المواعيد ، وقد عود الناس على القيام بوعودهم والتدقيق فى الوقت لاضطرارهم الى اطاعة تلك المصالح وإلا عاد اهمالهم عليهم بالخسارة . كالمسافر بالقطار الحديدى لا يمكنه التخلف عن وقت سفره إلا بضياع الفرصة . هذا عدا ما نستفيد من المدارس والاسفار فى البلاد المتمدنة . ولكننا لا نزال فى حاجة الى المزيد حتى يصير ذلك خلقاً فينا

٤ ــ الشعور بالواجب

وهو من قبيل الوفاء ، لكن له شأناً خاصاً ، ونحب أن نلفت اليه النظر بخاصة ، لانه يمس أهم مصالحنا . ونعني به أن يشعر الانسان بما عليه ويقوم باداثه دون أن ينبهه اليه أحد . وهي منقبة شائعة فى العالم المتمدن ، يشب عليها أبناؤه من طفولتهم ويتغنى بها رجاله وتحلم بها نساؤه

ما أجمل أن يعرف الانسان ما عليه ويقوم به من تلقاء نفسه! سواء أكان ذلك من حيث المعاملة التجارية أم الحقوق الادبية . إن هذه الحاسة ضعيفة فينا ، وهي خلق راق يجب علينا تعوده

٥ ــ التعويل على الحقيقة

ومن قبيل الصدق التعويل على حقائق الأمور دون ظواهرها . ونحن أكثر جنوحاً الى الظواهر منا الى الحقائق فى أكثر أعمالنا . يعجبنا زخرف القول وترضينا المجاملة ، وان كان باطنها عكس ظاهرها . فما أجدرنا أن نقتدى بأقرب الأمم المتمدنة جواراً منا ، وأكثرها علاقة باحوالنا ! نعني الأمة الانكليزية ، فانها أكثر أمم الارض تعويلا على الحقيقة المحسوسة ، وبعداً عن الاوهام . لو عولنا على الحقائق ونظرنا فى أعمالنا الى الجوهر وما يعود منها بالنفع علينا ، ولم تنخدع بزخارف الاقوال لاصبحنا فى حال غير حالنا . بيد أننا فطرنا على التأثر بالظاهر يستفزنا القول ويهيجنا تافه

الأمر ، فنقوم له ونقعد ، ولو تدبرناه لما حرك منا ساكناً

اعتبر ذلك فى كثير من أحوالنا السياسية والاجتماعية وفى سائر أعمالنا اليومية . اننا نسمعك جعجعة ولا نريك طحناً . وهو من الاخلاق الضعيفة التى يجب العدول عنها بالتربية

٦ ــ المبادرة الى العمل

التسويف من أقبح ما يتهم به الشرقيون . وقد ألف الافرنج فى ذلك الكتب ونظموا القصائد . وهم يستعيرون فى تعبيرهم عن ذلك التسويف قولهم « بكرا » أى غداً ، يريدون أن الشرقى ليس أسهل عليه من تأجيل الوعد. ويدخل فى ذلك تراخيه فى انجاز ما عليه من عمل أو قول وهو من الاخلاق الضارة . فالعاقل من بادر الى العمل ، ولم يؤجل الى الغد ما يقدر أن يفعله اليوم ، وهو من ثمار النشاط والاقدام ، ويدخل فى باب الصدق ، لان صاحبه يصادق به على اعتقاده

ب ــ الثبات

الثبات قوة فى النفس تساعد صاحبها على مقاومة العوارض . وهو ينطوى على عدة مناقب ، هاك أهمها :

١ ــ متانة الخلق

هي غريزة تساعد صاحبها على الثبات فيما يعتقده ، وان خالف مصلحته أو قاسى العذاب فى سبيله . ومن اصحاب هذه السجية طائفة من كبار الرجال وشهداء الحق والحرية فى كل زمان . نعني الذين تعرضوا للقتل فى سبيل اصرارهم على ما يعتقدونه وعاهرتهم به، كما فعل سقراط وغليليو وغيرهما من نصراء العلم. وكما فعل الشهداء فى نصرة الدين والحقّ وهم كثيرون عند النصارى . ومنهم عند المسلمين ابو ذر الغفارى وحجر بن عدى الكندى واحمد بن حنبل وغيرهم . وهي من أرقى الغرائز البشرية ، ويعبر عنها بالثبات فى المبدأ ، ونحن فى أشد الحاجة اليها لقلة من يثبت منا فى خطة يرسمها أو قول يقوله. إنما نحن من حيث المبدأ كريشة فى مهب الريح نكاد لا نفهم معنى المبدأ أو الثبات فيه . اذا سئل أحدنا عن رأيه فى مسألة من المسائل العمومية أجاب بما يتبادر الىّ ذهنه انه الصواب . فاذا خالفته فيه وافقك بلا دليل يقنعه ، لكنه يفعل ذلك لضعف الخلق

ويدخل فيها الثبات فيما يباشره الانسان من الاعمال حتى يتمه ، وهو من أكبر أسباب النجاح فى اعمال البشر . لأن الانسان مهما بلغ من ذكائه ونشاطه واقدامه لا يفيده ذلك شيئاً إن لم يكن متين الخلق ، ثابتاً فى عمله صابراً على ما يعترضه أو يقف فى سبيله

٢ ــ الاعتماد على النفس

وهو من قبيل متانة الخلق ، لأنه يتوقف على اعتقاد صاحبه فى قوة عزيمته . ونحن في حاجة إلى غرسه فى نشئنا ، فانتا قليلو الاعتماد على أنفسنا لطول ما مر على اسلافنا من التعويل على الآخرين وتقييد الأفكار في أثناء عصور الذل ، فأصبحنا عالة على الحكومة فى أسباب التربية والتعليم وفى سائر الشؤون الاجتماعية . وأصبحت اعمالنا فى ايدى الاجانب . والاعتماد على النفس يعود الانسان مباشرة عمله بنفسه فيصير فى عداد الاحياء المستقلين

٣ ــ سعة الصدر

وهى من ارقى الفضائل وتدخل فى الثبات أو متانة الخلق لأنها مبنيـة على قلة تأثير العوارض فى نفس صاحبها لـكبر عقله . وقد قالوا : « إن أعقل الناس أعذرهم للناس » فواسع الصدر لا يكترث لصغائر الأمور ، ولا يهتم إلا للامور الهامة . وإنما يفعل هذا بالتأنى والروية . ولذلك كان خطؤه قليلا وكان موضوع التجلة والاحترام ، بخلاف اهل النزق والحدة . ولسعة الصدر نصيب حسن من أخلاق الشرقيين لأنها من المناقب المتوارثة فيهم من عهد التمدن الاسلامى

[عن الهلال سنة ٢٢ صفحة ١١]

ضحايا الجرأة الادبية

يرى علماء الاخلاق والطبائع البشرية أن الجرأة الأدبية أرقى فى سلم الفضائل لانها نتيجة الاقتناع بالحق ، وهى تجعل صاحبها اذا عمل بها فى الدفاع عن الحق لا يخاف مقاومة ، ولا يخشى اهانة وقالوا : « ان الجرأة فى الحرب تذرى بالأخطار ، فتجعل صاحبهـا صالحاً للجندية . وأما الجرأة الادبية فصاحبها لا يهاب سائر الآراء فيصلح أن يكون مشيراً للدولة . والرجل العظيم ينبغى أن يتصف بكليهما» . والجرأة الادبية أنواع منها :

١ ــ الجرأة في سبيل الدين

الجريئون فى سبيل الدين يثبتون في اعتقادهم ، ولو أدى بهم ذلك الى القتل . وهم كثيرون ، منهم في النصرانية ألوف ومئات الالوف ، يكفى الشهداء الذين قتلوا في الاضطهادات الدينية في الاجيال الوسطى، ولا يحيط الحصر بعددهم. وناهيك بديوان التفتيش الظالم . قال فاورنتى ان عدد الذين قتلهم ديوان التفتيش في اسبانيا ٣٢٠٠٠ والذين نالوا العذاب وظلوا احياء ٢٩١٠٠٠ نفس . غير الشهداء في أوائل النصرانية باضطهادات الامبراطورين الرومانيين قبل تنصرهم ، آخرها اضطهاد ديوقليطيان . وفي أخبار الرسل حوادث كثيرة تدل على جرأة أدبية في الآباء الاولين يندر مثلها ، فقد قتل بعضهم صلباً وبعضهم نشراً مما يطول شرحه ، وهم ثابتون

أما المسلمون فقد استشهد منهم كثيرون في سبيل الجرأة الادبية في الدين . وذلك من وجهين : الاول ما كان بين الاحزاب الاسلامية أو أصحاب الآراء الدينية ، والثانى بين المسلمين وغيرهم.

فحوادث الاستشهاد بسبب اضطهاد احدى الفرق الاسلامية للفرق الاخرى أكثرها بين السنيين والشيعة . وكان أول أمره بين بنى أمية وأتقياء المسلمين من

الصحابة أو التابعين ، لأن الاسلام كان فى زمن الراشدين مؤسساً على التقوى والحق والعدل ، فلما قبض بنو أمية على الدولة حولوه الى السياسة واعتمدوا على التغلب بالسيف والقهر ، واضطهدوا أهل التقوى وعذبوهم . فمن هؤلاء الاتقياء من فضل الموت على الرجوع عن اعتقاده فظل ثابتاً في قوله ومعتقده ولو خالف رأي الخليفة أو الامير

وأقدم من استشهد فى هذا السبيل أبو ذر الغفارى الذى جاهر باستقباحه جشع بني أمية ، وكان معاوية لا يزال عاملا للخليفة عثمان بن عفان فى الشام. ولم يبال أبو ذر بالقوة الغالبة . واحتال معاوية فى استرضائه أو تهديده فلم يبال ، فاتهمه بالفتنة وكتب الى عثمان : « انك أفسدت الشام على نفسك بأبى ذر » فكتب اليه : « احمله إلى على قتب بغير وطاء » تعذيباً له . فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه ، وجاهر بما يراه من طمع بنى أمية وخروجهم عن الحق . فأخرجه عثمان من المدينة الى الربذة بالعنف ، وظل هناك وهو ثابت فى عزمه حتى مات

ومنهم حجر بن عدى الكندى المتوفى سنة ٥١ هـ فقد كان يعتقد فضل على بن أبي طالب وحقه فى الخلافة ، وأن الامويين اغتصبوها منه . فلما تغلب بنو أمية على «علي» حملوا المسلمين على لعنه . فمنهم من أطاع ومنهم من أبى واحتمل القتل من أجل ذلك . وأشهر الذين استشهدوا فى هذا السبيل حجر بن عدى المذكور . وذلك أن المغيرة والى الكوفة من قبل معاوية كان يقف على المنبر، فيستغفر لعثمان، ويلعن علياً ، والناس يسمعون وأكثرهم غير راضين ، ولم يجسر على مقاومته الا حجر بن عدى . فانه كان يعترض الوالى فى كلامه ، ويقول : « أنا اشهد ان من تذمون أحق بالفضل ومن تزكون أولى بالذم »، وكان المغيرة يخوفه غضب الخليفة ، وهو لايبالى فقاصه بقطع ارزاقه فاعترضه مرة فى المسجد ، وانحاز اليه بعض الناس وحدثت ثورة طال أمرها. وأخيراً قبضت الحكومة على حجر ، وقد صارت الامارة إلى زياد بن أبيه ، وكان مع حجر جماعة قالوا مثل قوله واتحدوا معه، فكلفوهم لعن «على» فأبوا وهددوهم بالموت فلم يبالوا. ومن اقوال احدهم واسمه صيفى وقد سأله زياد : «ما تقول فى على ؟» قال : «أحسن قول» فأمر بضربه حتى لصق بالأرض ، ثم قال : « أقلعوا عنه . . ما قولك فى على ؟ » فقال : « والله لو شرحتني بالمواسى ما قلت فيه إلا ما سمعت منى » فقال : « تلعنه أو لأضربن عنقك » قال : « لا أفعل » فاوثقوه وحبسوه ، ثم أرسل زياد حجراً وبعض اصحابه الى معاوية فى الشام وزوروا عليهم شهادات توجب قصاصهم

فلما جاءوا معاوية أمر بقتلهم ، فجاء الذين تولوا قتلهم ، فقالوا : « اذا كنتم تبرأون من «على» وتلعنونه لا نقتلكم وإلا قتلناكم » فقالوا : « لسنا فاعلين ذلك » فحفرت القبور وجيء بالاكفان وقام حجر واصحابه يصلون عامة الليل ، وفى الصباح قتلوهم فرضوا بالقتل ولم يرجعوا عن رأيهم فى « على »

ويقال نحو ذلك فيمن قتلهم الحجاج بن يوسف بعد واقعة الجماجم ، فان الحجاج ألزم من بقى حيا من رجال ابن الاشعث أن يعترف انه كفر بعصيانه على الخليفة فيخلي عنه وإلا قتله . فكان يؤتى بالاسير إلى ما بين يدى الحجاج ، فيقول له الحجاج : « اشهد انك كفرت » فان قال : « نعم » اطلقه والا قتله . فكان كثيرون ينكرون قوله فيقتلهم . ومن هؤلاء رجل من خثعم كان معتزليا ، فسأله الحجاج عن حاله فاخبره باعتزاله ، فقال له : «أتشهد انك كافر» قال: « بئس الرجل أنا . اعبد الله ثمانين سنة ثم اشهد على نفسى بالكفر ؟ » قال : « اذاً أقتلك » قال : « وإن قتلتنى » فقتله . ومنهم سعيد بن جبير التابعى الشهير وغيره . وحوادث اضطهاد الشيعة كثيرة لتفضيلهم الموت على الخروج من طاعة العلويين أو انكار فضل « على »

ومن حوادث الاستشهاد فى سبيل الثبات فى الرأى الدينى حادثة احمد بن حنبل واصحابه لانكارهم القول بخلق القرآن بعد أن امرهم الخليفة المأمون أن يقولوا بخلقه، وكان المأمون يعتقد ذلك ، وشدد فى نشر هذا الاعتقاد بين رعاياه،فكتب الى نائبه في بغداد أن يمتحن القضاة والشهود والمحدثين بالقرآن فمن اقر انه مخلوق خلى سبيله ومن أبى اعلمه به ليرى رأيه فيه ، ففعل ذلك فأجابه الاكثرون وأبى جماعة فبعث المأمون الى نائبه المذكور أن يرسل اليه بهم موثقين بالحديد. فلما رأوا ذلك التهديد خافوا واعترفوا بما أراده الخليفة إلا أربعة ، منهم احمد بن حنبل الامام المشهور ، ثم أعادوا عليهم القول وهددوهم فأجاب اثنان وظل اثنان وهما ابن حنبل وابن نوح . فشدا بالحديد وحملا الى المأمون فى طوس ، ومات المأمون فى تلك السنة ، فلما تولى المعتصم احضر احمد بن حنبل وامتحنه بالقرآن وأمره أن يقول انه مخلوق ، فأبى فأمر به فجلد جلداً عظيماً حتى غاب عقله وتقطع جلده ، وحبس مقيداً وظل على اعتقاده حتى مات

أما حوادث استشهاد المسلمين بسبب اضطهاد أهل الاديان الأخرى فلا يخلو التاريخ من شواهد صريحة لها غير ما يؤخذ من القرائن العدة التى يطول بنا

شرحها . أما الحوادث التي ورد ذكرها صريحاً في هــذا الشأن فاكثرها في أثناء حروب الروم والمسلمين في الشرق ، أو الافرنج والمسلمين في الأندلس. من ذلك أن تيودورة ملكة الروم كان قد وقع في حوزتها عدة آلاف من أسرى المسلمين فعرضت عليهم سنة ٢٤١ ﻫ أن يتنصروا فمن تنصر استبقته وجعلته في مكان من قتله من المتنصرة ومن أبى قتلته . فأبى كثيرون وذهبوا ضحية ثباتهم في اعتقادهم . وهكـذا في مسلمي الأندلس لما غلب عليهم الافرنج وهموا باخراجهم ، فخيروهم بين النصرانية والموت فاختار الموت جماعة كبيرة منهم

واعتبر ذلك في أكثر الأنبياء والمصلحين ، فان ثباتهم في دعواتهم والاستهلاك في نصرتها حتى الموت ســاعد على نشرها . ومن لم يثبت منهم ضعفت عزائم انصاره وانفض الناس من حوله . كما أصاب آريوس لما أنكر لاهوت المسيح في اوائل القرن الرابع للميلاد وهو من كهنة كنيسة الاسكندرية ، فالتف حوله جماعة كبيرة واشتد ساعده ، فاهتم الامبراطور قسطنطين بالأمر، فأرسل اليه وحاكمه وحكم بضلال بدعته وألزمه أن ينكر تلك البدعة ، فغلب خوف الموت على قلبه وانكرها مؤقتاً ، فاطلق سراحه فعاد إلى التعليم فاستقدموه وخوفوه ، فاقسم أنه يرجع عن ذلك التعليم وعاجلته المنية بعد قليل

ويعد من قبيل الجرأة الأدبيــة ظهور لوتيروس صاحب المذهب الانجيلي ، فانه حارب اعتقادات راسخة وتقاليد متوارثة وقوانين مدونة وطغمات مسلحة ولم يبال باللعنات والاضطهادات فوفق إلى تأسيس شيعة من اعظم الشيع النصرانية الآن . وهكذا يقال في أكثر أصحاب المذاهب والمصلحين ، فانهم يلاقون عقبات كالاطواد راسخة منذ أجيال يصعب تمهيدها ، ولا يفلح في ذلك الا أهل الثبات والصبر وسعة الصدر

ولا يزال عهدنا قريباً بمــا قاساه المرحومان الشيخ محمد عبده في سبيل الاصلاح الديني الاسلامي،وقاسم بك أمين في سبيل الاصلاح الاجتماعي ، فقد أظهرا جرأة أدبية كبيرة في مقاومة تيار التقاليد والعادات ، وقد وضعا أساساً لاصلاح كبير سيكون له شأن عظيم في الأجيال القادمة وسيذكره لهما التاريخ

٢ ــ الجرأة في نصرة العلم

كثيراً ما يكتشف العلماء حقائق علمية تخالف ما تعوده الناس من العادات أو

تمسكوا به من الاعتقادات ، فالتصريح بتلك الحقائق يحتاج الى جرأة أدبية ولا سيما في القرون الماضية يوم كان الناس عبيد التقاليد والاعتبارات . وأقدم من ذهب ضحية هذه الجرأة على ما نعلم سقراط الفيلسوف واضع الفلسفة الأدبية العلميـة أو محول الفلسفة القديمة من الخيال الى العمل . فخالفت تعاليمه مصالح كثيرين من معاصريه ، وربما وقفت عثرة في سبيل أرزاقهم فنقموا عليه ـ كما ينقم عبيد التقليد على رجال الاصلاح في كل عصر ـ فتصدى له خطيب اسمه أنيتوس وأخذ في مقاومته وتحقير تعاليمه وسعى بالدسائس والوشايات عليه ورفع للحكومة تقريراً بين فيه ما ارتكبه سقراط من احتقار الآلهة وخرق حرمة القانون ـ وهي حجة المقلدين على المصلحين ـ وطلب قتله

فطلبت الحكومة من سقراط أن يدافع عن نفسه فأبى لعلمه انهم قاتلوه لا محالة فحكموا عليه بالاعدام ، فاستقبل الحكم بثبات وهدوء ، فسجنوه قبل الاعدام مدة تردد عليه في أثنائها بعض محبيه ونصحوا له ان يفر وسهلوا له الفرار، فقال: «اخبروني عن مكان لا موت فيه فأفر اليه »

ولما آن موعد اعدامه أتوه بالسم في كأس ودفعوا بها اليه فشربها دفعة واحدة وأصحابه يبكون حوله . فلما رآهم يبكون ، قال : « ما بالكم تبكون ونحن انما أخرجنا النساء حتى لا نسمع بكاء ؟ كونوا رجالا وتصرفوا تصرف الرجال ! »

ويقال نحو ذلك في غليليو صاحب مذهب دوران الارض في القرن السابع عشر فهو وان لم يقتل في سبيله قد سجن واضطهد ، وحوكم في مجلس ديني يرى أن هذا الرأي في العلم يخالف تعاليم الكتاب . وحاولوا اقناعه بأن يعترف بفساد رأيه ويرجع عنه فأبى !

وألزموه مرة أن يقول بثبوت الأرض وهددوه ، فقال . ثم عدل ورفس الأرض برجله وصاح : « ومع ذلك فانها لتدور » وقضى بقية حياته معذباً بالمراقبة والدسائس ولكنه كان مطمئناً لثباته على اعتقاده العلمي

ويعد من هذا القبيل قيـام دروين في القرن الماضي بمذهب النشوء والارتقاء . وما يزال صدى المجادلات التي احتدمت بشأنه يرن في آذاننا

[عن الهلال سنة ٢٠ صفحة ٢١٨]

الحاسة الاجتماعية

نريد بقولنا « الحاسة الاجتماعية » نحو ما يريده الانكليز بقولهم Common sense أو Good sense وهو عند الفرنسيين Bon sens وقد اخترنا لفظ « الحاسة » في هذا التعبير قياساً على الحواس الطبيعية التي يستعين بها الانسان على ادراك ما يحيط به من المؤثرات الخارجية . وكانت الحواس في عرف القدماء خمساً : اللمس ، والنظر والسمع ، والذوق ، والشم . ثم اكتشفوا حاستين أخريين سموا احداهما « حاسة التوازن » وهي التي يتمكن بها الانسان من موازنة جسمه في وقوفه ومشيه ، وسموا الأخرى « حاسة الثقل » التي يهيء بها عضلاته لحمل الأثقال على اختلاف أوزانها . وفي الأنسان أيضاً نوع من الشعور أو الحس يميز به حقائق الاشياء وأعراضها ، ويدرك حكم الآخرين على أعماله أو أقواله فيكيفها على ما يلائم حاجاتهم . وكما سمى القدماء الآلة التي ندرك بها المرئيات « حاسة البصر » ، والتي ندرك بها الملموسات « حاسة اللمس » ، فقد سمينا الشعور الذي ندرك به علاقتنا الاجتماعية بالآخرين « الحاسة الاجتماعية » ، ربما نوفق الى تسمية أخرى أدل على المراد من هذه . وغرضنا الآن وصف هذه الحاسة ، وما يترتب عليها من أثر في نجاح الانسان في اعماله على اختلاف أغراضها ومناحيها

علة النجاح

ان نجاح الناس في أعمالهم يتوقف على مقدار ما فيهم من هذه الحاسة أكثر من مقدار ما أحرزوه من سعة العلم أو المهارة في الصناعة أو التجارة أو غيرها من وسائل المعاش . وهي أعظم أهمية في معترك الحياة من الذكاء وأقل شيوعا منه . لا تزيد نسبتها في الناس بالنظر الى الذكاء على اثنين أو ثلاثة في المائة . أي أن الامهات يلدن

أربعين ذكياً قبل أن يلدن واحداً من ذوى الحاسة الاجتماعية . ولذلك كثر الاذكياء وقل الناجحون منهم . لان النجاح لا يتأتى للذكى ان لم يعلم كيف يستخدم ذكاءه ، ولا فائدة من العلم ان لم يحسن الاسلوب فى أدائه

ان ثمار الذكاء كثيرة كالعلم والسياسة والصناعة وغيرها من أسباب العمران . لكنها لا تأتى بالفائدة المطلوبة حتى توضع فى موضعها على كيفية تلائم الذين وضعت لهم . ولا يتأتى ذلك ان لم يدرك صاحب تلك المواهب ما يكون من تأثير عمله في أذهان الناس ومقدار استعدادهم له . وهذا لايتم الا بالحاسة الاجتماعية . ولهذه الحاسة دخل أيضا في اختيار ما يعرض للانسان من أسباب المعاش ، فلا يتناول منها الا النافع الذى يمكن استثماره . قال أحد فلاسفة الانجليز : « ان المعرفة بدون هذه الحاسة حماقة » . واذا أحرز المرء كل المواهب دون الحاسة الاجتماعية ، فكأنه لم يعط شيئاً . أو كأنك تعطى البذور لمن لا يعرف الزراعة ، أو السلاح لمن لا يحسن استخدامه . ولذلك كانت الحاسة الاجتماعية سيدة المواهب ، إذ لا يكفينا أن نعمل الخير بل يجب أن نعمله فى الوقت المناسب ونضعه فى المكان المناسب . فالذكى يعرف أن يعمل ، ولكن صاحب هذه الحاسة يعرف كيف يعمل ومتى يعمل !

ومقام الانسان فى المجتمع الانسانى يتوقف على هذه الحاسة ، كما يتوقف على غيرها من الخلال الراقية . ويمكن للذكي أن يكتسب كل علم أو تجارة أو صناعة بالاجتهاد والسعى ، لكنه عبثاً يسعى فى اكتساب هذه الحاسة ان لم تولد معه . على أنها تقوى وتنمو بالتربية والتعليم . وهي اذا وجدت وكان الذكاء قليلا تكفلت باستثمار ذلك القليل لتكون غلته كثيرة . والنجاح فى الاعمال يتوقف على الادارة أكثر مما يتوقف على العلم . والادارة لا تتوافر فى غير أصحاب هذه الحاسة . ولنأت بأمثلة من ذلك فى أهم الاحوال الاجتماعية :

تأثير الحاسة الاجتماعية فى السياسة

أهل السياسة أذكياء على العموم . لأن الانسان لا يبلغ الى المناصب السياسية الهامة ان لم يكن من أهل الذكاء والعلم . وانما يتفاوتون فى النجاح بنسبة ما عندهم من الدهاء ، وهو من ثمار الحاسة الاجتماعية . فالسياسى المحنك لا يقول الكلمة إلا وهو يعرف تأثيرها فى السامع كأنه مطلع على أعماق قلبه . فيقول ما يرجو من تأثيره الوصول الى غرضه . فلو شهدت رجال السياسة فى مؤتمر وأعطيت اكتشاف سرائر الناس ،

لرأيت الدهاء عجبا ، وعلمت كيف تتحارب العقول وما قد نصب فى تلك الحرب من المكامن والمراصد والمزالق ، وما يتخلل ذلك من الهجوم والدفاع والمهادنة والمناوشة والمناورة . واكثرهم دهاء أسعدهم حظاً . يصر أحدهم على طلب العشرة وهو يقنع بالثمانية . وقد يقتضى دهاؤه الرفض وهو لا ينوى غير القبول . وانما يفعل هذا وذاك تبعاً لما يدركه بشعوره الدقيق من وقع أقواله عند زملائه

تأثيرها فى التجارة

التاجر من أكثر الناس حاجة الى معاملة الناس ، ولا سيما الباعة فى الاسواق ، فهؤلاء لا يفلح منهم غير دقيق الشعور الذى يعرف تأثير كلامه فى الشارى بين ترغيب وتحبيب ومساومة . ولا يكفى أن تكون بضاعته حسنة بنفسها ، بل يقتضى أن تكون مناسبة للوسط الذى يقيم فيه ، ولا يعرضها الا على قوم يحتاجون اليها . ومن مقتضى الحاسة الاجتماعية ان يختار المرء التجارة التى تتفق مع ميوله ومواهبه ، وأن يحسن استجلاب السلع التى تلائم القوم الذين يعاملهم

وناهيك بحاجته الى هذه الحاسة فى معاملة عملائه بحيث يعلم ما يرضيهم أو يوافقهم ويشعر بحقيقة علاقته معهم . ويدرك نظرهم فى بضاعته وحقيقة منزلته عندهم . فلا تأخذه الظواهر فيطمع أو يشمخ ، فيفسد ما بينه وبينهم ويتحولوا الى سواه . ومن شأن هذه الحاسة ادراك حقائق الأشياء وعدم الاغترار بالظواهر . فالتاجر الحساس يعلم أن علاقته مع عملائه لا تثبت الا اذا عاملهم بالحق والأمانة ، وراعى مصلحتهم بأنواع السلع وأثمانها مراعاة حقيقية لا يقتصر منها على الكلام وتزويق الحديث وكثرة الاعلان . فان هذا وحده لا يجدى نفعاً ولا يكتسب شارياً . وانما المعول فى إرضاء الشارى على اقناعه بأن بضاعته توافقه وتعود عليه بالنفع أو الكسب ، ولا يقتنع ان لم يكن ذلك حقيقياً يؤيده الاختبار . فالتاجر ضعيف الحاسة الاجتماعية لا يشعر بهذه الحقائق ، فيتوهم أنه يكتسب « الزبائن » بالترغيب والتزويق وكثرة الكلام . وأما الحساس فانه يجعل همه تحسين بضاعته حتى توافق عملاءه وهي تنوب عنه فى الترغيب

واذا تدبرت أحوال التجار وما بينهم من التفاوت فى النجاح رأيت أسباب سقوطهم فى الغالب اغترارهم بالظواهر وتعاميهم عن الحقائق . وكما يخدعون عملاءهم بالمظاهر من الترغيب والتزويق ، ينخدعون هم أنفسهم بظواهر أحوالهم . يجدون النقود كثيرة بين أيديهم ، وهى ليست لهم بل لأصحاب المعامل التى يستوردون بضائعهم منها . وسيأتى

يوم يستحق عليهم دفعها فيغفلون عن ذلك . أو هم بالحقيقة لا يشعرون بثقل تلك الديون لضعف تلك الحاسة فيهم . فيتورطون فى الانفاق مما بين أيديهم بلا حساب . فاذا آن الدفع وقصرت يدهم عنه استغربوا ذلك وعزوا تقصيرهم الى عدم التوفيق أو الأزمة المالية . والواقع أنهم لم يكونوا يشعرون بحقيقة مركزهم، ولا يميزون بين ما هو حق لهم وما هو أمانة لأصحابه . وسقوط المحال التجارية أو تفليسها إن لم يكن سببه التزوير أو السرقة يندر أن يقع من غير الخطأ فى تقدير حقائق الأشياء ، ولا ينجو من ذلك غير صاحب الحاسة الاجتماعية

تأثيرها فى العلم

وللحاسة الاجتماعية دخل كبير فى العلم من حيث تطبيقه على حاجة الأمة . فالمشتغل بالعلم لا يكفى أن يكون عالماً ، بل ينبغى له أن يعرف كيف يستخدم علمه أو كيف يخرجه للناس ، ويكون مفيداً لهم . لأنه لو أحرز علوم الأولين و الآخرين ولم يشعر بحقيقة الوسط الذى هو فيه ويطبق ما يكتبه أو ينشره على حاجات أهله ، ذهب علمه ضياعا وأضاع وقته سدى . وقد ينفق على ما ينشره من جيبه ولا يسترجع شيئا منه . فيشكو كساد بضاعة الادب وينحى على القراء باللائمة ويتهم الامة بالجهل ونكران الجميل ، لانها لم تعرف قدره ولا أقبلت على نفثات يراعه، ويهددها بالقعود عن خدمتها. ولو تبصر وأنصف لحكم على نفسه بأنه لم يحسن الاختيار فيما كتبه أو ألفه ، ولا راعى فيه الوسط من حيث حاجة الناس الى هذا الموضوع أو ذاك ، أو انه لم يحسن سبكه حتى يلائم اذواقهم او مداركهم ، او غير ذلك مما يرجع الى نقص فى الحاسة الاجتماعية اكثر من رجوعه الى الجهل

نحن فى حاجة الى العلم لكننا احوج الى الشعور بحقيقة حالة الامة بحيث نطبق علمنا على حاجتها . وهذا التطبيق يحتاج الى الحاسة الاجتماعية فى كل جزء منه ، بل فى كل سطر مما يكتبه المؤلف فى أى موضوع من الموضوعات العمومية . فينبغى له وهو فى مخدعه يجر القلم على القرطاس لكتابة مقالة ان يتصور القارىء بين يديه يتململ من كل فقرة معقدة ، وينفر من كل عبارة غير صريحة ، ويضحك مما يتخلل تلك الكتابة من المغامز التى يتوهم الكاتب انطلاءها على القارىء لغرض فى نفس الكاتب يحاول اخفاءه بين العبارات المزخرفة بالتمويهات الدينية أو النعرات الجنسية . وليعلم قبل كل شىء ان القارىء كالشارى انما يهمه حقيقة ما تحويه تلك المقالة من المنافع

الادبية أو المادية دون النظر الى زخرف الكلام . وان كان فى القراء من تهمه تلك الزخارف فلأنه لم يتعود الحقائق بعد . فاذا تعودها لا يعطف على سواها . والواجب على الكاتب العاقل ان يعوده اياها

ظهر فى نهضتنا هذه مئات من الكتاب والعلماء فى مصر والشام وغيرهما لم ينبغ منهم فى خدمة الامة إلا عدد قليل . وظهر مئات من الجرائد والمجلات لم يبق منها إلا عشرات قليلة ، لا يعد ناجحا منها نجاحا حقيقيا إلا عشرة واحدة . وقد ظهر فى هذه النهضة مئات من الكتب فى بحوث شتى لم يرج منها الا القليل . واذا تدبرت هذا التفاوت فى نجاح بعض هذه المشاريع وسقوط معظمها لا تجده ناتجا عن تفاوت طبقات الكتاب فى العلم، بل عن تفاوتهم فى الشعور بحاجة الامة وتفاوت اقتدارهم فى تطبيق ما يعرفونه على حاجتها . فالصحف أو الكتب الرائجة الآن لا تدل دائما على تفوق أصحابها بالعلم وسعة المعرفة ، وانما هى تدل دائما على تفوقهم بالتدبير وحسن الاختيار ، وهما من ثمار الحاسة الاجتماعية ــ فضلا عن السعى أو الاجتهاد ، حتى هذا ان لم يكن مقيداً بحسن الاختبار فانه لا يفيد ، إذ لا يكفى الرجل أن يكثر من السعى والركض ، وانما يطلب منه أن يكون سعيه فى طريق الصواب والا عاد عليه بالضرر

تأثيرها فى المعاشرة

ان تأثير هــذه الحاسة فى المعاشرة عظيم . لان المعاشرة مفتاح المعاملة . قد تجمعك المصادفة بانسان لم تره من قبل فيقع من نفسك موقعاً جميلا . وقد يترتب على ذلك الاجتماع معاملة تجارية أو مالية أو عائلية من زواج ونحوه . وقد تنفر منه وتشعر بدافع يدفعك عن عشرته ولا تزداد مع الزمان الا نفوراً وبعداً . واذا سئلت عن الفرق بين الاثنين لقلت إن الأول خفيف الروح والثانى ثقيلها . ولو حللت هذا التعبير تحليلا دقيقاً لرأيته يرجع الى الحاسة الاجتماعية . وان هذه الحاسة حية نامية فى خفيف الروح ، وضعيفة أو ميتة فى سواه

يأتيك بعض الناس لشغل فلا يكلمك الا فى ذلك الشغل ، وهو يلاحظ وقع كل كلمة من كلماته على أذنك . ويستدرك ما قد يقع من هفوة أو نحوها . ويشعر من تلقاء نفسه بالوقت الذى ينبغى له ان ينصرف فيه من عندك . ولا يبالى بمجاملتك إياه وطلب بقائه فى زيارتك . ويأتيك آخر لشغل أو زيارة وتكون مشغولا بما يحول دون مقابلته ، لكن الآداب الشرقية لا تسمح لك برده فتستقبله فلا يبالى بشواغلك

ولا يشفق على وقتك ولا يعرف لحديثه حداً . وقد يكون اكثر كلامه عن نفسه أو عائلته وما يأكلون أويشربون وما أتاه ابوه او جده او هو نفسه من جليل الاعمال ، وقد يتطرق الى الطعن فى الناس او العتب على الزمان ، ويتشعب حديثه من موضوع الى آخر،وقد يكون فيه ما لا يجوز ذكره بين يديك أو يدى بعض الحاضرين . لكنه لا يشعر بذلك لضعف الحاسة الاجتماعية فيه . ولا تطمع منه باصلاح ذلك الخطأ لأنه متأصل فى نفسه . ولا مانع ان يكون ذلك الثقيل عالما فى بعض البحوث الهامة التى تحتاج الى اعمال الفكرة فينبغ فيها ويفوز على أقرانه ، ولكنه يعجز عن اصلاح ذلك النقص فيه . واذا تعمد الاصلاح ليقال انه خفيف الروح ، ظهر ذلك منه متكلفاً ، فتزداد روحه ثقلا

فسلامة الذوق وحسن الاختيار أو الشعور الدقيق فى المعاملة والتمييز بين حقائق الأشياء وأعراضها ووضع الاشياء فى مواضعها ، ترجع كلها الى « الحاسة الاجتماعية » التى نحن فى صددها ، وعليها تتوقف حال المرء فى المجتمع الانسانى اكثر مما تتوقف على ذكائه وعلمه . فعلى الذين يتولون تربية النشء أن يوجهوا التفاتهم الى هذه الحاسة ويربوها فيهم بالتنبيه الى محاسنها كما ينبهونهم الى فوائد الفضائل واضرار الرذائل، فان عليها يتوقف حالهم فى دنياهم . وهي اذا ارتقت تتكفل بارشادهم الى سواء السبيل ، وتغنيهم عن نصح الناصحين

[عن الهلال سنة ٢١ صفحة ٤٠٤]

طبقات العقول

التدبير سيد القوى العاقلة

اختلف العلماء فى تحديد العقل وفى تعيين ما ينطوى عليه من القوى كالذاكرة والفهم وغيرهما. وليس غرضنا البحث فى ذلك بحثاً تحليلياً فسيولوجياً أو فلسفياً، وانما أردنا النظر فيه من وجه اجتماعى اصلاحى، نريد به خدمة الهيئة الاجتماعية من حيث تربية القوى النافعة، والتمييز بين اعمال العقل، وبيان تأثيرها فى المجتمع الانسانى. ولذلك فاننا سنختار فى تقسيم قوى العقل ما يقرب فهمه من القارىء لايضاح الغرض المقصود من هذه المقالة. ونستأذن علماء العقليات وأصحاب الفلسفة فى خروجنا عن التقسيم المعروف لقوى العقل أو قوى النفس مراعاة لما نريد بسطه

أقسام القوى العاقلة

اذا نظرنا في أعمال العقل نظراً اجماليا، رأيناها تنقسم الى طبقتين: الطبقة الاولى تشتمل على أعمال «انفعالية» يأتيها العقل منفعلا من تأثير خارجى كالشعور والتصور والادراك، فانها تحدث من تأثير الصور التى تصل الى العقل من الخارج. والطبقة الثانية الاعمال «الفاعلية» وهى ما يجريه العقل من عند نفسه، ويظهر انه البادىء به كالوجدان والارادة والحكم

وتقسم الطبقة الاولى من أعمال العقل الى قوتين رئيسيتين هما:

أولا ــ الوجدان: وهو شعور الانسان بوجوده وبما يحيط به.

ثانياً ــ الفهم: وهو ينطوى على عدة قوى لا يتم عمله إلا بها. أوهى درجات يتنقل فيها العمل العقلى حتى يتم الفهم وهي:

(١) الشعور : هو اتصال المؤثرات الخارجية الى الدماغ بواسطة الحواس

(٢) التصور : حصول صور الأشياء أو الافكار فى الذهن

(٣) الادراك : هو تفهم القضايا التى تعرض على العقل

(٤) الذاكرة أو الحافظة : هى اختزان تلك الصور الى حين الحاجة

فهذه الأعمال انفعالية تعرض على العقل فيقبلها ويحفظها . وقد يشترك فيها الحيوان فتكون فى العجماوات كما فى الانسان وتختلف بالدرجة لا بالنوع

يليها الأعمال الفاعلية التى يباشرها العقل من نفسه، وهي أرقى من تلك، وأقرب إلى مناقب الانسان العاقل . وعليها تتوقف حال الانسان فى المجتمع الانسانى وهي :

أولا ــ التفكير : وهو مقارنة الأفكار أو الصور التى أدركها العقل وترتيبها واستيضاحها

ثانياً ــ الحكم : وهو التميز بين صحيح تلك الأفكار وفاسدها ، واستخراج النتيجة اللازمة منها

ثالثاً ــ الارادة : وهى الاقرار على ما يجب اجراؤه بعد صدور الحكم أو توجيه العقل الى ما يلزم البحث فيه ونحو ذلك

رابعاً ــ التدبير : وهو فى نظرنا أرقى القوى العاقلة لان عليه يتوقف الانتفاع من سائر القوى العقلية واختيار الخطة الواجب اتباعها فى أعمال الحياة . والتدبير يتوقف على قوتين هامتين :

١ ــ التوليد أو الاستنباط : وبه يستنبط العقل الآراء والأساليب

٢ ــ الحيلة العقلية : وهى الدهاء وبه يحسن العقل تدبير الطرق وترتيبها حتى تأتى بالغرض المطلوب

تلك هى أهم القوى العاقلة ، وقد رأيت من تدبرها والمقابلة بين ثمار أعمالها أنها تتفاوت فى أهميتها تفاوتاً عظيماً ، بعضها بسيط يشترك فيه الانسان والحيوان ، والبعض الآخر خاص بالانسان ، وهو درجات متفاوتة أرقاها التدبير أو الحيلة العقلية ، فانها سيدة القوى العاقلة والمسيطرة عليها وهى التى تستثمرها

فالانسان يكتسب بعض العلوم بالفهم وحده، ويحتاج فى اكتساب العلوم الأخرى الى التفكير والاستنتاج أو الحكم . لكن علمه هذا لا يكون نافعاً إن لم يكن هومدبراً يحسن استخدام العلم واستثماره . واعتبر ذلك فى الصنائع والفنون والآداب ، فان

الانسان يكتسبها بالفهم أو الذكاء ، فاذا لم يحسن تدبيرها لم ينفعه علمه . وبعكس ذلك صاحب التدبير فانه وان قل ذكاؤه يستطيع استثمار ذكاء الآخرين ، فيستخدم أصحاب تلك المواهب بتدبيره وحيلته العقلية

ومن الخطأ الشائع اعجاب الناس بأصحاب الفهم أو الذكاء أو القرائح وان لم يكن عندهم تدبير يستثمرون به قرائحهم . كالشعراء والمصورين والكتاب والصناع وأرباب الفنون والمهن العلمية مما يكفي في اكتساب الادراك والفهم أو القريحة الطبيعية . وقلما يعجبون بأصحاب التدبير أو الحيلة العقلية

ان صفحات التاريخ مملوءة بأسماء الشعراء والادباء والمصورين والمغنين والممثلين ونحوهم ، وقد أشبعهم الناس اطراء وإعجابا . ويندر أن يعجبوا بأصحاب التدبير العقلي أو الدهاء ، وفيهم رجال السياسة والادارة والتجارة . ولا يذكر التاريخ من هؤلاء إلا من يأتي بالمعجزات أو يكون لعمله علاقة بمصالح الامة . وأما الشاعر فقصيدة واحدة تشهره ، والمصور صورة متقنة تحفظ ذكره عدة أجيال ، وهي لا تضر ولا تنفع . وأما رجال التدبير فهم المسيطرون على أعمال العالم ـ حتى ثمار قرائح أولئك لا تشيع وتنتشر وينتفع بها الناس الا بسعي هؤلاء

يغلب في الناس عادة ألا يخلو أحدهم من القوى العاقلة كلها ، لكنها تتفاوت فيهم حسب الاشخاص . ففي كل انسان فهم وإرادة وتدبير وذاكرة ، لكن قد يكون الفهم في بعضهم اقوى من التدبير أو التدبير أقوى من الذاكرة أو غير ذلك . على أن التدبير أهمها كلها لانه يستثمر سائرها ـ كالقائد للجند اذا أحسن التدبير ربما استطاع أن يرتب جنده ترتيباً يجعل قوة الرجل منهم أضعاف قوة الجندي من عدوه

التدبير

فالتدبير سيد القوى العاقلة ، وعليه يتوقف حال الفرد وحال العائلة وحال الامة اكثر كثيراً مما يتوقف على الذكاء أو القريحة أو الفهم . وهو درجات يدخل في كبار الأعمال كما يدخل في صغارها واليك البيان :

١ ـ التدبير الشخصي

أبسط ضروب التدبير أن يحسن الانسان تدبير نفسه من حيث طعامه وشرابه ، بأن يتخذ أسهل الوسائل المؤدية الى ذلك مع اعتبار الاقتصاد والنفع ، وتطبيق هذا على أحواله المالية والصحية

وهذا الضرب من التدبير على بساطته عظيم الأهمية بالنظر الى الفرد . لأن عليه تتوقف صحته وصفاء ذهنه وعليها يتوقف مستقبله . ومن الناس من لا يحسن حتى هذا التدبير البسيط فتجده عرضة للامراض الضالة لاهمال فى الطعام أو اللباس ، ولو أحسن تدبيره لـكفاه ذلك مؤونة المرض

٢ ــ التدبير العائلى

ونريد به عناية الانسان بأهله ، وتدبير شؤونهم والتفكير فى مستقبل كل منهم ، مع الانتباه الى ما تحتاج اليه امرأته وأولاده من أسباب المعاش . وهو أهم من التدبير الشخصى لأن عليه تتوقف سعادة العائلة ومستقبل الأبناء . ولا يخفى ما فى ذلك من الأهمية بالنظر الى المجتمع الانسانى لأنه مؤلف من العـائلات ، غير ما يحدثه سوء التدبير من اسباب الشقاء لـكل فرد من افراد تلك العائلة ، مما يستطاع تلافيه بسهولة لو احسن رب العائلة التدبير وانتبه لمستقبل عائلته من اول امرها

ونعرف اناساً احجموا عن الزواج مبالغة فى الحذر من سوء عاقبة الزواج عليهم وعلى ابنائهم لئلا تعجز أحوالهم المالية عن القيام بأود البنين وتربيتهم التربية اللازمة

ونعرف أناساً لا يشعرون بمسئولية العائلة على الاطلاق . قد يكون أحدهم لا يملك شروى نقير وليس فى معجنه رغيف ولا فى جيبه قرش وأولاده ليس لهم ما يقتاتون به فى الغد ولا ما يلبسونه بعد شهر وهو هادىء البال ينتظر الفرج من الغيب . ولذلك تراه قد حفظ كل ما قيل من الأمثال أو الحكم أو الآيات فى الاتكال على الله والتسليم للعناية وأن القناعة كنز لا يفنى . ولولا فقره وعجزه لم يعمد الى ذلك . على أنه سعيد بأخلاقه وتسليمه . لـكن سعادته هذه لا تتعدى شخصه بل هي سبب شقاء عائلته لأنه لسوء تدبيره وإهماله يتركها للطبيعة تدبرها . وإنما يهمه أن لا يسمع صراخ أطفاله وهم يلعبون أو يتذمرون . وإذا احس احدهم بمسئولية الزواج ألقى تبعة ذلك على امرأته لانها هي المسئولة عن العائلة !

وليس الفقر وحده علة شقاء العائلة . بل نحن نعرف عائلات شقية وهي فى سعة من العيش ، وانما شقاؤها من سوء تدبير أربابها ، لاشتغال الأم بالزيارات والاب باللعب . وقد لا يغفلون عن ارسال الأبناء الى المدارس ، لـكنهم لا يفعلون ذلك عن تفكير أو تدبير ، وانما يفعلونه على سبيل العادة والقدوة أو تخلصاً من ضجة الأولاد فى البيت ، وما سبب ذلك إلا عدم ادراك مسئولية الزواج ، وضعف الانتباه لمستقبل الابناء .

وتجد من الجهة الثانية أناساً يبالغون فى العناية حتى ينقلب التدبير الى ضده ، فيدققون فيما يأكله أبناؤهم أو يشربونه بدعوى اعتمادهم على القوانين الصحية ، لكن بلا معرفة ، فيعود ذلك بالضرر على صحتهم . ويبالغون من الجهة الأخرى فى تربية اخلاق أبنائهم ، فيمنعونهم من الخروج الى الأسواق ومخالطة الناس لئلا يسمعوا كلمة بذيئة أو قصة غير ادبية ، فينشأوا على الخيانة وضعف الخلق . وهذا كله من سوء التدبير

٣ — تدبير الاعمال

ان ما قدمناه من ضروب التدبير — نعني تدبير الشخص وتدبير العائلة — هما أبسط درجات هـذه القوة . يليهما في الصعوبة تدبير أسباب المعاش وهو درجات بعضها فوق بعض تبعاً للمهنة أو التجارة التي يتعاطاها الانسان وما تحتاج اليه من اعمال الفكرة . فالصانع كالنجار والحداد ونحوهما لا يفتقر فى تدبير أموره الى إعمال الفكرة . ونجاحه يتوقف على اتقان صناعته وإرضاء «زبائنه» وهم قليلون قد يرضيهم منه أن يتقن ما يصنعه لهم . واذا تساوت المعرفة الصناعية ، فالسابق منهم صاحب التدبير فى معاملة الذين يترددون اليه

وأحوج منــه الى التدبير التاجر الذى لا بد له من منافسة جيرانه . فلا تروج سلعه إلا بالتحسين والتزويق والترغيب ، واسترضاء النـاس على اختلاف طبقاتهم ونزعاتهم ، والاحاطة بما يرضي كل واحد منهم حسب طباعه وميوله فضلا عن الاستقامة والاجتهاد وحسن الاختيار فى انتقاء السلع . ومن التدبير ان يقتنى السلع الرائجة . واذا تساوت السلع فالناجح صاحب التدبير ، اذ قد يباشر جماعة تجارة واحدة فى سوق واحدة فلا يمضى بضع سنين حتى يظهر تفاوتهم فى النجاح ويزداد الفرق بينهم اتساعا كل سنة . ثم ينفرد اكثرهم تدبيراً ويصير من كبار التجار ، وربما صار جيرانه من بعض العمال فى تجارته . وقد يكون بينهم من يفوقه ذكاء وفهماً ولو تسابقا في المدرسة لكان هو الفائز فى اللغة والتاريخ والشعر ، لـكنه لضعف قوة التدبير فيـه لم يستطع مجاراته في مهنة تحتاج الى مصانعة الناس والسهر على ما يحتاجون اليه من السلع ومعرفة ما يرضيهم من ضروب المعاملة

ولا يخلو تاجر ولا صانع من قوة التدبير ، لـكنهم يتفاوتون فى درجات نجاحهم بتفاوت تلك القوة فيهم . فيقضى بعضهم حيـاته فى حانوت يديره بنفسه ولا تتسع تجارته حتى يحتاج معها الى معين ، لان عقله لا يتسع لاكثر من ذلك ، وترى جاره قد

اتسعت تجارته وتعدد العمال في حانوته ووسع محله واكثر من الاصناف وشغله يتسع وأرباحه تتضاعف . لا يقعده عن ذلك عجز ولا يضيق تدبيره عن الاحاطة بذلك العمل الواسع . واذا رأى جاره الضعيف اهتمامه فى توسيع خطواته وتطلبه المزيد من الربح اقنع نفسه بأن ذلك تهور وانه لا يلبث أن يندم على ذلك التوسع . فاذا تحقق نجاحه فى مشروعه أنحى عليه باللائمة لمكابدته المشاق فى الاستكثار من المال والدنيا زائلة لا تساوى هذا العناء . واذا سمعه يشكو تعباً أو مرضاً افرغ عليه جام تعنيفه لأنه حمل نفسه فوق طاقتها

واعتبر ذلك فى الصانع أيضاً ، فان النجار الصغير قد يصير بتدبيره صاحب معمل للنجارة كبير يضم عشرات من العمال ، وربما حول معمله الى تجارة فى المصنوعات الخشبية . ويكون شأنه مع زملائه واقرانه مثل شأن ذلك التاجر الكبير

وهكذا المهن العلمية كالطب والحقوق والتعليم والصحافة والكتابة ونحوها فان نجاح اصحابها يتوقف اكثره على تدبيرهم . كم من طبيب كان أنجح تلاميذ صفه ونال الامتياز عليهم فى اكثر العلوم قد سبقه في عالم العمل رفيق له كان وسطا فى المعرفة ، فالسابق أضعف من المسبوق فى الفهم والذكاء لكنه أقوى منه فى التدبير . والطبيب يحتاج الى تدبير كبير فى مصانعة المرضى وأهلهم واغتنام الفرص لاقناع الناس بمهارته حتى يعرفوا له فضله على سواه . وقس على ذلك تفاوت المحامين فى تلك القوة وتفاوت نجاحهم بنسبة ذلك . والمحاماة تفتقر الى فهم كثير ودرس طويل وصبر جميل لكنها تحتاج أيضاً الى تدبير . ولذلك رأيت من المحامين من يقضى حياته فى دائرة ضيقة من العمل، وزميله الذى تخرج واياه فى مدرسة واحدة وسنة واحدة قد أصبح مكتبه أشبه بدائرة من دوائر الحكومة لكثرة العمال فيه من المترافعين والكتاب والمترجمين وغيرهم

صناعة القلم

وصناعة القلم على الاجمال اكثر المهن العلمية حاجة الى التدبير ، لانها تتعلق بشعور الناس وتمس حاجاتهم الادبية واعتقاداتهم الاجتماعية . ولا سيما فى الشرق لاختلاف المشارب والمذاهب والأذواق والأخلاق فيه عما فى سواه . فالكاتب الفرنسى أو الانكليزى يكتب لقوم اكثرهم من مذهبه الديني أو الاجتماعى ، يشتركون معه فى العادات والأخلاق والتربية ، فيعلم وهو يجر القلم على القرطاس ماذا يرضي قراءه

أو يفيدهم فيعدل مقالته ويحورها حتى تطابق حاجاتهم وتوافق أذواقهم . وأما الكاتب الشرقي فقبل أن يتناول القلم يرى العقبات تتوالى أمامه . ومهما يكن من تفاهة موضوعه أو أهميته لا يدري ما يكون تأثير أقواله على قرائه . ولا سيما في البحوث الاجتماعية أو الاخلاقية . فاذا أرضى المسلم لا يرضى المسيحي ، واذا أرضاها لا يرضى الاسرائيلي . واذا أرضى المصري قد لا يرضى المغربي أو السوري أو العراقي أو الهندي . واذا أرضى النشء المتعلم أغضب المحافظين على القديم . وقد يرضى الفقراء ولا يرضى الأغنياء . واذا أرضى هؤلاء جميعاً فانه لا يرضى نفسه لأنه لا يطلق لقلمه الحرية اللازمة ككاتب في الاجتماعيات ونحوها . ويضطر لتقرير الحقيقة الاجتماعية أو التهذيبية التي يقولها الكاتب الافرنجي بصراحة ، أن يحتاط لما قد يقيمه المتعنتون من الاعتراضات التي لا طائل تحتها ، لكنها تؤثر في نفوس القراء ، لأنها تضرب على أوتارهم الحساسة . فاذا خامرهم شك فيما يقرأونه ذهبت الفائدة المرادة منه . وأول واجب على الكاتب اذا أراد أن يكون لكلامه تأثير في قرائه أن يغرس في قلوبهم حسن الظن به . فاذا ساء ظنهم فيه ذهب تعبه سدى

فالكاتب العربي سواء أكان صحافياً أم مؤلفاً في البحوث العمومية لا يقدر أن يفيد قراءه ويستفيد هو من مهنته الا اذا أحسن التدبير . ولا يكفيه أن يكون عالما في موضوعه بل لا بد من التدبير فيما يكتبه تجنباً لسوء الظن فيه . فيجب أن يكون على بينة من حاجات قرائه وأخلاقهم وأن يحسن سبك أفكاره بما يرضيهم ويفيدهم . وهذا لا يكون الا بالتدبير . واذا تساوت المعرفة والوسائل كان النجاح على قدر التدبير . ويدخل في ذلك اختيار الموضوع وانتقاء الاسلوب والكيفية والكمية . ولهذا السبب رأيت طائفة من خيرة العلماء تقاعدوا عن الكتابة لكساد ما يكتبونه بالنظر الى ما يتوقعونه من الرواج ، فينسبون ذلك الكساد الى جهل الأمة . وقد تكون الأمة جاهلة فهي لذلك في حاجة الى كتاب يعلمونها ويحسنون التدبير فيما يكتبونه لها

والتدبير اللازم للكتابة يختلف مقداره باختلاف البحوث . فالمترجم من لغة الى لغة أقل الكتاب حاجة الى التدبير . يليه المؤلف الذي يطالع عدة كتب يستخرج منها كتابا ، وتزيد حاجته الى التدبير كلما تعددت الكتب وتفرعت البحوث ــ هذا من حيث الكتابة في ذاتها . ثم هو يحتاج الى التدبير في كيفية ايصال أفكاره الى القراء وارضائهم مع اختلاف أغراضهم وأخلاقهم

٤ ـ التدبير الاداری

نعنی ادارة الحكومة وتنظيم شؤونها المالية والداخلية والحربية ، وهو أرقى ضروب التدبير التى تقدم ذكرها واهمها ، لأن على التدبير العائلى والتجارى والصناعى يتوقف نجاح عائلة او جماعة . واما هذا فعليه يتوقف نجاح الأمة وحفظ النظام فيها والمحافظة على حقوق افرادها . وهو طبقات تتدرج فى الأهمية من المناصب الصغيرة فى الكفور والنواحى على أيدى المشايخ والعمد الى المأمورين والمديرين فالولاة فالوزراء تبعا لنظام تلك الحكومة .

يستخف بعض الناس بخدمة الحكومة لقلة حاجتها الى اعمال الفكرة والتدبير . وربما توهم بعض الادباء ان كتابة مقالة أو نظم قصيدة تحتاج الى مواهب عقلية تفوق ما تحتاج اليه الولاية أو المديرية . وهم يعبرون عن ذلك بقولهم : « وما الذى يفعله الوالى غير اصدار الاوامر وختم الأوراق ؟ » ويخيل اليه أنهم لو جعلوه والياً مكانه لكان اكثر أهلية منه لهذا العمل

وهذا وهم . لان ادارة بلد صغير تحتاج الى تدبير وجهد يكفيان لنظم ديوان أو تأليف كتاب ـ لا نعني طبعاً ان العمدة يقدر أن ينظم القصائد الرنانة اذا لم يكن ذا قريحة شعرية . ولكننا نعنى ان حل مشكلة قضائية أو ادارية صغيرة يحتاج الى قوة عقلية تربو على القوة التى يستنفدها الشاعر فى نظم قصيدته ، والصحافى فى كتابة مقالته . فكيف بأصحاب المناصب الكبرى فى الدوائر الواسعة ؟

أنظر ما يحتاج اليه المدير او الوالى من اعمال الفكرة لتطبيق اوامره على طلب الوزارة وحاجة الاهلين . وهو فى خلال ذلك لا يثق ان اوامره ينفذها وكلاؤه وكتابه كما يريد لا ينحرف بهم عنها غرض او طمع . واعتبر ذلك في اعمال الوزراء او من يقوم مقامهم على رءوس الحكومات فانها اصعب كثيراً مما يتوهمه غير العارف . ولهذا السبب كثرت الانتقادات على الوزراء العثمانيين الذين تولوا شؤون الحكومة بعد الدستور وسلقهم الكتاب بألسنة حداد وهم يزعمون فى خلال انتقاداتهم أن فى الأمة عشرات يستطيعون تدبير شؤون الحكومة بأحسن مما دبره أولئك . وهذا وهم . ويختلف التدبير اللازم للادارة باختلاف المسئولية الملقاة على عاتق صاحب ذلك المنصب

٥ ـ التدبير الحربى

نريد به تدبير القواد فى ساحة الحرب ، وهو أرقى ما تقدم من ضروب التدبير

الاداري لانه يتصل بأعز ما تملكه الأمة ــ نعني الحياة والشرف . فالقائد الماهر ينبغي أن يكون كثير التدبير واسع النظر لانه وهو في خيمته أو مكتبه يرسم خطته للهجوم أو الدفاع ويعين موقف كل كتيبة وكيفية هجومها أو دفاعها ، ويفرض ما قد يأتيه العدو من اسباب الدفاع او الهجوم أو ما يدبره من الحيل الحربية أو الخديعة ونحوها ــ عليه ان يتصور ذلك كله ، وينظم جنده على مقتضاه . وقد يطرأ عليه في اثناء المعركة ما لم يكن في حسبانه . فهو عند ذلك لا بد له ان يحكم حالا فيما ينبغي ان يفعل لدفع تدبير عدوه . ولا يساعده الوقت على طول التفكير او التجربة ، فان كلمة واحدة قد تتوقف عليها حياة الأمة أو موتها . والتباطؤ دقيقة واحدة قد يعود بالفشل ويقضي على استقلال تلك الأمة او على آمالها

فانظر ما يقتضيه ذلك من التعقل والتدبير والحزم ورباطة الجأش . وهو ما اشتهر به كبار القواد في التاريخ

٦ ــ التدبير السياسي

هو أهم ضروب التدبير الاداري على الاطلاق . لأن التدبير السياسي يشمل النظر في علائق الدول بعضها ببعض . وعلى تدبير رجال السياسة يتوقف السلم والحرب . فكم يقتضي ان تكون دائرة تفكيرهم واسعة حتى تحيط بمصالح دولتهم وعلاقاتها بمصالح الدول الأخرى ورسم الخطة التي يتمشون عليها للمحافظة على مصالحهم . ولا سيما في أثناء عقد المؤتمرات ، اذ تتبارز المواهب وتتناضل العقول ويغلب صاحب التدبير الاقوى والحيلة العقلية الكبرى ! كم من دولة فشلت في تدبيرها الحربي في اثناء المعارك لضعف تدبير القواد ، ثم فازت بتدبيرها السياسي في اثناء عقد الصلح لقوة تدبير السفراء . هكذا اصاب روسيا بعد حرب اليابان والعثمانيين بعد حرب البلقان

الخلاصة

فقوة التدبير تتدرج في الرقي من تدبير الشخص أمور نفسه الى تدبير العائلة . فالتدبير الصناعي والتجاري على اختلاف طبقاتهما . ثم التدبير الاداري فالحربي ، وأخيراً التدبير السياسي وهو أرقاها أو أوسعها . ثم ان لكل ضرب من ضروب التدبير هذه حداً قد يقف صاحبه عنده وقد يتعداه . فصاحب التدبير الشخصي قد يتعداه الى التدبير العائلي فالتجاري فما بعده . ولكن الغالب أن يقف كل تدبير عند حد هو

آخر ما يستطيع صاحبه الوصول اليه . وعبثاً يحاول تجاوزه

ونرى من الجهة الاخرى ان أصحاب الطبقات العليا من التدبير يعجزون احياناً عن القيام بما هو احط منها . كعجز بعض رجال السياسة والحرب الذين يدبرون الممالك عن تدبير شخصهم او عائلتهم . كأن تدبيرهم دائرة واسعة لكنها صلبة كالحلقة المفرغة تحيط بالاسطوانة الغليظة وتمسك بها من كل جوانبها ولا تستطيع الاحاطة بعود رفيع الا اذا كانت مرنة تتسع وتضيق حسب الحاجة فتحيط بالعود والاسطوانة . وهذا نادر ، ولذلك رأيت الذين يستطيعون تدبير الصغائر والكبائر قليلين

ومن الالعاب الاعتيادية التي تقاس بها قوة التدبير الشطرنج والداما . فان المهارة فيهما تفتقر الى الاحاطة باحوال كثيرة وفرض فروض كثيرة نحو ما يحتاج اليه القائد في ساحة الحرب والسياسي في المؤتمرات . ولذلك كان اكثر السياسيين وقواد الحرب ماهرين في هاتين اللعبتين. فكل قائد يقدر أن ينتصر في لعب الشطرنج ، ولكن هل كل لاعب شطرنج يقدر ان يتولى القيادة في الحرب ؟

(عن الهلال سنة ٢٢ صفحة ١٢٨)

فتش عن المعدة
لانها بيت الداء

قال استاذنا المرحوم الدكتور فانديك : « المعدة عضو مظلوم أشد ظلم ، يلقى عليها صاحبها أشغالا شاقة تضاهى أشغال هركليس الاثني عشر ، وهى صابرة على ذلك مدة مستطيلة تؤدى المطلوب منها بلا تذمر ولو بتعب مرهق ، وأخيراً يصيبها اليأس فتقطع العمل وتعذب صاحبها ، وتنتقم منه أشد الانتقام على ظلمه اياها . ومتى أخذت تشكو يعسر تسكينها ، واذا سكنت بواسطة التلطيف والتملق والمداراة كمداراة العين الرمداء ، تهيج لأقل سبب كأنها انتبهت الى قوتها وقيمتها ، فصارت مثل الولد المتخلق لا يرضيها شيء »

ولم ينطق البلغاء ولا جاء الحكماء على اختلاف الأعصر والأجيال بعبارة اكثر انطباقا على الحقيقة من الحديث النبوى : « المعدة بيت الداء » فقد قيلت منذ نيف وثلاثة عشر قرناً والطب لا يزال طفلا رضيعاً ، فشب الطب وشاخ ولم يزدها الا إثباتاً وتحقيقا . لأن المعدة عضو رئيسى للهضم ، والهضم قوام حياة الانسان ، وفى صحتها صحته وسعادته ، وفى اعتلالها شقاؤه وبليته

ومن أمثال الفرنسيين أنهم اذا أشكل عليهم فهم حادثة من الحوادث قالوا « فتش عن المرأة » يريدون أن للمرأة دخلا فى كل ضروب المعاملات على أسلوب خفى . ونقول اذا رأينا عارضاً صحياً مهما كان نوعه : «فتش عن المعدة» وهو ينطبق على فحوى الحديث المتقدم ذكره إذ يندر أن يشعر الانسان بعارض فى صحته الا كان سببه انحرافا فى عمل المعدة بين تلبك أو حموضة أو تعب أو تخم . ويصدق ذلك أيضاً على ما ينتاب الأصحاء من الاضطرابات العقلية والانزعاجات النفسية اكثر مما يصدق

على الأمراض العضالة فى الصدر أو الكبد أو الكليتين ونحوها . وإن يكن أكثر هذه الأمراض انما يحدث من سوء معاملة المعدة فى أوائل أطوار الحياة

وللمعدة دخل كبير فى أخلاق الناس . فمن تلبكت معدته ضاق خلقه وساء ظنه واحتد طبعه . وقد تبلغ هذه الأعراض فى بعض الناس الى درجة الوحشية . ولو أحصيت المنازعات الاعتيادية التى تحدث بين الرجل وامرأته أو الولد وأبيه أو الفتاة ووالدتها لرأيتها انما تحدث بعد الطعام إذ تكون المعدة ممتلئة . ويظهر ذلك على الغالب فى أهل الترف المكثرين من ألوان الطعام بحيث تمتلىء معدهم وتحتقن أوعيتها فيحدث التلبك فيضيق الخلق ويغلب على الرجل سوء الظن ، فاذا خطر لامرأته مثلا ان تخاطبه فى أمر يسرها وكررت القول أو كان فى خطابها ما يدعو الى اعمال الفكرة ، أجابها جوابا جافاً وهو لا يريد مجافاتها . فتنفر منه وهي تتوقع أن يسترضيها كما هى عادته فى مثل هذه الحال ، وقد فاتها أنه يفعل ذلك في غير حاله تلك ومعدته مرتاحة

أما الآن فان نفورها يزيد فى غضبه فينتقم عليها ويسمعها ما هو أمر ، فتزداد نفوراً وهو يزداد غضباً حتى يفضى بهما ذلك الى خصام يشتد أو يضعف بنسبة مدارك كل من الزوجين . وقد تسمع جارك يصيح فى امرأته ويعيرها ويلعن ساعة اقترانه بها ، وهي تجيبه بمثل ذلك ويشتد الخصام بينهما . ولو تقاضيا اليك لضحكت مما جرهما الى ذلك النزاع . واذا نظرت فى قضيتهما من وجهة طبية حكمت ببراءة كل منهما ، وألقيت التبعة على المعدة أو بالحرى على الهضم

وما يحدث فى البيوت الصغيرة يحدث مثله فى الممالك الكبيرة . فكم من حروب انتشبت بين مملكتين لم يكن سببها الا خصاما بين زعيميهما. ولو تدبرت سبب الخصام لوجدته التنازع على لفظ قاله أحدهما فعده الآخر اهانة وطلب ترضية ، فاكبر ذلك طلبه ، فجرهما ذلك الى شهر الحرب . ويا شقاء امة اصيب ملكها بالدسبيسيا (عسر الهضم) فانه فضلا عن عجزه عن ادارة شؤونها قد يجر عليها الوبال بما يثيره من الضغائن بضيق خلقه وحدة طبعه

ويكون تأثير ذلك شديداً اذا كان الملك مطلق التصرف كما كان أكثر ملوك الأرض قديما . يوم كانت ارادة الملك شريعة المملكة . أما الآن فقد تقيدت ارادة الملوك بشوراهم فى اكثر ممالك الأرض ، فأصبح الخطر قليلا من هذا القبيل. ولكن المعدة ما زالت ذات تأثير كبير فى الأندية السياسية . ومن الحكمة وسداد الرأى ان

تعقد مجالس الحكومات فى أوقات تكون المعدة فيها مرتاحة لا مثقلة بالطعام ملبكة ولا فارغة جائعة . ولكن الجلسات السياسية يطول أمد اجتماعها ساعات كثيرة كالمؤتمرات ونحوها فلا يؤمن فيها عواقب الجوع ، لأنه يؤثر فى الخلق تأثيراً تضيق النفس معه ذرعا عن التروى ودقة البحث فى المسائل العويصة

فلو كلف أحد وزراء الدولة المفاوضة مع مندوب دولة اخرى فى مسألة عليها خلاف بين الدولتين واجتمعا لتسويتها فكل منهما يجتهد فى اثبات الحق فى جانبه بالبرهان . ويغلب ان تكون براهين هؤلاء السياسيين سفسطية مقدماتها الطمع وحب الذات ، ولكنهم يزوقون البراهين تزويقاً . فاذا كان احد المندوبين من دهاة السياسة وتمكن قبل الشروع فى العمل من اثقال معدة زميله بالطعام الكثير وصبر عليه ساعة ثم اخذ فى البحث والجدال فلا تمضى ساعة اخرى حتى يعجز ذاك عن اعمال الفكرة ويصبح غير قادر على تدبر الموضوع واستخراج النتائج الصحيحة . واذا كان الآخر فصيحاً قاده بفصاحته ودهائه الى ما يريد وهو لا يدرى

ويحدث مثل ذلك اعتباطاً كل يوم فى اعمال الناس الاعتيادية وهم لا ينتبهون له . ولكننا نوجه التفات القارىء منذ الآن الى هذه الحقيقة ولا نظنه إلا معجباً بما يلاقيه من علاقة المعدة باعمال الناس على اختلاف ضروبها من سياسية أو تجارية أو ادبية

فاذا تبين لك ذلك علمت مقدار العناية التى يجب اتخاذها فى اصلاح الهضم لأن اصحاب المعدة الضعيفة من أتعس الناس حالا ، وهم لا ينظرون فى الدنيا إلا من وجهها الاسود ، فيرون الحياة مثقلة بالمتاعب والهموم ، فلا يهنأ لهم كسب ولا يفرحهم عمل من أعمال الحياة ، ولا يخفى ما فى ذلك من الشقاء وما يجر اليه من البلاء ، فان من كانت هذه حاله لا يستطيع عملا ولا يسر عشيراً

فأصحاب « الدسببسيا » لا يصلحون لمخالطة الناس ، على انهم قلما يلتمسون تلك المخالطة لانهم ميالون الى الانفراد . وقد يشتد ذلك فى بعضهم حتى يطلب الخلوة اياما ، وقد يلتمس الخلاء وربما تحول حاله الى السويداء فظنه الناس أصيب بخبل فيكتبون له الكتابات وينذرون عنه النذور ويحملونه الى الديور . وقد يكفى لشفائه ان يعالجوا معدته بما تصلح به بعد الفحص الدقيق

وأسباب تلبك المعدة أو عسر الهضم كثيرة اهمها :

١ ــ ادخال الطعام على الطعام أى ان يتناول الانسان طعاما قبل هضم الطعام السابق ، وهو مما نبه اليه الحكماء والاطباء من قديم الزمان ، وفى مقدمتهم الشيخ الرئيس ، فقال : « واحذر طعاما قبل هضم طعام »

٢ ــ الافراط فى تناول الاشربة الساخنة او المخدرة كالشاى والقهوة والتبغ والافيون

٣ ــ طول الصوم ثم تناول الطعام بكثرة والمعدة فارغة

٤ ــ سرعة المضغ والازدراد واللقمة لم تسحق جيداً ولا امتزجت باللعاب كما يجب. وقد سئل المستر غلادستون عن سبب اقتداره على الاعمال السياسية الشاقة على كبر سنه ، فنسب معظم ذلك الى التأنى فى مضغ الطعام وسحقه جيداً حتى قال : «لا ازدرد اللقمة قبل ان اسحقها بين أضراسى ثلاثين سحقة على الاقل »

٥ ــ الاعمال العقلية على اثر تناول الطعام ، فان المطالعة أو الكتابة تنبه الدماغ فيتوارد اليه الدم بكثرة فلا يبقى للمعدة كمية كافية منه لافراز السيال المعدى ، فيضعف عمل الهضم وتفسد الأطعمة فيها ولا يستثنى من ذلك الاعمال الجسدية ، وهذا ما حمل الامم المتمدنة على عادة القيلولة بعد الطعام ، فانها أحسن وسيلة للراحة وانتظام عمل المعدة

٦ ــ تناول الطعام على أثر التعب الشديد عقلا أوجسداً ، وهو يشبه السبب الثالث (طول الصوم) ومن عوائد هنود أميركا انهم اذا عادوا من صيد وقد أعياهم التعب وهم جياع ينامون قليلا ثم يأكلون

٧ ــ تناول الاطعمة الضخمة والاكثار من الاطعمة ، وتعداد ألوانها حتى يدخل المعدة منها فوق ما تستطيع هضمه

٨ ــ السهر الطويل بغير انتظام مع ما قد يعقب ذلك من اسرار الليل

٩ ــ طول القعود ساعات متوالية بغير رياضة أو مشى ، وخصوصاً اذا كان ذلك فى أماكن فاسدة الهواء

١٠ ــ عدم تنظيم اوقات الاكل اى ألا يعين للطعام ميقات معلوم كل يوم

على انك اذا تدبرت هذه الاسباب وغيرها مما لم نذكره ، رأيتها ترجع كلها الى تحميل المعدة فوق طاقتها ، فان مقدرتها على هضم الطعام تختلف باختلاف حالة الجسم جملة . فالمعدة فى الحالة الصحية الاعتيادية تهضم رطلا من الطعام مثلا . وأما فى حالة

تعب أو سهر أو صوم أو ما شاكل فلا تستطيع ذلك

ومن سوء حظ الأمة أن يكون طعامها لذيذاً شهياً ، فانه يعود أفرادها التلذذ به فيتناولون منه فوق ما يحتاجون اليه . ويغلب فى الاطعمة اللذيذة الدسمة ان تكون ثقيلة على المعدة فتساعد على تلبكها . وتجد طعام الانكليز ، وهم من ارقى الامم الحاضرة ، بسيطاً لانه لا يعنيهم فى صنعه إلا مقدار تغذيته وسهولة هضمه . وبعكس ذلك المشارقة، فانما يهمهم طعم اطعمتهم ومقدار ما فيها من دسم. زد على ذلك انهم يتعاطون منبهات تزيد شهوة الطعام كالعرق او نحوه . وقد لا يكونون فى حاجة الى منبه ، ولكنهم يتعاطونه استكثاراً من لذة الاكل ، وقد فاتهم ان العبرة فى التغذية ليست فى مقدار ما يدخل المعدة ، بل فى مقدار ما تهضمه منه

[عن الهلال سنة ١٨ صفحة ٥٣٧]

أعقل الناس أعذرهم للناس

لا يعمل الانسان عملا إلا وهو مدفوع اليه بعقله أو بعواطفه . ولا يذهب مذهباً أو يرى رأياً إلا وهو يرى له فى نفسه مسوغاً ، إما بالاقتناع أو بالبرهان . فاذا سمعت بأمر فظيع ارتكبه بعض الناس، فلا تحكم عليه بالخطأ قبل أن تستطلع عذره فيه، ويغلب أن تعود بعد سماعه عاذراً ـ اذا قيل لك إن محمد على باشا الكبير قتل أربعمائة من المماليك غدراً ، وكانوا مستكينين لا يناوئون ولا يقاومون ، فدعاهم لحضور الاحتفال بخروج حملة ابنه طوسون من القلعة ، فجاءوا مطمئنين وهو ينوى الايقاع بهم غيلة، فلما شربوا المرطبات ومشوا بالموكب أمر رجاله، فأحاطوا بهم وقتلوهم عن آخرهم. أو قيل لك إن بونابرت العظيم حاصر يافا حتى كاد يعجزه فتحها ، فطلبت حاميتها التسليم على أن يحفظ أرواحهم ، فأجابهم نائبه الى ذلك وساقهم الى معسكر بونابرت ، فأمر باعدامهم رمياً بالرصاص وعددهم أربعة آلاف رجل ـ اذا قيل لك ذلك ، فلا تنسب محمد على أو بونابرت الى الظلم أو القسوة قبل أن تعرف السبب الذى حملهما على ركوب ذلك المركب الخشن . وفى التاريخ كثير من أمثال هـذه الفظائع يندر ألا يكون لمرتكبيها عذر فى ارتكابها مع اعتبار روح العصر ومطامع بنى الانسان

على اننا لا نريد الخوض فى حوادث التاريخ ، بل نريد بعنوان هـذه المقالة التماس العذر فيما يسىء به الناس بعضهم الى بعض فى معاملاتهم الادبية الاجتماعية . أما المعاملات المادية ، فالشرع يضمن الانصاف فيها وله الحكم أو العذر

والمعاملة الادبية تتناول قسما كبيراً من علاقات الناس بعضهم ببعض ، وهي على كونها اعتبارية وهمية ، قد أصبحت محور تعامل الناس فى معظم أحوالهم الشخصية أو العائلية حتى السياسية

كم من حرب نشبت نارها غضبا لكلمة ساءت أحد الملوك أو القواد وربما بلغته خطأً ! وكم من خصام بين القبائل أو العائلات أو بين أفراد العائلة الواحدة بلغ دويه عنان السماء ، ولو بحثت عن سببه ما رأيت له أساساً غير التسرع وسوء الظن !

وفى أمثال هذه الحوادث يمتاز العاقل من الجاهل . فمن تبصر وملك عواطفه واستخدم عقله فى الحكم على صاحبه ،كان كثير العذر وهو كبير العقل ، ولذلك قالوا : « أعقل الناس أعذرهم للناس »

وأساس هذه الفضيلة والمحور الذى تدور عليه : «أن يعرف الانسان قدر نفسه» ولايستطيع ذلك غير العاقل المتبصر . لأن النـاس فطروا على ألا يروا عيوب انفسهم واذا كان بعضها ظاهراً ظهوراً واضحاً لاسبيل الى انكاره ، التمسوا لأنفسهم عذراً عليه أو كابروا فى انكاره ، ولذلك قالوا : « غاية العلم ان يعلم الانسان مقدار نفسه »

فاذا عرف الانسان مقدار نفسه (ولو بالتقريب) عرف ضعف الطبيعة البشرية وأدرك نقائصها واتضحت له الثاوم التى يجرى الخصام منها اليه برغم ارادته . فاذا وقع صاحبه فى مثلها هان عليه أن يعذره . ويزيد العذر سهولة عليه كلما زاد تعقلا وادراكا

اذا كنت لاتقدر أن تحمل قنطاراً ، فلماذا يسوءك عجز الآخرين عن حمله . واذا استطعت انت حمله لأنك اقوى عضلا منهم ، فلماذا لا تعذر ضعفهم

تحتقر صاحبك أو قريبك أو تشتمه ثم تستغرب غضبه عليك أو اساءته اليك ، فهل اذا احتقرك هو أو شتمك تباركه أنت وتثنى عليه ؟

فالعاقل من لايبدو منه ما يسىء الآخرين لئلا ينال جزاءه . واعقل منه من يعذر المسىء اليه لضعفه او اضطراره او جهله على حد قول القائل :

لو كنت تعلم ما اقول عذرتنى   او كنت اجهل ما تقول عذلتكا
لـكن جهلت مقالتى فعذلتنى   وعلمت انك جاهل فعذرتكا

واذا تدبرت ما يقع بين الناس من الخصام او النزاع رأيت معظمه ناتجاً عن سوء الظن ، لقلة صبر الانسان على التدبر فيتسرع بالحكم على صاحبه ، ويبالغ فى تعنيفه على زلة لم يكن هو لينجو منها لو كان فى مثل حاله ، وربما كان وقوعه فيها أشد خطراً عليه من ذاك . فاذا ألف أحدهم كتابا او نظم قصيدة او لفظ خطابا وبدرت منه هفوة او هفوات ، فالعـاقل يعذره لبعض عمله بالنظر الى ما افاده فى مجمله . واما الجاهل فهمته بعد قراءة تلك المقالة ان يبين ما فيها من الخطأ ، فاذا لم يجد خطأ انتقد

عبارتها او موضوعها أو شيئاً آخر . وهو لو كلف كتابة سطر منها ما استطاع اليه سبيلا ، ويقال ذلك في انتقاد الناس على الشعراء والخطباء وغيرهم . ويغلب فى أولئك المنتقدين ان يكونوا قليلي المعرفة كبار الدعوى . ويندر ان يجتمع كبر الدعوى وسعة العلم فى واحد . لأن الانسان كلما زاد علمه زاد اتضاعه ، لتحققه ـ بعد طول البحث وكثرة الاطلاع ـ أن ما يتيسر للانسان معرفته من أحوال الطبيعة ونواميسها وحوادثها لا يقاس بما يبقى غامضاً منها . ويشعر بتوالى البحث بزيادة جهله ، فهو لا يبدى رأيا أو يكتب كتاباً أو ينظم قصيدة إلا وهو يتوقع أن يكون فيها نقص . ولذلك لا يستغرب ما قد يراه من النقص فى أعمال الآخرين فيعذرهم . واذا انتقده منتقد تبصر فيما لاحظه عليه واستفاد من انتقاده بلا مكابرة ولا جدال ، وان لم يكن فى ذلك الانتقاد ما يعتقد هو صحته

فأساس اغتفار الزلات شعور الانسان بضعف طبيعته وتعرضه للخطأ. واذا نظرت في هذه القاعدة من حيث معاشرة الناس ومعاملاتهم الاجتماعية ، رأيت اكبرهم عقلا وأوسعهم صدراً اكثرهم عذراً للناس . وهو أقلهم أعداء لانه لا يصدق كل ما يبلغه عن اصدقائه أو اصحابه أو خدامه مما يسوؤه أو يمس كرامته . واذا صدقه فلا يؤاخذهم عليه إلا على قدر عقولهم وسائر أحوالهم . فلا ينقم على خادمه اذا قصر في فهم عبارة أو قال قولا لا يليق ، ولا يطالبه بالاعتذار أو يضربه أو يشكو سوء حاله معه ، لعلمه انه لو كان كما يرجو هو ما استطاع استخدامه فى منزله بدريهمات قليلة

ويقال ذلك في تعامل الاقران ، فان بين اصحابك من تخاف وانت تخاطبه ان تفرط منك عبارة يحملها هو على محمل الاهانة له وانت لا تقصد اهانته ، أو يؤولها الى التعريض به او ببعض اخلاقه أو بشيء من اعماله فتجتمعان على صداقة وتفترقان على عداء . ومنهم من تخاطبه وانت لا تحاذر ان يسوء فهمك أو يحاسبك على سهوك . واذا تدبرت الفرق بين منزلتي الاثنين عندك لرأيتك تعد الاول صغير العقل قصير البصر ، وتعد الثانى كبير العقل واسع الصدر ـ فكن الثاني ولا تكن الاول ـ لان من العار على الرجل ان يعاشره اصدقاؤه على حذر

[عن الهلال سنة ١١ صفحة ٥٦٢]

احفظ شبابك
والكهولة تحفظ نفسها

احفظ شبابك وأنت فى ابان الشباب . احتفظ به انه ذخر الكهولة وزاد الشيخوخة . اقتصد بما تنفقه من شبابك ولا تحسبه ينبوعاً دائما . انه ينبع الى حين ، فاذا انقضى تطلبه فلا تجده فتندم ولات ساعة مندم

وقد تسألني : « كيف أحفظه وهو زائل من طبعه والتماس بقائه محال؟ » فأقول : احفظ شبابك لا بالطعام ، فانك انما تستبقى به الحياة . ولا بالنوم فانك تستريح به من تعب النهار . احفظه بالعفاف والاعتدال . واحذر من الاسراف فانه ذاهب بالحياة وأنت لا تشعر إلا اذا مالت شمسك الي الزوال

اذا لقيت شيخاً طاعناً فى السن شاب شعره وسقطت أسنانه وتجعد وجهه وغارت عيناه وهو مع ذلك منتصب القامة براق العينين صحيح البنية سريع الحركة نشيطاً يهضم طعامه جيداً ويعمل أعمال الشباب جسما وعقلا ، فاعلم انه قضى شبابه عفيفاً معتدلا فلقى ثمرة ما ادخره من القوة فى شبابه

واذا رأيت شابا في مقتبل العمر وريعان الشباب وقد أشرق وجهه بماء الشبيبة ، فلا يغرنك منه ذلك الاشراق ولا يسرك انتفاخ وجهه وكثرة طعامه ولا تعبأ بما يظهر عليه من سمات الصحة والعافية ، وهو اذا مشى تعب ، واذا صعد سلماً لهث ، واذا كلفته عملا عقلياً مل وضجر ، واذا حدثته عن خطر خاف وارتعد ، أو قيل له ان فلانا أصيب بخبل خاف أن يصاب بمثله . وتراه لا يجسر على عمل ولا يقدم على مشروع. فاعلم انه غافل عن شبابه مقصر فى صيانته . لأن الشاب اذا عفّ ظل ثابت الجأش قوى الجنان صبوراً على تقلبات الأيام ، ولا يزال كذلك الى آخر أيامه

فالمرء بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين أو الثلاثين فى حال يحتاج فيها الى يقظة وانتباه . فاما ان يحفظ شبابه فيعيش عمره صحيحا معافى ، وإما أن يضيعه فيقضى على نفسه بالتعس والخسران

وقد حدا بنـا الى كتابة هذه السطور ما نراه فى شباتنا من الانغماس فى ملاهي الشبيبة وهم لايدركون عاقبة ما يجرونه على أجسادهم وعقولهم من البلاء . فيقضون الليل سهارى فى أماكن اللهو ، وما أدراك ماوراء ذلك من مهاوى الضلال ودركات الفحشاء ممـا يميت عواطفهم ويوهن قواهم ويضعف عقولهم ويذهب بحياتهم ، وبئس المصير ؟ !

ولا يقتصر ضياع الشبيبة على هـذا السبيل ، فان بين الأدباء البعيدين عن تلك الملاهى من يجهل قيمة الشباب فيصرفه فى سبيل يحسبه غير ضار وهو لايرى ضرره وله عذر فى ذلك اذا جهل العاقبة . اما وقد علم انه قد يقتل نفسه عمداً فهو ملوم فى ذلك الاسراف

اذا احمرت وجنتاك وأبرقت عيناك وانتفخ وجهك وأنت مع ذلك اذا أجهدت نفسك فى عمل خانتك قواك واستولى عليك الملل فما أنت إلا عليل . والعلة ليست فى العضل ولا فى الذهن ، بل هى فى القلب والدماغ لان الافراط انمـا يضعف هذين العضوين فيصبح الشاب شيخاً

فمن ظواهر هذه الحال كلل العقل وضعف القلب ، فيخفق لأقل المؤثرات ويضرب لأخف الأسباب . وقد يستولى عليه الوسواس والحدة فيخاف مما لايدعو الى الخوف ويغضب مما لا يدعو الى الغضب . والبلية العظمى ان حالته هذه قد تسوقه الى زيادة الانغماس فى سبب تلك العلة فيزيد الطين بلة

فاحتفظ بشبابك ولو تكلفت فى بادىء الرأى كظما . احتفظ به انه زاد الشيخوخة فاذا أنفقته فى مقتبل العمر أمسيت بلا زاد وخير الزاد التقوى

اذا قرأت ترجمة رجل عظيم أنهض نفسه من دركات الذل والفقر الى مراقي المجد والسؤدد بجده واجتهاده ، فاعلم أنه انما اكتسب ذلك بالنشاط والاقدام والصبر على مضض الأيام وذلك لا يكون إلا مع العفاف . وأشهر من حاد عن تلك الخطة من مشاهير الرجال انما هو الشيخ الرئيس (ابن سينا)

وكم من شبان دلت أوائل نشأتهم على مواهب سامية كنا نرجو لهم بها مستقبلا

عظيما ، فاضاعوها باسرافهم وباتوا يتقلبون على فراش المرض ، ومعظمهم ماتوا قبل ادراك الكهولة . ولو بحثت عن ذلك لرأيت سببه متصلا بأحوالهم السرية

احفظ الشبيبة واما الكهولة فهى تحفظ نفسها . اذ تضعف العواطف ويتسلط العقل والعقل اذا تسلط لا يدل إلا على الخير والسلام

[عن الهلال سنة ٨ صفحة ٤٩]

الفراغ مفسدة

قال القدماء : « الطبيعة تكره الفراغ » يريدون فراغ المكان من المادة لأنهم رأوا بالمشاهدة والاستقراء ان ما يظهر للناس من الأمكنة خالياً انما هو مملوء بالهواء لأن الماء أو غيره اذا صب فى وعاء لا يدخله قبل خروج الهواء منه ، فعبروا عن ذلك بكره الطبيعة للفراغ . وهو رأى العلماء الطبيعيين الى اليوم وان اختلفوا في أسلوب التعبير . فالفراغ مستحيل فى الطبيعة لاننا لا نتصور مكانا لا تشغله المادة ـ هذا ما يقال فى المحسوسات وهو يطلق على المعنويات ، فالعقل أو الفكر لا يخلو من أمر يشغله . ولو أراد أحدنا أن يصرف ذهنه عن أمر يهمه انتقل الفكر الى سواه ، أراد صاحبه أو لم يرد . والانسان اذا تعددت عليه المهام اشتغل ذهنه بأثقلها وطأة عليه أو اشدها تأثيراً فى نفسه . فاذا انفرجت هذه احتلت مكانها مهمة ثانية تليها فى الشدة فاذا فرجت جاءت ثالثة مكانها ، فأخرى . كأن المهام أو المشاغل تترتب فى الدماغ طبقات باعتبار أهميتها كما تترتب السوائل اذا تفاوتت أثقالها النوعية ولم تمتزج فتترتب طبقة فوق أخرى حسب تلك الأثقال ، فاذا انصرف أثقلها من أسفل الوعاء احتل مكانه السائل الذى يليه فى الثقل وهكذا على التعاقب . وقس على ذلك سائر ما يبلغ اليه علمنا من المحسوسات والمعنويات فى الأفراد والجماعات . والحياة حركة دائمة اذا عارضتها من جهة لاتقف ، ولكنها تنصرف الى جهة أخرى

فالفكر أو العقل لا يقبل الفراغ ، اذا خلا من عمل اشتغل بسواه بمقتضى المؤثرات على العقل أو الوجدان ، فاذا لم تشغله الحسنات اشتغل بالسيئات . ولذلك قالوا : « الرأس الفارغ مغارة ابليس » فالعاقل من شغل عقله بالنافع خوفاً من اشتغاله بالضار . وشغل الفكر هو شغل الوقت ، فالحكيم من أحسن استخدام أوقاته واستثمار افكاره . والوقت كالعقار لا يستثمره الا من يهتم به . ومن فرغ ذهنه من العمل وجدت المفاسد الى

قلبه سبيلا . وقد لوحظ ان الجنود تكثر الفتن بينهم اذا فرغوا من العمل ، ولذلك رأيت الحكومة تشغل جنودها ايام السلم بأمور اكثرها غير ضروري. ويقال ذلك في رؤساء الأحزاب السياسية وكبار المتشرعين ، فانهم يشغلون اتباعهم ومريديهم بفروض وأعمال اكثر المراد بها صرف أذهانهم عن الفتن بينهم أو التفكير فيما يفسد قلوبهم على زعمائهم

وليس غرضنا النظر فيما ينبغى من الأعمال فى كل ساعة من ساعات النهار أو فى كل دور من ادوار الحياة ، فان ذلك مما لا يسعه المقام. ولكل انسان عمل يتعاطاه للقيام باود الحياة ، وإنما نريد النظر فيما ينبغى عمله فى « ساعات الفراغ » وما أدراك ما ساعات الفراغ ؟ هي العقبة التي اذا تجاوزتها آمناً ادركت بها السعادة، وإلا فانها ذاهبة بك الى الشقاء. وقد قلنا ساعات الفراغ ولم نقل ساعات العمل ، لأن هذه لا خطر منها على العامل وهو فى شاغل عن عثرات القدم واللسان وفي مأمن من أشراك الشيطان . اما أويقات الراحة فهي التي يجب الاحتراس منها لأنها عقبة بل عقرب أو هي فى الحقيقة نحلة ، اما أن تجنى لك عسلا شهيا ، أو تلسعك لسعاً قويا . فكم من فتيان اغتنموا تلك الساعات وأحسنوا استخدامها فكانت سبباً فى رفع شأنهم ومحوراً لسعادتهم ، وآخرين أساءوا استعمالها فساءت حالهم وذلوا بعد العز وفسدوا بعد الصلاح ! فاحذر من يدك وعقلك ساعات الفراغ ، فانهما آلتان لا يرى الشيطان سبيلا اليهما إلا حين خلوهما من المشاغل

ما هي الراحة ؟

لا يتوهمن القارىء اننا نحرم الراحة على رجال الأعمال ، لأن الراحة لازمة للنجاح مثل لزوم العمل ، ولكن ما هي الراحة ؟

قد علمت مما تقدم أن الفراغ محال ، فاذا فرغ الانسان من عمله الذى يرتزق به انصرف الى ما يرتاح اليه من أسباب اللهو . اما باللعب بالنرد او البلياردو أو الداما أو غيرها من الألعاب فى المقاهي العمومية ، أو مجالسة بعض الاصدقاء لسماع الحوادث الجارية ، أو مطالعة الجرائد أو المعاقرة أو المقامرة أو غير ذلك . ومهما يكن نوع اللعب أو التسلية ، فالعقل لا يزال عاملا فى كل حال . فكيف يكون العمل العقلى سبب التعب وسبب الراحة معاً ؟

ان الراحة لاتقوم بالكف عن العمل ، بل هى تقوم بتحويله أو تنويعه ، فالعامل الذى يقضى نهاره قاعداً ويداه تشتغلان ، انما يرتاح بالمشى وامساك يديه عن العمل والتاجر الذى يقضى يومه مفكراً فى تجارته يرتاح بتحويل أفكاره من التجارة الى شىء آخر كالمطالعة أو بعض الألعاب العقلية أو البدنية . والمحامى يرتاح بانصراف ذهنه عن الموضوعات القضائية الى غيرها من الأدبيات أو العمليات . والكاتب قد يتعب من الكتابة فى موضوع رياضى ، فاذا انتقل الى بحث اجتماعى أو سياسى كتب فيه كأنه لم يتعب . وقس على ذلك سائر المهن . فالتعب عبارة كلل الأعضاء أو مللها من العمل المستمر على وتيرة واحدة ، وانما اللذة فى الانتقال . ولنفس هذا السبب يمل الانسان أى حال من الأحوال اذا طال مكثها ولو كانت من أسباب السعادة . فالفقير يشتهى الأطعمة اللحمية وسائر الطيبات ، ويحسد النائمين على الفراش الناعم والذين يكتسون الديباج والحرير ، ويعد السعادة كل السعادة فى الحصول على ذلك ، فاذا حصل عليه وطال تمتعه به مله والتمس سواه وقس عليه سائر الملاذ . فاللذة ليست بدرجة من درجات الغنى ، وانما هى بالانتقال مما يمله الانسان الى ما يشتهيه

فليست الراحة بابطال العمل وانما هى بتحويله من جهة الى أخرى أو من موضوع الى آخر . والناس يختلفون فى طرق ذلك التحويل ، وهى النقطة الجوهرية التى نوجه عناية شباننا وشاباتنا إليها ـ اذا لم يكن بد من اشتغال فكرنا فى ساعات الفراغ التماسا للذة الراحة فمالنا لا نشغله بما يلذ ويفيد ؟

خطر الفراغ

ليس عليك أيها الشاب خطر من ساعات العمل ، وانما الخطر كل الخطر من ساعات الفراغ ، فاما أن تقضيها فى أماكن اللهو والبطالة فتجر عليك الوبال ، أو تعمل عملا نافعاً لك ولأهلك . وقد تقول : ما ضر لو قضيتها فى أماكن اللهو وليس هناك ما أخافه ولا أنا آت ما أخشى عاقبته ؟ . فاعلم أيها الشاب ان الذين تراهم الآن وتهزأ بهم أو تأسف لحالهم لما هم منغمسون فيه من اللهو وأنواع المساوىء والمنكرات ، انما بدءوا بمثل ما أنت بادىء به ، وقد اعتقدوا فى أنفسهم المقدرة على ملاصقة النار بغير أن يمسهم منها ضرر ، فما لبثوا أن قادتهم العادة وغرهم سماسرة السوء فجعلوا ينحدرون دركة دركة من القهوة فالبار فالبيرا فالبيرالية ف . . ف . . وهكذا الى أسفل الدركات فساء مصيرهم

وأصبحوا من زمرة الأشرار وهم لا يعلمون . على أنهم لو أرادوا الرجوع عما هم فيه ما استطاعوا اليه سبيلا فأمسوا يعضون نواجذ الندم ولات ساعة مندم !

لاتعتقد الكمال فى نفسك ، فالانسان ضعيف يخشى عليه من العادة اذا تسلطت ، وهى انما تتسلط بالتكرار من غير قصد سيء — قد تذهب الى أماكن اللهو فى بادىء الرأى مسايرة لصديق أو خوفا من أن تتهم بالبخل . فتذهب وأنت تعتقد فساد رأى الداهبين ، وتزعم أنك لن تحذو حذوهم وانما تريد « مسايرتهم » ، وقد فاتك أنهم كانوا مثلك وقد بدءوا بمثل عملك فأصبحوا فيما هم فيه ولا يشعرون !

على انك لو تأملت حالهم لرأيتهم انما يطلبون التعب لا الراحة ، وأية راحة يرجونها من السهر الطويل فى معاقرة الخمر وانفاق المال ، فلا يمضى نصف الشهر حتى يمضى ما فى الجيب وقد يكونون من أرباب الرواتب القليلة فينفقونها على أبناء السبيل وأولادهم يئنون جوعا . أتحسب ذلك راحة والاشغال الشاقة أحسن منه عاقبة ؟

ربما كنت من أهل اليسار الذين أفاض الله عليهم الخيرات ارثاً — اذ لا يمكن أن تكون ممن كسبوا المال طارفاً ، والمال لا يناله إلا المكدون على العمل ، والمنقطعون عن تلك الأماكن. فان كنت من أهل اليسار — وهب انك تملك مال قارون — فانه لايلبث أن يذهب ضياعا وأنت لا تدرى . وقد يقودك غناك الى ارتكاب منكر هو شر المنكرات ، بل هو آفة العمران ، ألا وهو الميسر « المقامرة » . وإذن لا تستعظم ثروتك ولا تفرح بكثرة الأبنية والفدادين واصغر مزارعيك احسن حالا منك . وكم من أولاد الثروة وأبناء البيوت الرفيعة العماد اصبحوا بعد برهة يستدينون اقواتهم من بعض خدمهم وهم لايملكون شروى نقير . ذلك لأنهم غرهم غناهم فحسبوا العمل عاراً عليهم فسلموا زمام أشغالهم للغرباء واكبوا على ما ظنوه أليق بأهل الثروة ، فقضوا أيامهم ولياليهم فى الترف والبذخ واللهو ، فخسروا المال والصحة والشرف ،على حين ان الفقر لو ولدوا فيه لكان ستراً لهم ورادعا لجميع تلك الشرور

فمن الحكمة والتعقل ان تجتنب استخدام ساعات الفراغ فيما تسوء مغبته من لعب أو شرب فى الحانات أو المقاهي أو فى المنازل . وقد أصبح بعض المنازل فى مدننا الكبرى لسوء الحظ مقامر يجتمع اليها الشبان والشابات يقضون معظم الليل والنهار فى تقليب الورق وتداول النقود . وانتقلت هذه العدوى الى عائلات من خيرة العائلات أدبا وفضلا رجالا ونساء ، وفيهم جماعة من أهل الذكاء والعلم يزعمون انهم يقتلون

الوقت باللعب للتسلية لا للمقامرة ـ فاذا كانوا لا يخافون على أنفسهم من التورط ، ألا يرون فى ذلك خطراً على أولادهم وسائر أهلهم . وأما اعتذارهم باللعب للتسلية فمنقوض لأن وسائل التسلية كثيرة وخصوصا فى المدن الكبرى بين المتعلمين والأدباء وأهل الذكاء ، كالاجتماعات الأدبية والمباحثات فى الحوادث الجارية من سياسية أو اجتماعية وفى ذلك تثقيف ولذة وفائدة . فاذا مل من الحديث فهناك العاب كثيرة تعرف بألعاب المنازل قد يشترك فى اللعبة الواحدة عشرة أو عشرون . وفى بعضها ـ الى التسلية ـ فائدة لتوسيع العقل دون تعب كالألعاب المبنية على الأسئلة التاريخية أو الأدبية أو نحوها وكلها مشهورة بين العائلات . ويحسن الابتعاد عن الألعاب التى تشبه آلات المقامرة مهما تكن بسيطة ، لأن لعب الورق البسيط كثيراً ما يكون سبيلا الى المقامرة وخفاً للاعبين أو لأولادهم على الأقل . وينبغى الاستعاضة عنها بالمباحثات أو المطارحات أو المذاكرات على قدر استعداد الحاضرين

ونعرف شبانا فى القاهرة والاسكندرية أنفوا من سهرات الكسل والرخاء التى تذهب بالوقت سدى ، فألفوا جمعيات بعضها أدبية وبعضها علمية . ومنها جمعيات تمثيلية أشبه شيء بالفرق المسرحية ، فبعضهم يؤلف الرواية والبعض الآخر يمثلها . وكثيراً ما عادت هذه الأعمال بالنفع المادى على الأعضاء عدا النفع الأدبى . فما يمنع أن يشترك السيدات أيضاً فى مثل هذه الجمعيات ، أو ينشئن جمعيات لأنفسهن يشتغلن فيها بما ينفعهن وينفع الناس ويصرف أذهانهن عن تلك الألعاب الجهنمية

فائدة الفراغ

على اننا لا نرضى منك وأنت من شبان القرن العشرين أن تكتفى بتجنب شر الفراغ ، وانما انت مسئول عن ضياعه عبثاً . ان ساعات الفراغ ذخر سمين لمن يحسن استثماره ، ولو تدبرت سير رجال الأعمال والمخترعين لرأيت ما أتوه من اختراع أو اكتشاف أو مشروع عظيم انما هو من ثمار اشتغالهم فى ساعات الفراغ . ألم يكن رتشرد كرايت مخترع آلة الغزل ومؤسس معامل القطن حلاقا ؟ وكذلك كان تتردن قاضي القضاة وترنر المصور الشهير . فهل بلغوا مابلغوه بغير استخدام ساعات الفراغ ؟ ان معظم العظماء نبغوا من اكواخ الفقراء بالجد والنشاط ، وما هما الا « العمل فى ساعات الفراغ » فمن استخدم ساعات الفراغ فيما ينفعه فهو النشيط المقدام الذى

يرجى خيره . ولا يحتقرن أحد نفسه مهما يكن فقيراً ، وانما الفقير الـكسلان ضعيف العزيمة ساقط الهمة . فقد نبغ من بين الفعلة غير واحد من المهندسين والشعراء . ونبغ من بين البنائين بن جنسن لأنه كان يقضى نهاره وأداة البناء فى يده والـكتاب فى جيبه يغتنم ساعات الراحة للقراءة فيه . وقام من بين البنائين أيضا أدوروس وتلفرد المهندسان ، وهيوميلر الجيولوجى ، وألن كنهام المؤلف النقاش . ومن بين النجارين انيغوجونس ، وهريسن صانع الخرونومتر ، ويوحنا هنتر الفزيولوجى ، ورمني واوبى المصوران ، والاستاذ لى البارع فى اللغات الشرقيـة ، ويوحنا جبسن النقاش . ومن بين الحاكة سمسن الرياضى ، وباكن النقاش ، وفستر المؤلف ، وولسن العارف بالطيور ، والدكتور لفنستن الرحالة الافريقى ، وتناهل الشاعر . ومن بين الأساكفة السر كلودسلى شوفل أمير البحر العظيم ، وسترجون الـكهربائى ، وصموئيل درو المؤلف ، وجيفرد محرر جريدة كورترلى رفيو ، وبلمفيد الشاعر ، ووليم كارى وموريسن المبشران ، وموريسن لم يكن إسكافا بل صانع قوالب للاساكفة

وقام من بين الأساكفة توما أدوردس وقد درس جميع العلوم الطبيعية وهو يشتغل بالسكافة حتى اكتشف نوعا من المتحجرات سمى باسمه . ونبغ من الخياطين يوحنا ستو المؤرخ ، وجكسن المصور ، واندرو جنسن رئيس الولايات المتحدة . وكان الـكردينال ولسى العظيم قصابا ، ويوحنا بنيان حدادا ، وهلـكرفت المؤلف سائساً ، وهرشل الفلـكي الشهير كان يلعب على المزمار — فهؤلاء وغيرهم كثيرون نهضوا من الفقر الى الغنى ، ومن الجهل الى العلم باستخدام ساعات الفراغ فيما ينفعهم . فما أجدر شباننا أن يقتدوا بأمثال أولئك العظماء فيشغلوا فراغ أوقاتهم باكتساب ما ينفعهم من صنعة أو أدب أو علم ، على أن يجعلوه لهواً فى ساعات الفراغ بدلا من لعب النرد أو البلياردو أو الداما أو الورق أو غيرها . وكم بيننا من أرباب الصنائع الدنيئة لا يخطر لأحدهم اغتنام فرصة الفراغ لدرس علم أو مهنة تغنيه عن صناعته . وقد يشق ذلك عليهم أول مرة . فاذا حملوا أنفسهم عليه مراراً أصبح ملـكة يلتذون بها فلا يرتاحون الا اليها ، وانما السر فى الخطوة الأولى ، فالحازم ان لم يكن فيه ميل للدرس عود نفسه عليه ، فما هو الا أن يحمل نفسه على ممارسته مراراً فيألفه ويصير ملـكة فيه

كم بين ظهرانينا من شبان وفيهم التاجر والـكاتب والصانع والفلاح والمستخدم فى الحـكومة وفى غيرها وكلهم يطلبون الرقى ويلتمسون زيادة الـكسب . ولـكن

الساعين فى ذلك من طريقه الحقيقي قليلون . وكم ترى من الناقمين على الدهر العاتبين على الزمان يندبون سوء الحظ ويزعمون أنهم مع ما خصتهم به الطبيعة من سمو المدارك والمهارة فى العمل، لاينالون حظاً من حقوقهم ، واذا جالستهم أو ماشيتهم لقيتهم يقضون ساعاتهم (وكلها ساعات فراغ) ينتقلون من مقهى الى آخر ومن بار الى غيره ، لا يعملون عملا كأنما يريدون أن تهبط عليهم الثروة هبوط الوحى ، أو تنزل عليهم الأشغال نزول المن والسلوى . واذا حادثتهم ملأوا أذنيك طعنا فى الناس وامتهاناً لذوى اليسار بأنهم أوتوا الثروة عفواً عن غير استحقاق على اننا لم نسمع بفقير اغتنى بغير كد وسهر ومثابرة بنسبة نوع عمله وما اختص به من المواهب . ومن منا لا يضمن لهم النجح اذا شغلوا أوقاتهم بالعمل والكد وهجروا أماكن اللهو

وطائفة المستخدمين فى المصالح الاميرية تطمح أنظارهم الى الارتقاء فى الوظائف. وقليل من يؤهل نفسه لذلك بدرس اللغات أو العلوم اللازمة لتقدمه . وقد يعتذرون عن تقاعدهم بضيق الوقت ، يعنون بضيقه أنهم لا يملكون من فراغه الا ساعات قليلة فى اليوم لا بد من صرفها في الراحة . وقد قدمنا ان الراحة ليست بالكف عن العمل بل بتنويعه ، ومع ذلك فالدقائق القليلة مع التكرار تعمل عملا عظيما ، وانما يعوزنا المواظبة ، لان الساعات مؤلفة من الدقائق والأيام من الساعات . ان هذه الجبال الشامخة انما هي من بناء حيوانات صغيرة لا ترى إلا بالمكرسكوب ، وأهل المواظبة يستخدمون فضلات الوقت لعمل نافع غير مهنتهم فينفعون وينتفعون . وقد يفعلون ذلك فى أوقات لا تقدر لها قيمة ـ فالدكتور مازون كود ترجم لكريتوس فى أثناء تجواله بين مرضاه ، والدكتور داروين الف اكثر كتبه على هذه الطريقة . والدكتور برنى تعلم الفرنسية والايطالية فى أثناء انتقاله بين بيوت تلامذته ليعلمهم الموسيقى ، وكرك هوايت تعلم اليونانية فى الطريق بين مكتبه ومجلس القضاء، ودغسو أحد مبشرى فرنسا الف كتابا ضخما فى الفترات على المائدة بين لون من الطعام ولون آخر .ومدام دى جنلى ألفت بعض كتبها فى الدقائق القليلة التى كانت تقضيها فى انتظار الاميرة التى كانت تعلمها . واليهوبرث كان حداداً وتعلم فى ساعات الفراغ من عمله ٣٨ لغة منها ٢٠ لغة حديثة و١٨ قديمة

فالاعتذار بضيق الوقت لايعتد به ، لأن المواظبة تعوض عنه . وانما نحن فى حاجة الى الارادة والعزم اكثر من حاجتنا الى الذكاء والفهم . إياك والتأجيل فانه آفة

المشارقة . وكم من أذكياء نبهاء قضوا زهرة أعمارهم فى التسويف والاهمال وترك الأمور للمقادير والاكتفاء بالشكوى والعتاب . فالمستخدم فى قلم عربى مثلا اذا أراد الارتقاء الى أعلى منه وجب عليه أن يتعلم الانكليزية أو الفرنسية أو يتعلم الحساب أو الانشاء أو غيرهما من العلوم التى تفتقر اليها المصالح الكبرى . وكذلك العامل فى مخزن أو ادارة أو بنك أو زراعة أو صحافة أو محاماة ، فلينظر الى ما يعوزه للارتقاء ويدرسه فى ساعات الفراغ فيغنى نفسه عن مضار الملاهى وعواقبها ويحتفظ براتبه من الضياع فيها ويتعلم ما يفيده ويفيد وطنه

ويسرنا أن نرى بعض مستخدمى الحكومة سائرين على هذا النحو ، وبعضهم بعد ان قضوا عقداً من العمر فى خدمة الحكومة لما علموا بما يهدد المستخدمين من الرفت كل ساعة ، احتاطوا لمستقبلهم فتراهم يقضون ساعات الفراغ فىدرس علم أو فن يصح الاعتماد عليه فى الارتزاق كالمحاماة أو الطب أو الصيدلة ، أو صناعة من الصنائع الجميلة كالحفر والرسم والتصوير والموسيقى مما يركن اليه عند الحاجة . فاذا لم يطرأ عليهم رفت فانهم لا يخسرون شيئاً ، بل يقتصدون ما كان لا بد لهم من انفاقه لو قضوا تلك الساعات فى أماكن اللهو ، فضلا عما يؤانسونه فى مطالعة تلك العلوم أو ممارسة تلك الصنائع من اللذة التى لا تقاس بما يتوقعه اللاعب بالنرد أو الشطرنج أو غيرهما

على ان بعضاً من هؤلاء وهم أصدقاؤنا ، قد خرجوا بذلك من القوة الى الفعل . ومنهم من لم ينتظر رفت الحكومة ، فاستقال من منصبه وعمل بالعلم أو الصناعة التى تعلمها وعول عليها فاكتسب اضعاف راتبه الاصلى . فمارس أحدهم المحاماة وآخر فن الرسم أو التصوير الشمسى وآخر صناعة الحفر وآخر غير ذلك . وقد اشتهر كل منهم بصناعته وهم الآن يمارسون تلك الاعمال وقد مهروا بها واستغنوا عن الخدمة بما اكتسبوه فى ساعات الفراغ

الشابات والفراغ

هذا مايقال عن الشبان ، أما الشابات فالفراغ يضر بهن اكثر مما يضر بالشبان ، ولا سيما اللواتي قام فى اذهانهن انهن انما خلقن للتبرج والتزين وتبديل الازياء ، غير مباليات بما يجره ذلك عليهن وعلى ذوى قرباهن من الشر والفساد . ونخص منهم بنات الأغنياء اللواتى يربين فى رغد وعز ، فيستنكفن من أقل الاعمال ، فلا تمس

أيديهن أداة من أدوات البيت ، لأن ذلك فى زعمهن حطة بشأن السيدات . وقد خلقن للزينة لايهمهن أمر أزواجهن أو والديهن وما يقاسونه فى تحصيل الدرهم . وهن لا يعرفن من أمر النقود إلا ما يدفعنه الى الموديستا أو بائع الأقمشة . وقد لا يمسسن الدراهم بأيديهن وانما يقصصن ويخطن والحساب على رجالهن

وأغرب من ذلك أن بعض ذوى اليسار يبالغون فى ترفيه بنـاتهم وتأنيقهن حتى يقيموا لـكل واحدة منهن خادمة بل خادمات ـ هذه تحضر لها القهوة وتلك تقدم لها الطعام ، وهذه تشعل لها السيكارة وقس عليه . فمن كانت هذه حالها وليس لديها عمل تعمله تشغل به عقلها أو جسدها ، فما الذى ترجوه منها اذا شبت ونمت فيها المشاعر ونضجت العواطف؟ فاذا كانت الفتاة فى ابان شبابها ولا عمل لها تعمله أو تتلهى به ، أفلا يكون فى ذلك خطر على سيرتها مهما بالغ أهلها فى حجابها ؟

وما قولك بمن تقضى أعواما طوالا لا تشعر بمـا يدخل بيتها أو يخرج منه من حاجات الطعام واللباس،تاركة أمره للخدم ، فاذا جاء الخادم آخر الشهر بصحيفة النفقات وفيها انه أنفق فى أثناء ذلك الشهر خمسة قناطير من السمن مثلا فلا تدرك حضرتها ان ذلك القدر لا يمكن انفاقه على بيتها فى خمسة أشهر ولو اتخذوا السمن للاغتسال !

ومنهن من اذا رأت جارتها تخيط رداء حريريا على زى جديد تنقم على زوجها اذا لم يجئها بمثله ولو كان دخله فى الشهر كله لايساوى ثمن الرداء. واذا بحثت عن سبب ذلك الشر رأيته ناتجاً عن تقاعدها عن العمل لأنها لما لم يكن لديها ما يشغلها ساعات النهار انقطعت الى الاهتمام بأمر نفسها ، وصبغ وجهها ، وتحسين خلقتها بأنواع التبرج ، تقضى سحابة يومها فى التزين تنتقل من أمام المرآة الى الشرفة (البلـكون) ثم تعود الى غرفة اللباس (التوالت) فتبدل ثيابها وتعود الى الشرفة . واذا حضرت حفلة انصرف فكرها الى ما تراه هنالك من الأزياء الجديدة والتفنن بأنواع الخلاعة، وقد تكون تلك الزيارة سبباً لتنغيص عيشها وعيش زوجها ، ولا سيما اذا رأت بين تلك الأزياء زيا جديداً ليس لها مثله

فلو كانت ممن ربين على العمل وعرفن قيمة الدرهم وتعودن الاهتمام بأمور بيتهن وأولادهن ، فان همهن ينصرف الى الفضيلة القائمة بتدبير المنزل والاقتصاد فى نفقاته ، وبدلا من الافتخار بغلاء ثوبها تفتخر بتدبير بيتهـا وتربية أولادها على الحشمة والنظافة ومطالعة الـكتب المفيدة ، فتكون سعادة لزوجها وزينة لمنزلها . وربما زينت

ذلك المنزل بشغل يديها وليس فى ذلك عار ، وانما العار أن تنفق مال زوجها على البذخ فى ملابسها وتترك بيتها وقد غشيته القذارة فتكون كالقبور المكلسة ، بيضاء من الظاهر ، وفى داخلها جيف منتنة

ولو اقتصر شرها على ذلك لكان هيناً ، ولكنها تصبح قدوة سيئة لأولادها فيشبون على ماتعودوه من الكسل والبطالة والاهمال ، وهو مالا تنزعه تربية المدارس ولا يقلعه تعليم المعلمين ، وا كبر شر يرثونه منها سوء استعمال ساعات الفراغ

[عن الهلال سنة ١٦ صفحة ٢٨٣]

سوء التفاهم

أصل التخاصم

اذا اختلف اثنان فى أمر ، فاما أن يكون منشأ ذلك اختلافهما فى الأحكام العقلية وأكثر ما يكون ذلك فى المباحث الفلسفية ، كأن يقول أحدهما النفس مادة ويقول الآخر النفس جوهر . والغالب أن يكون الصواب فى جانب أسماهما عقلا . واما أن يكون منشؤه التفاوت فى المعرفة والاختبار ، وأكثر ما يكون هذا فى البحوث الطبيعية ، كأن يقول أحدهما الحرارة تمدد الأجسام ، ويقول الآخر انها تقلصها . والصواب غالباً فى جانب أكثرهما اختبارا . وقد يتفق أن يكون الاثنان مصيبين كما اتفق لاثنين اختلفا فى لون السرطان ، فقال أحدهما انه اسود ، وقال الآخر انه احمر ، وأصر كل منهما على زعمه وكان كلاهما مصيباً ، لأن الأول شاهد السرطان حياً ولونه اسود والآخر شاهده مشويا وقد احمر لونه

وليس فيما تقدم شيء من الخصام ، وانما هو مجرد اختلاف فى الرأى لا يمس كرامة الأشخاص . وقد يطول الجدال فيه ولا يؤثر شيئاً في صداقة المتناظرين ، لأن الحكم بينهما انما هو العقل الذى اذا تجرد عن العواطف والأغراض كان معصوما عن الخطأ

وأما الخصام فهو الاختلاف الناجم عن حكم العواطف الذى قلما يكون فى جانب الاصابة . والعواطف من أول مظاهر الصبوة والشباب ، وفى حكمها من المسارعة والطيش ما فى حكم الشباب ـ فيا لتعس الذين يعملون بأحكامها ! وأبلغ من هذا ان حكمها نافذ فى الأكثر بين الأصدقاء وذوى القربى

قلنا ان حكم العواطف قلما يكون فى جانب الاصابة . والسبب فيه ان الانسان

قريب الخضوع لها سريع فى تنفيذ أحكامها، فلا تمهله ريثما يستوفى النظر ، وهو لا يستطيع كبحها اذا جمحت ، فيحكم على صديقه بما قد يكون بريئاً منه ، فيقول مثلا: أنا أحب فلاناً وأحب له الخير فكيف يبغضني ويكره مصلحتى ؟ ويقول صديقه فيه مثل قوله . واذا تحريت الحقيقة وبحثت عن سبب الخصام رأيت كليهما مصيباً لأن كلا منهما يحب الآخر ويحق له على نسبة ما أدركه أن يعاتب صديقه . واذا أنعمت النظر فى سبب ذلك النفور رأيته لا يخرج عن حد سوء الظن والمسارعة فى الحكم قبل التروى

ولهذا كان التروى والتبصر أقرب الى سجايا ذوى المعرفة والفهم الذين هم أبعد الناس عن الخصام . أما المتسرعون فى الحكم فهؤلاء لا تخمد نارهم ولا يبقى لهم صديق . ومثلهم مثل فلكى يرصد الكواكب بالتلسكوب فشاهد كوكباً لم يشاهده قبلا ، فبادر الى مخابرة أصحاب المراصد الأخرى ليشاركوه في مشاهدته وتحقيق اكتشافه ولكنهم لم يروا شيئا مما قاله . أما هو فما زال مصراً على قوله ، حتى تبين له بالبحث أن ما شاهده تلك الليلة لم يكن من الكواكب فى شىء وإنما هو دويبة صغيرة تضىء فى الليل يقال لها الحباحب هبطت على زجاجة التلسكوب . وأسباب الخصام بين الأصدقاء لا تخرج عن هذا الحد ، فان أحدهم يرى فى صديقه حركة يلوح له ان المقصود بها اساءته فى شىء ، وقد يكون هذا الظن فى غير محله ، ولكنه يسارع الى الانتقام منه فيأتى حركات مغايرة لما اعتاده صديقه منه ، فيرى صديقه أنه متغير عليه فيهيج غضبه لعلمه ببراءته . وتأخذ أسباب الخصام تتعاظم حتى تفضى الى ما لا تحمد عقباه وما لا يعود يسهل حله

على انهما لو أحسنا الظن وتعاتبا لظهرت الحقيقة من أول الأمر وامتنع الخصام . وأمثال هذا الخصام كثيرة فى الناس ، وأسبابها غالباً سوء التفاهم كما قدمنا

وفى اعتقادنا ان الانسان مفطور على ألا ينوى الخصام عمداً ، ولكنه لضعف طبيعته يسارع فى الحكم فتهيج فيه حاسة الانتقام ، فاذا لم يتدارك الأمر بالتروى انقاد الى ما تقدم من تفاقم الخلاف واتساع الخرق وخاصة اذا أصاخ بسمعه الى الذين يرون فى ذلك الخصام منفعة لهم . وهذا أيضا من قبيل ضعف العزيمة وسخافة الرأى . والله سبحانه وتعالى أعلم

[عن الهلال سنة ١ صفحة ٨٤]

شقاء الاغنياء

لا نظن أحداً من الفقراء يعتقد الشقاء فى غير الفقر ، كما يعتقد المرضى ان الشقاء فى المرض . ومن كانت امرأته سيئة الخلق رأى الشقاء كله فى الزواج . وقس عليه سائر أحوال الناس ، فانهم ينظرون الى متاعبهم بالمنظار المكبر ، وينظرون الى متاعب سواهم من وراء حجاب . ولا غرابة فى ذلك ، فان العين ترى الأشباح القريبة اكبر منها لو كانت بعيدة . ولو سألت الفقير عن السعادة لقال انها فى الغنى ، وكذا المريض فانه يراها فى الصحة ، والمتزوج بسليطة يرى السعادة فى العزوبة وقس عليه

وقد يكون اكثر هؤلاء مصيبين الا القائل : « ان السعادة فى الغنى » فانه مخطىء خطأ فادحاً . ولا نخال الفقير يقتنع بقولنا هذا ، بل ربما عده من قبيل المغالاة . أما اذا دخل قصور الأغنياء وتفحص طرق معيشتهم وراقب مجارى أحوالهم واستطلع خفايا ضمائرهم فانه يرجع حامداً شاكراً لما أولاه الله من نعمة الفقر وراحة الضمير وسلامة الجسم والعقل . فالسعادة فى حقيقة معناها ليست فى الغنى ولا فى الفقر ولا هى فى شىء من مشاغل هذا العالم ، لكنها في نفس السعيد من الناس غنياً كان أو فقيراً . فالسعيد يولد سعيداً بما فطر عليه من الأخلاق الرضية وطول الأناة وسعة الصدر والقناعة وغير ذلك من السجايا التى لا تشرى بالمال ولا تكتسب بالصناعة . وقد يكون صاحب هذه الأخلاق أسعد حالا فى الفقر منه فى الغنى . أما من كانت أخلاقه على عكس ذلك فهو تاعس فقيراً كان أو غنيا

وليس من غرضنا البحث فى السعادة وأسبابها ، ولكننا أردنا الاشارة الى حقيقة قل من يتنبه اليها مّن أهل الفاقة . على انهم لو تدبروها لكانت اكبر تعزية لهم عما هم فيه من الفقر الذى يسمونه شقاء . وذلك ان بين اكبر اغنياء الأرض رجالا يموتون

جوعا فى ريعان الشباب ، والطعام بين أيديهم والأموال ملء خزائنهم . فان كرنيليوس فندربلت الغنى الاميركانى قد تولى ادارة ثلاثين شركة وتمتع بكل ماتتوق نفوس الفقراء والاغنياء اليه ، فشاد القصور والحدائق فى المدن والقرى ، وأنشأ لنفسه القطر الحديدية الخصوصية يسافر بها ، وبنى السفن والذهبيات يركبها فى الأنهار والبحار لترويح النفس ، وبالغ فى اقتناء الخدم والحشم والأعوان حتى صاروا يعدون بالمئات والألوف ، فلم يغنه ذلك كله شيئاً ، فأصيب فى ابان شبابه بالدسببسيا (عسر الهضم) وهو المرض الذى مات أبوه به ، فلم يبلغ كرنيليوس الخامسة والثلاثين من عمره حتى نحل جسمه وانتهكت قواه من الجوع لان معدته لا تساعده على هضم أخف الاطعمة ، فتزوجت ابنته وهو على هذه الحال ، فحملوه الى قاعة الاستقبال على كرسى المرضى . ثم أصيب بوفاة بكره الحافظ لألقاب عائلته . ثم تزوج ابنه الآخر ضد ارادته وخرج من بيت والده

ناهيك بما استولى على هذا الغني التعس من الأوهام حين علم بقرب أجله فانه أصبح خائفاً من أن تشيع حاله هذه بين الناس فيطمع فيه أهل الفوضى وغيرهم فأحاط منزله بالشرطة والخفراء ليلا ونهاراً ، حتى مات أسيفاً كئيباً وقلبه عالق باموال وعقارات وألقاب لا يدرى مصيرها

ومثل ذلك أيضاً الكونت ارنود ، فقد مات فى باريس قبل أن يدرك الاربعين من عمره بداء سماه الأطباء الدسببسيا الحادة ، وهى من عواقب الترف والتأنق بالمآكل والمشارب ، فمات جوعا لان معدته لا تستطيع الهضم

ومن هذا القبيل اللورد روزبرى وزير خارجية انكلترا ، فقد أعطاه الله مالا وعقاراً وحسباً ونسباً وتوافرت لديه كل الوسائل المؤدية لما يسميه الفقراء سعادة ، فساح فى البلاد معززاً مكرما ، وارتقى فى مناصب الحكومة حتى تولى وزارة انكلترا ونال اكبر أوسمة الشرف ، وذاع صيته في الآفاق ، ومع كل ذلك فقد يخيل لنا انه يعطى كل ماله لمن يريحه ليلة من الأرق الذى يتولاه فيحرمه لذيذ النوم . وكثيراً ما يخرج من غرفته بعد منتصف الليل والناس نيام فيمشى فى الحديقة أو يصعد الى السطوح ، فاذا وصل حجرة الخدم ورأى أصغر خدمه نائماً هادئاً ، تململ فى نفسه وتمنى لو تباع له هذه النعمة بمئات الألوف من الجنيهات

* * *

هذه أمثلة أوردناها عن أناس من أشهر أغنياء الارض . وكم بيننا من غني لم يكن تعساً لولا غناه ! ومن أشقى ما فى الغنى ان الغني لا يلذ له شيء غير كسب المال ، فلو جمع ثروة قارون فهو لايزداد إلا رغبة فى الجمع . ولا يخفى ما في ذلك من انهاك القوى وأسباب المرض . وأشقى هؤلاء جميعاً غني يجمع المال ، فلا هو ينفقه ولا يورثه لحبيب يتمتع به ، فيموت وعيناه على ماله الذى قضى عمره فى جمعه وكان حريصاً عليه اكثر من حرصه على صحته ، وهو الذى أراده سليمان الحكيم بقوله: « انسان رزقه الله غنى وكنوزاً أو مجداً فلم يكن لنفسه عوز من كل ما يشتهى، لكن الله لم يبحه أن يأكل من ذلك ، وانما يأكله غريب ، هذا باطل وداء خبيث »

[عن الهلال سنة ٦ صفحة ٧٤٠]

القول والعمل

« إذا أراد الله بقوم سوءاً أعطاهم
الجدل ومنعهم العمل »
عمر

كل من يأتى عملا حسناً يميل إلى التنويه به التماسا لحسن الأحدوثة ، لأن الانسان مفطور على حب الشهرة ، فيلذ له أن يسمع ثناء الناس على أعماله والاعجاب باقتداره ، وقد ينوه هو بعمله ليستدر الثناء من سامعيه ، فاذا رأى الناس يثنون على أعماله من عند أنفسهم أمسك هو عن ذكرها . والغالب فى الناس ألا يكلفوا رجل العمل أن يتكلم عن نفسه ، بل هم يذيعون فضله ، ويزدادون رغبة فى إذاعته كلما رأوه ساكتاً عنه فاذا أكثر من تحدثه بأعماله مالوا إلى تنقيصها وإن كانت جليلة

والغالب فى رجال الاعمال أن ينقطعوا للعمل وأعمالهم تترجم عنهم . فمن لم ينل إعجاب الآخرين عمد إلى مدح نفسه وتعظيم عمله ، فاذا لم يأنس إصغاء أو تأميناً استجهل الناس ونسبهم إلى غمط النعمة . وإذا سمعهم يثنون على فاضل من أبناء مهنته بما يشف عن تفضيله اصبح همه تنقص ذلك الزميـل فيشتغل بالطعن وذاك مشتغل بالعمل . وإذا تدبرت احوال الناس ودرست اخلاقهم رأيت أكثرهم انتقاداً للاعمال اعجزهم عن الاتيان بمثلها . فالناس رجلان : قوال وفعال

التكلم فى العمل

وقد لا يجد العاجز لنفسه عملا يطريه ، ومع ذلك فهو يكلف الناس امتداحه فينتحل عملا لم يعمله او يرجع الى الافتخار بالآباء واعمالهم . ولا يخلو أن يكون

لابيه أو جده أو احد من اهله عمل يستحق الذكر فيأخذ في اطرائه ويفتخر به . ولو عقل لاقتدى بذلك السلف وعمل مثل عمله . وإذا لم يجد بين اسلافه من يفاخر بعمله فتش عى شيء يميزه عن سواه وإن كان لا يهم الناس كجمال سحنته أو رشاقة قده أو رخامة صوته أو فصاحة لسانه . وقد يتفاخر بما يأكله أو يلبسه وهو منتهى السخف والصغار . وكبير النفس يلتمس الشهرة من طريقها الحقيق ـ يلتمسها بالعمل والجد ، واذا امتدحوه فوق استحقاقه خجل ، وازداد تواضعاً وواصل السعى حتى يدرك مبلغ ظنهم فيه وهو فى كل حال يحرك يده ويعمل فكرته ويشغل وقته بالعمل

وأسعد الامم حالا أمة كثر فعالوها وقل قوالوها . واذا نظرت فى طبائع الامم اليوم رأيتها تتفاوت قولا وفعلا ، ورأيت اكثرها تصدراً فى مصاف الدول العظمى اكثرها اعتماداً على الاعمال دون الاقوال

وهذه دولة الانكليز ، والانكليزى لا يتكلم إلا قليـلا ، ولـكنه يعمل كثيراً ، تجالسه فتراه هامداً بارداً إذا تكلم خفض صوته لا يرفعه ، ولو غضب ، ولا يهمه من اقوالك إلا ما يترتب عليه العمل . فاذا علم انه لايخرج عن الكلام لا يهتز له ، ولوكان فيه سباب أو تقريع . ويمثل اقتصار الانكليز على العمل دون القول حادثة ذكروا انها جرت لجندى من جيش الاحتلال ركب حماراً الى العباسية وصاحب الحمار يعدو فى اثره وهو يشتم حماره وراكبه اعتماداً منه على جهل الراكب اللغة العربية . فسمع شتمه رجل يعرف اللسانين فاستوقف الراكب واخبره بالأمر . فقال : « وهل شتمه هذا يحول دون وصولى الى العباسية ؟ »

قال : « لا »

قال : « فما الذى يهمنى من كلامه اذاً ؟ »

والانكليزى لا يفوق الفرنسى ذكاء وحدة وربما كان دونه فيهما ، ولـكنه يسبقه بالعمل فيعمل ويواصل العمل كما يقولون فى اصطلاحهم « بطيئاً ولـكن ثابتاً » . والفرنسى قد تسوقه حدة مزاجه الى مزاعم ووعود لا يقوى على القيام بهـا كلها فيظهر قوله اكثر من فعله . والشرقيون أقرب مزاجاً الى الفرنسيين ، وهم يقلدونهم بأخلاقهم وآدابهم ، فغلب القول عندنا على العمل ، فترانا اذا خطر لاحدنا مشروع سياسى أو علمى أو فنى ضاق صدره عن كتمانه فيعمد الى التحدث به وربمـا أعلنه قبل أن يتحقق اقتداره على القيام به فيذهب كلامه ضياعا

وقد تكون علة الفشل بعد المشروع عن الامكان ، أو ان يكون من قبيل النظريات التي لا تنطبق على العمل كرأى بعضهم ـ ونحن فى هذه الأزمة الماليـة وغلاء المساكن ـ أن يعتصب السكان على أصحاب الاملاك حتى يخفضوا الاجور . وهو رأى جميل ، لـكنك لو أردت تطبيقه على العمل لما وجدت الى ذلك سبيلا ، لان الاعتصاب لا فائدة منـه إن لم يكن مصحوباً بقوة يخافها المعتصب عليه ، كأن يهددوه بالقتل مثلا ، وهذا لا يفيد فى حكومة منظمة ، أو أن يخلوا المساكن والمخازن لتبقى خالية لايقتضى عليها أجرة فيتدارك هذه الخسارة باسترضاء المستأجرين بتخفيض الأجرة . وكيف يمكن اجماع سكان بلد أو حى من أحيائه على إخلاء مساكنهم وأين يسكنون . وقد نقع فى هذا الخطأ لأننـا نقلد الأمم المتمدنة بأعمال لا تلائم أحوالنا فيجني علينا اجتهادنا . وفى الناس طائفة من الأذكياء أرباب الهمم ينقصهم تطبيق النظر على العمل إذا خطر لهم مشروع اكتفوا بتطبيقه على احكام العقل ، فيشيعونه فى الملأ ويسعون فيه ، فاذا أرادوا اخراجه الى حيز العمل ظهر لهم مستحيلا أو قريباً من المستحيل . وذلك كثير في النـاس وهو علة الفشل غالباً فى مشروعات أهل الذكاء والنشاط لأنهم يشيعونها قبل تطبيقها على العمل . وانمـا يبعثهم على ذلك كونها حسنة بذاتها أو بالنظر الى أحوال ليس لنا مثلها

وربما اكتفى بعضهم من لذة العمل بطنطنة الجرائد وحديث المادحين . وقد يكون العمل بنفسه قابلا للظهور لو اقتصر أصحابه على السعى فيه سراً وصبروا على الافتخار به حتى يتم . ولـكنهم يضيعون حماسهم واندفاعهم بالقيل والقال . وكثيراً ما يثير الحسد ضغائن بعض الناس فيضعفون عزائمهم فيقضون أوقاتهم بالجدل بلا طائل ، كما اتفق لنا فى كثير من مشروعاتنا مما لا يحتاج الى تفصيل . ولو تكتمنا ودرسنا كل مشروع درساً كافياً ووضعنا أساسه على صخر ، ثم أخرجناه كاملا لما خفنا فشلا . ومن الأحاديث المأثورة : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالـكتمان فان كل ذى نعمة محسود »

شهادة التاريخ

وفى التـاريخ شواهد كثيرة تؤيد ما قلناه ، فلا تـكاد تجد بين عظمائه عظيما فاز بمشروع سياسى أو علمى أو اجتماعى إلا كان الـكتمان معتمده . ولا تجد قوالا استطاع عملا عظيما ولا سيما فى السياسة . ومن اهم شروط الدهاء فيها الـكتمان . فرجال العمل

منهم يتسترون في مساعيهم فيؤلفون الاحزاب ويدخرون الأموال ويبثون الدعاية سرا حتى اذا تحققوا نجاح أمرهم ظهروا وفازوا - كذلك فعل مؤسسو الدول وكبار القواد . وقد يتقارع العظمان ويتساجلان فيغلب الكتوم

واعتبر ذلك بأعمال أبي مسلم الخراساني ناقل الملك من الامويين الى العباسيين ، فانه بث الدعوة العباسية تحت طي الخفاء في خراسان وفارس والأمويون غافلون، حتى انتبه لها عاملهم على خراسان نصر بن سيار فكتب اليهم شعراً قال فيه :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك ان يكون لها ضرام
فان لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام
فان النار بالعودين تذكو وان الحرب أولها الكلام

ولم يصدق الأمويون قوله حتى كان ما كان من ذهاب دولتهم . وأبو مسلم ينسب فوزه الى التكتم . يدلك على ذلك قوله من قصيدة :

قد نلت بالحزم والكتمان ما عجزت عنه الملوك بنو مروان اذ حشدوا

ولم يفز المنصور عليه ويتمكن من قتله الا بالتكتم كما هو مشهور . وتوارث العباسيون ذلك حتى صارت الأسرار من قواعد سياستهم ، وشاعت الجاسوسية حتى في صدر دولتهم ولم يفوزوا الا بذلك. ولو تكتم جعفر البرمكي لم يبلغ الرشيد خبره، ولو لم يتكتم الرشيد لعلم جعفر عزمه على قتله فتدارك أمره . واعتبر ذلك في سائر دهاة العرب وغيرهم . والعلويون انما غلبوا في الدولتين الأموية والعباسية لأنهم لم يتبعوا سياسة التكتم ، بل اقتدوا بجدهم علي بن أبي طالب وكان يرى التجسس صغاراً فيصرح بما يخطر له فيستعد أعداؤه لمناوأته . وقس على ذلك ساسة العالم قديماً وحديثاً . ومن أهم أسباب غلبة الالمان على الفرنسيين سنة ١٨٧٠ دهاء بسمارك وتجسسه وتكتمه والفرنسيون يجاهرون وينادون استخفافاً بعدوهم ، وهو يسعى سراً في استطلاع أسرارهم وسائر أحوالهم

الكتاب والمخترعون

دع السياسة وانظر في سائر أعمال الناس ، فانها تفتقر الى العمل اكثر مما تفتقر الى القول. فمن عزم على تأليف كتاب مثلا اذا كان من اهل العمل اشتغل بدرسه وتأليفه، ولا ينشر خبره حتى يتمه إلا ما تقتضيه الحال من مشورة أو استعانة . فاذا رأى بعد

الشروع به ان يعدل عنه لا تخجله الخيبة . على ان مجرد التحدث بالكتاب قبل اتمامه قد يدعو الى وقفه . ولكن جرت عادة بعض الكتاب عندنا ان أحدهم اذا خطر له أن ينشىء جريدة أعلن عزمه وعين الاثمان وعدد الشروط وأخذ فى إطراء عمله ، ويندر ان يكون مشروعه مبنياً على أساس متين لأن الغالب فى القوال ان لا يكون فعالا . فاذا لم يصادف نجاحاً فى صحيفته ألقى التبعة على القراء وطعن فى جهلهم وعقوقهم . وزعم انهم لا يقدرون الاعمال حق قدرها وهم براء من تلك التبعة – وان كنا لا ننكر جهل السواد الأعظم من العامة مثل شأنهم فى كل أمة . ولكن الكاتب الذى وقف نفسه على افادة الناس يجب عليه أولا ان يعرف كيف يعاملهم فيكتب لهم ما يفيدهم ويشوقهم ويسهل فهمه عليهم ، فاذا فعل ذلك استغنى عن اتهام الأمة بالعقوق والجهل ، ولم يضطر الى الترفع عن خطابهم وحبس قلمه غضباً وانتقاماً

كثيراً ما نقرأ ان بعض كتابنا الافاضل وعلمائنا الاماثل امسكوا عن التأليف أو التحرير لأنهم يرون الأمة جاهلة لا تدرك قدر العلم والعلماء ، وان أحدهم اذا ألف كتابا أو نشر صحيفة لا يصادف اقبالا ولا يلقى كسبا . ولا يخفى ان من واجبات الكاتب الحقيقى أن يعود الناس المطالعة بطلاوة اساوبه وحسن اختياره ، فيتطامن قليلا ليأخذ بيد العامى وينهضه اليه لا أن يجلس على كرسيه متشامخاً ويباعد ما بينه وبينه ثم يعنفه لأنه لم يفهمه . وشكوى أولئك الكتاب لا تقتصر على الطعن فى القراء ، ولكنها تتناول كل كاتب راجت صحيفته أو كتبه لأنهم يزعمون أن العامة لا يروج لديهم غير السفاسف والبحوث التافهة . وهذا وهم ، إذ لا يعقل أن يكون سبب هذه النهضة اشتغال الكتاب بالسفاسف والقول الهراء . وهذه صحفنا ترتقى وتتقدم نحو الكمال كل عام عما قبله ، ولا ينكر فضلها فى خدمة الوطن وترقية نفوس الأمة الا المكابر . أما تقاعد أولئك الكاتبين أو ترفعهم فسببه لا نقول قلة البضاعة اذ قد يكون بينهم علماء فطاحل ، وانما هو أنهم لم يتعودوا العمل ، فلما أرادوا خدمة الأمة لم يؤسسوا عملهم على قواعد عملية ، فاكتفوا بما يبدو من حسن مشروعهم أول وهلة ، لما يسمعونه من اعجاب مريديهم ومتملقيهم ، وتوهموا ان صدور أول عدد من صحيفتهم كاف لاقبال الناس على الاشتراك من كل صوب فتنهال عليهم النقود انهيال الغيث . فلما صدرت نفثات أقلامهم لم يجدوا اقبالا سريعاً فتوقفوا عن العمل والقوا التبعة على

القراء الساكين وطعنوا فى الكتاب الآخرين ، واحتقروا ما يكتبونه وما ينشرونه وقالوا فيه ما قالوه . ولا يشمل هذا الحكم كل من رجع عن مشروع باشره اذ قد يكون لرجوع بعضهم أسباب قهرية لا سبيل الى دفعها

واعتبر ذلك فى أرباب المهن والمخترعين . وهؤلاء يشتغلون فى معاملهم صامتين حتى اذا وفق أحدهم الى اختراع أو اكتشاف أظهره واكتفى باظهاره اعلاناً واطراء . فاذا كان عمله عظيماً قرظه الناس وخلده التاريخ واذا كان حقيراً لا يزيده اطراء صاحبه الا حقارة . وأما الذين كلما خطر لهم خاطر من اختراع أو رأى جديد تصدوا لنشره وبيان ما يرجى من نفعه فهؤلاء يغلب أن يؤوبوا بالفشل للاسباب التى قدمناها . وكتمان الاسرار يدل على جواهر الرجال . وكما أنه لا خير فى آنية لا تمسك ما فيها فكذلك لا خير فى انسان لا يمسك سره

* * *

فاذا تقرر أن الانسان يكون اما قوالا أو فعالا وجب علينا أن نربى أولادنا على « العمل » بالثبات والتؤدة حتى لا يطيشوا لأول خاطر يخطر لهم فتحرج صدورهم عن كتمانه قبل أن ينضج وتتهيأ له الأسباب فيقضون أعمارهم بالتحدث عما ينوون عمله من العظائم وما فى امكانهم اتيانه من الاختراعات أو المشروعات لو توفرت لهم الأسباب التى توفرت لسواهم وأن هؤلاء لم ينجحوا الا لتعويلهم على النفاق أو لتوفيقهم الى مصادفة عمياء ، ولو اشتغل أولئك بالصبر والثبات لنالوا ثمار أتعابهم على قدر قواهم ومواهبهم وكفوا الناس عواقب بطالتهم

[عن الهلال سنة ١٦ صحيفة ٣٥١]

حقيقة الانسان
وراء ثلاثة أستار

من الأمثال الشائعة «قلوب الرجال صناديق مقفلة مفاتيحها التجارب» ويريدون بقلب الرجل ضميره أو حقيقته وهى أصله المشتمل عليه . ومعرفة حقيقة الرجل من الأمور الهامة لاضطرار الناس الى المعاملة والمعاشرة . فاذا عرفت حقيقة عميلك أو عشيرك أمنت الخطر منه . واهتم كثيرون من أهل الملاحظة والفهم بوضع القوانين لدلالة ظواهر الناس على بواطنهم ، فلم يبلغوا ما أرادوه إلا قليلا مما ثبت فى علم الفراسة كدلالة العيون أو التقاطيع على الاخلاق والمواهب — حتى هذه فانها غير مطردة فى دلالاتها نظراً لكثرة ما يعتورها من الطوارىء التى تبعد بين الظواهر والبواطن كما بيناه فى كتابنا « علم الفراسة الحديث »

فحقيقة الانسان لا تزال من الغوامض التى لا يستطاع كشفها الا بالمعاشرة الطويلة فتظهر كما هي تقريباً ، فيعرف الصادق من الكاذب والامين من الخائن ، فيختار الانسان اصدقاءه وعملاءه ولكن بعد فوات الفرصة وضياع العمر . وأكثر الناس يؤخذون بالظواهر وهى تخالف البواطن غالباً ، وخصوصاً فى الأمم التى الفت المجاملة وتعودت التملق والاحتيال . وهذا هو السبب فى تكاثر الشرور . واذا أمعنت النظر فى أحوال الناس رأيت للانسان ثلاثة مظاهر متوارية وراء ثلاثة أستار يتدرج الباحث الى استطلاع حقيقته بازاحة ستر بعد ستر فيبدو له مظهر بعد مظهر ، والثالث أقربها الى الحقيقة .

وهى تبدأ بما يبدو من ظواهر الانسان عند أول مقابلة وهو المظهر الأول ، تتلوه

المحادثة والمعاشرة السطحية وهو المظهر الثانى . وأخيراً ما يظهر من الانسان بعد المعاشرة الطويلة والمعاملة بالاخذ والعطاء وهو حقيقتـه أو أقرب الى الحقيقة على الأقل

المظهر الاول

اذا لقيت انسانا لا تعرفه فأول ما يبدو لك منه ظواهره الخارجية من القامة والملامح واللون واللباس ، فكأنك عند اول رؤيته قد أزحت الستار الأول عن حقيقته وقد تدل ظواهره على بواطنه فتصل الى الحقيقة من المظهر الأول وهذا نادر ، ومع ذلك فان كثيرين من الناس يعولون فى احكامهم على ما يبدو لهم من النظرة الأولى . فكأنهم حكموا على مجهول مختبيء وراء سترين . وقد تصح فراستهم فيفلحون أو تخطيء فينالون ثمرة تعجلهم ولات ساعة مندم

كم من شاب يقع نظره على فتاة فيفتتن بجمالها ويؤخذ بظواهرها فيعجبه قوامها واحتشامها ورخامة صوتها وغير ذلك من المظاهر الجميلة فتقع من نفسه موقعاً حسناً وهو لم يزح عن حقيقتها الا الستار الأول ولم يصبر على ازاحة السترين الباقيين . ولعله لو فعل فخاطبها وعاملها وعاشرها لتغير رأيه فيها . وقد يقع للفتاة مثل ذلك فى الرجل فيتصدى لخطبتها شاب جميل الصورة رشيق القامة فى وجهه مهابة وحول فمه ابتسامة وفى عينيه ذكاء وقد أتقن هندامه بحيث لايختلف فى شيء عن أفاضل الرجال . واذا خوطب تلطف وتواضع وتصنع . وقد يظهر بعد كشف السترين الآخرين على غير هذه الحال

دع الزواج بالظواهر فان للحب عملا كبيراً فيه وعين الحب عمياء ترى فى محبوبها كل الكمالات ، وانظر الى سائر المعاملات ، فانك تجد للمظهر الأول تأثيراً فى اكثرها ، وخصوصا بين العامة مما لا يزال باقياً من عوامل التمدن القديم يوم كان الناس يؤخذون بالظواهر . ولا يزال العامة الى الآن يؤخذون بها ، فينظرون فى اختيار رئيسهم أو معلمهم أو حاكمهم الى كبر هامته وبهاء طلعته ورخامة صوته أو جهوريته . وكم سمعنا من العامة من يمدح قسيسه أو مطرانه بقوله انه جميـل الخلقة له يد تليق بالتقبيل لبضاضتها وبياضها ، وإن صوته رخيم يطرب السامعين . وقل منهم من يثني على ذلك الرئيس لسعة علمه أو سداد رأيه . وكم كنت تجد وما تزال تجد الى الآن بين أولئك

الرؤساء من لم يكن له ما يبعث على تقديمه غير شكله الظاهر ، واذا خبرته وجدته فارغا - حتى العقلاء الذين ينقدون الرجال فان المظاهر الخارجية تؤثر فيهم وتعدل فى حكمهم على أصحاب تلك المظاهر . فما قولك بالعامة البسطاء ؟ ولا يخفى عليك ما قد ينجم عن ذلك من الخطر

وللانسان مظاهر معنوية غير الهندام والجمال نعني ما يتحلى به بعض الأغنياء أو الوجهاء من الشهرة . فاذا لقيت أحد المشاهير سبق الى ذهنك احترامه لأنك كنت تحترمه بالسمع قبل أن تراه . فلا تزال تعتقد فضله حتى ينحسر عنه الستاران الثانى والثالث ، فتظهر لك حقيقته وقد تكون أقل كثيراً مما تظن . ويظهر تأثير الشهرة من هذا القبيل اذا عرضت عليك قصيدة قيل لك انها من نظم المتنبي أو أبي تمام مثلا فانك تجد فيها حسنات لم تكن لتراها لوعرفت انها من نظم بعض عامة الناس ، وبعكس ذلك لو قرأت قصيدة لأبلغ الشعراء وأنت تظنها لأحد العامة ، فانك تجد فيها من أماكن الضعف اكثر مما لو عرفت ناظمها . وقس على ذلك سائر ما يتمشى عليه من الشهرة في الانشاء أو العلم أو الشجاعة أو الدهاء فان المشهورين بشيء من ذلك تقوم شهرتهم أول وهلة مقام المظهر الأول من اللباس أو الجمال أو نحوهما . وكما تنكشف حقيقة أولئك بعد كشف الستر الثانى أو الثالث تنكشف حقيقة هؤلاء متى واليت الوقوف على ما ينظمونه أو يكتبونه

المظهر الثانى

قال الامام علي : « تكلموا تعرفوا إن المرء مخبوء تحت لسانه » فاذا لقيت انساناً حسن البزة جميل الصورة لطيف الهندام رشيق الحركة يقع من نفسك موقعاً جميلا ، ولا يزال كذلك حتى يرفع عنه الستار الثانى بالكلام ونعني به الخوض فى الموضوعات العمومية أو البحوث الاجتماعية أو السياسية أو غيرها مما يفتقر إلى ذكاء أو معرفة ، فعند ذلك إما أن يرتفع الرجل فى عينيك أو ينحط أو يبقى فى مكانه . غير ان المنزلة التى ينالها بعد ازاحة هذا الستار لا ينالها سواه اذا كان رث الهيئة قبيح الخلقة ولو ساواه بالذكاء والفصاحة والمعرفة . لأن الجمال مزية تضاف الى حسنات الرجل ويزيدها كما تزيد شهرة الكاتب فى استحسان كتابته

فالمظهر الثانى من الرجل أو المرأة يكون بعد المحادثة والمعاشرة وهما تظهران

كثيراً من سرائر الانسان ولكنهما لا تكشفان عن حقيقته . وأكثر الناس يكتفون فى احكامهم على الرجل أو المرأة بما يبدو لهم فى هذا المظهر بعد كشف الستر الثانى . وكثيراً ما يخطئون لأن المحادثة والمعاشرة دون المعاملة الداخلية يعدان من جملة الظواهر الخارجية . لأن فى بعض الناس قوة عظيمة على التظاهر بخلاف ما هم فيه من الطبائع ، ولا يستطاع كشف حقيقتهم إلا بعد الاختبار الطويل . ولكن الغالب فى الناس أن يبنوا احكامهم فى معاملاتهم على هذين المظهرين . فاذا رأت الفتاة شابا جميلا حسن البزة وعلمت بالمعاشرة والمحادثة انه لطيف المعشر واسع الاطلاع وقد أتقن آداب المعاشرة ثم طلب يدها فلا ترده ولا يرده أبواها ، إلا الذين يدققون فى البحث عن دخائل الرجل بازاحة الستار الثالث . وقس على ذلك حكم الشاب على الفتاة فى مثل هذه الأحوال . على ان الفتاة يعدون من حسناتها انها لا تتكلم إلا قليلا وقد يكون سكوتها من الحشمة والحياء أو من العجز والجهل ، ولا يعرف ذلك الا بالاختبار

على ان السكوت يستر كثيراً من نقائص الرجل ويغنيه عن كثير من الأخطار ، ولذلك قالوا فى امثالهم : «السكوت من ذهب» فاذا لقيت رجلا من أهل الوجاهة فى مجتمع دارت فيه الأحاديث على موضوعات لا معرفة له بها فسكوته يبعث على توهم المعرفة فيه . وخصوصاً اذا أتقن التظاهر بفهم ما يدور وانه انما سكت تعففاً لا عجزاً . واذا كان فى وجهه شيء من ملامح الهيبة والجلال والعظمة فعند ذلك يغلب على اعتقاد الحضور ان الرجل انما سكت ليترك مجالا لسواه فى البحث

المظهر الثالث

وهو حقيقة الرجل تظهر بعد ازاحة الستر الثالث بالمعاملة والمعاشرة الطويلة اذ يظهر مقدار معرفته وحقيقة أخلاقه . ولا يكشف عن تلك الحقائق فى الرجال مثل الأخذ والعطاء بالبيع والشراء فيظهر صدق الرجل أو كذبه وأمانته أو خيانته . ويقول لاعبو الورق (المقامرون) ان اللعب يكشف عن هذه الحقيقة بأجلى بيان . وأما سائر الأخلاق فتتكفل بكشفها العشرة العائلية . وأما الاقتدار العقلى فيبدو بالمعاملات العمومية وحل المسائل المعضلة . فتظهر طباع الرجل فى معاشرة والديه أو اخوته أو زوجته فينكشف عن جوهره اذا كان حاد الطبع أو واسع الصدر أو ضيق العقل أو

سهل الخلق أو كريم النفس أو خسيسها ، أو غير ذلك من الخلال التى لا تظهر بغير الاحتكاك الطويل . لأن من الناس من تضرب الأمثال بلطف عشرته ودماثة أخلاقه بين أصدقائه وهو عكس ذلك فى منزله مع أهله . وقد يكون فظا خشناً مع النـاس لطيفاً وديعاً مع أهله . وانما حقيقته تظهر فى منزله ويغلب أن يكون لما يبدو غير ذلك للناس أسباب طارئة

فالمظهر الثالث يراه الناس بعد ازاحة الستار الثالث فيظهر قدس الأقداس وعليه المعول فى أعمال النـاس . وخصوصاً فى المناصب الهامة أو الأعمال الـكبرى . فان المظهرين الأولين لا تأثير لهما ، ولاسيما فى هذا العصر عصر الحقائق . فلا الجمال ولا حسن البزة ولا زخرف الـكلام أو لطف العشرة ، تساعد الانسان فى نيل منصب سياسى أو ادارى أو علمي ، وانمـا يصل الى ذلك بقوة عقله واستقامته وعلو همته . فقد يبلغ الرجل أعلى المراتب السياسية أو العلمية وهو قبيح الخلقة ألـكن اللسان اذا جالسته لم تجد فيه ما يسرك ، وانما يظهر جوهره اذا عرضت المشاكل التى تحتاج الى اعمال الفكرة ، فيحل معضلاتها بذكائه ويضيء طرقها ببرهانه . فكم بين الملوك والقواد والعلماء ورجال السياسة من قباح الخلقة ضعاف العارضة وكم بين السوقة من أهل الجمال والفصاحة !

ومع اعترافنا بان الاصل فى الرجل حقيقته التى تظهر بعد كشف الستار الثالث ، فاننا نرى للمظهرين الأولين تأثيراً شديداً فى أحوال المعائش ، فان العاقل حسن الأخلاق ينال من دنياه وهو جميل الخلقة طلق اللسان حسن الأسلوب أضعاف مايناله وهو قبيح المنظر قصير اللسان . لأن الناس مهما بلغ من ارتقائهم وتوخيهم الحقائق لا يزال للظواهر الخارجية تأثير فى أحكامهم – حتى بعد اطلاعهم على حقيقة الرجل بطول المزاولة والاختبار . فان جلال طلعته ولطف هندامه وحسن بزته وفصاحة لسانه تزيده رفعة فى أعينهم . ويندر أن يوفق واحد الى حسنات المظاهر الثلاثة وهو اذا وفق اليها نال أرقى المناصب وبلغ أقصى المراد . وويل لمن يبلى بسيئات تلك المظاهر إذ يكون قبيح الظواهر ضعيف البواطن فيكون من أشقى النـاس حالا . ولـكن قد يسعده الحظ أو ترمقه المصادفة فيعيش متمتعاً بكل أسباب السعادة ، وهذا نادر ، إلا أن تؤول اليه تلك الاسباب بالارث فاذا اقتصد فى انفاقها عاش سعيداً

[عن الهلال سنة ١٨ صفحة ٢٧٧]

الامة نسيج الامهات

فعلينا تربية البنات

لا يخفى ان المرأة هي الأم وهى الزوجة وهى الأخت . فالأم والزوجة والأخت قابضات على زمام العمران ، فاما أن يرفعنه إلى أوج السعادة وإما ان يهبطن به الى حضيض الذل . يفعلن ذلك خفية واعتباطاً لا يشعر بهن أحد . ولا غرابة فى ذلك فالرجل مهما أوتي من المواهب أو بلغ من المناصب لا يخلو أن يكون زوجاً أو ابناً أو أخاً وقد يكون كل ذلك معاً . فهو ربيب امرأة وعشير امرأة ورفيق امرأة وقد اطاعها فى طفولته وحداثته مكرها وانقاد اليها فى شبابه حباً واكرمها فى كهولته شاكراً حامداً وقضى تسعة أعشار حياته بين يديها وقلبه طوع ما بين شفتيها . وقد ربي كما تريد وشب كما تشاء . وهو يطيعها بلا أمر ويصدع باشارتها بلا قانون ويجرى على هواها وهو لا يدرى . واذا رأيته يكد فى طلب العلى أو يجد فى التماس العلم أو الفضيلة فاعلم انه انما يلتمس جهاراً ما أوحت به اليه سراً ويسعى قصداً وعمداً فى طلب ما غرسته فى نفسه اعتباطاً . فالقاضى يحكم فى الجلسات العلنية وفى خلال حكمه أظلال انطبعت على مخيلته من انفاس والدته أو زوجته . والتاجر يبيعك السلعة وفى خلال حديثه أو مساومته رقة أو خشونة أو لين أو فظاظة ، مما اكتسبه من عشيرة حياته وهو لا يعلم . وقس على ذلك الكاتب والصانع والمحامي والطبيب وغيرهم فلا يعمل الرجل عملا الا وللمرأة فيه أثر لأنها أكثر عوامل الطبيعة تأثيراً فيه . وينسب الفرنسيون كل ما يجرى فى الناس الى المرأة حسناً كان أو قبيحاً ، فاذا حدث حادث ظل سببه مجهولا قالوا : « فتش عن المرأة » Cherchez la Femme وقال آخرون : « ان التى تهز السرير بيمينها تهز الأرض بيسارها »

فاذا كانت هذه حال المرأة فى الهيئة الاجتماعية فما بالنا لا نلتفت الى ترقية مداركها بالعلم والأدب ؟

بحث الباحثون عن أسباب تأخرنا فوجدوا الجهل أكبرها فقالوا بنشر العلم واخذوا يستحثون الهمم على انشاء المدارس العاليـة وتعميم العلوم الراقية ، ولـكنهم حصروا كلامهم فى تعليم الشبان وقلما التفتوا الى المرأة وهي اولى بذلك منهم . انها قوام ذلك المجتمع ، ولا تفلح امة امهاتها جاهلات لا تعرف غير غرفتها أو منزل أهلها . فقد مضت العصور التى لم تكن تطالب فيها بغير الاحتجاب والانزواء ، ولا لوم عليها إذ ذاك ، لأن الرجل لم يكن يرضى منهـا غير ذلك ، فاذا رغب فى زواج ارسل والدته أو عمته أو بعض ذوات قرابته تنتقى له عروساً ، فلا يقع اختيارها الا على التى لا تعرف من الدنيا غير بيتها ومطبخها ، فتعود وهي تبالغ فى مدحها بقولها : « ان لها فماً يأكل وليس لها فم يتـكلم » فاذا قسم له الاقتران بها افتخرت بعد طول عشرته أنها لا تخرج من منزله إلا الى القبر

واذا تتبعت تاريخ المجتمع الانسانى رأيت الأمم إنما ترقى بالمرأة الراقية ، وتختلف طرق رقيها باختلاف الأعصر والأجيال . دعنـا من ضرب الأمثال على تأثيرها فى الدين وانها اكبر العوامل فى نشر التقوى وتهذيب النفوس ، ودعنا من النظر فى تأثيرها على الآداب الاجتماعية فى الدول القديمة والحديثة ، وخذ أمثلة قليلة ممن ظهر فى صدر الاسلام من فضليات النساء وكن من أكبر العوامل فى نهضة العرب ونشر لواء الاسلام بمن ربين من القواد والحكام والعلماء . وقد نبغ منهن جماعة من خيرة الأمهات والأخوات والزوجات بما كان فى نفوسهن من انفة البداوة لشبوبهن على استقلال الفكر واباء الضيم ، فكن يترفعن عن ارتكاب ما يهون على الناشئات فى مهاد الذل المغلولات باغلال الحجاب، فنبغ منهن فى الجاهلية وصدر الاسلام نساء لهن شأن وارادة وانفة ورأى ، وفيهن المدبرة والحازمة والأديبة والشـاعرة والتاجرة والصانعة ، ممن تضرب بهن الأمثال، كسلمة بنت عمر العدوية ، وهند بنت عتبة امرأة ابى سفيان ، وعمارة بنت كعب الأنصارية ، وأم حكيم بنت الحارث ، والخنساء الشاعرة ، وخديجة بنت خويلد زوج النبى ، واسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين ، وأختها عائشة أم المؤمنين ، وعائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين وغيرهن

وما زال ذلك شأن المرأة حتى اركن المسلمون الى الترف وشاع التسرى بينهم

فآل ذلك الى ذهاب الغيرة من قلوب الرجال وصاروا يتهادون الجوارى على اختلاف اجناسهن . فبعد أن كان الرجل لا يعرف غير امرأته والمرأة لا تفكر فى غير زوجها وهى واثقة بامانته ، اذا هو قد تشتتت ميوله بين عدة نساء فقلت غيرته عليها ، ولما رأته مشغولا عنها قلت ثقتها به الا من عصمها عقلها وشرفها ، فلم ينضج التمدن فى العصر العباسى حتى تنوسيت المرأة العربية فى المدن ، وذهبت حريتها وغيرتها وصارت هي تهدى الى زوجها الجارية وتحبب اليه القرب منها لا يهمها ذلك ولا تغار منه . وبعد أن كان العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام اذا علموا بحب رجل فتاة منعوه من زواجها، صاروا يساعدونه فى الحصول عليها

فأفضى ذلك الى انحطاط المرأة وذهاب عزة نفسها واستقلال فكرها ، فاحتقرها الرجل ، وساء الظن بها ، وصار يعدها عدوة له ويوصى بعدم الاركان اليها،فيعاشرها على غل وسوء رأى ، يقفل عليها الأبواب والنوافذ ويسد فى وجهها الطرق والمسالك ويمنعها من الخروج أو الكلام ، وهو صاحب الذنب فى انحطاطها . فأصبح الطعن فى طباع المرأة وسوء سريرتها شائعاً على ألسنة الناس ، حتى الفوا فيه الروايات والأقاصيص ، ونظموا فيها الشعر وتفننوا فى وضع الجمل الحكيمة والعبارات البليغة فى تحذير الناس من المرأة وعدم الوثوق بها

فقضت المرأة المسلمة ومن عاشرها من نساء أهل الذمة مدة الأجيال الاسلامية الوسطى، وهي مظلومة محبوسة محتقرة جاهلة ، حتى اذا توسط القرن الماضى وفتحت المدارس للبنات ، وزاد اختلاطنا بالافرنج واقتبسنا عاداتهم وأخلاقهم وعلمنا تأثير المرأة فى هيأتهم الاجتماعية ، اصبحنا لا يرضينا من فتاتنا أن يكون لها فم يأكل ولا يتكلم . ولا أن يكون البيت سجنها المؤبد لا تنظر الى الطرق الا من خلال النوافذ . واذا خاطبها رجل تلعثم لسانها ، واذا ساومت بائعاً باعها القطن حريراً والنحاس ذهباً ، أو اذا رأت برقاً ظنته شرراً يتطاير من عيون الجان ، أو سمعت رعداً خالته دبدبة خيول العفاريت ، أو اذا رأت حلماً أصبحت تلتمس تفسيره وهى بين خائفة ومستبشرة . واذا قيل خسف القمر عمدت الى النحاس تدقه تخويفاً للحوت الذى ابتلعه . تقضى نهارها تسمع من عجائز الخادمات خرافات وأقاصيص لا تزيد الجاهل الا جهلا . واذا انقضت ساعات الأقاصيص عمدت الى اصلاح وجهها بالخضاب وغيره . وهى انما تفعل ذلك تشاغلا عن البطالة ، ثم تعمد الى النوافذ تطل على المارة خلسة وقد أصبح

عقلها خزانة أوهام ومخاوف . فضلا عما تؤول اليـه الخلوة والبطالة من العادات القبيحة مما لا يليق ذكره . وفي المثل المأثور « الرأس الفارغ مغارة ابليس » فالفتاة الجاهلة المحتجبة تعتاد الأحاديث الملفقة ويهون عليها الكذب والنميمة والغيبة ونحوها

والمرأة التي هذا حالها كيف نعهد اليها في تربية أبنائنا رجال المستقبل ، وهم انما يكونون كما تريد امهاتهم ؟ بل كيف نرجو رقيا والجهل مخيم على منازلنا لا يدور فيها غير الأحاديث الفارغة ؟ فاذا لم ترتق نفوس الأمهات لا ترتقي نفوس الأبناء . وهي انما ترتقي وتتثقف بالعلم الصحيح ، وقلما يفيد تعليم الرجل والمرأة جاهلة . وان تساويهما بالجهل خير لسعادة العائلة من تفاوتهما علي هذه الصورة، لما ينجم عن ذلك من الشقاق لاختلاف الأذواق . واذا كان لا بد لنا من تعليم أحد الزوجين وأردنا من التعليم ترقية شأن العائلة فتعليمها أولى من تعليمه لكن أفضل من هذا وذاك أن يكون كلاهما متعلماً راقياً

[عن الهلال سنة ١٦ صفحة ٢٣٩]

كيف تتكون الاخلاق

ليس الانسان الا مقلداً للطبيعة فيما وفق اليه من الاختراعات العظمى ، يقتبس عنها ويستنير بنبراسها . فلا تكاد تجد اختراعا مهماً الا رأيته مبنياً على أمثلة من نوعه جارية في الطبيعة حولنا . فلاصطناع الأخلاق يجب أن نعلم أولا كيف تتكون تلك الأخلاق فى الانسان حسب ناموس النشوء ثم نقلد الطبيعة فى تكوينها

يؤخذ من إعمال الفكرة فى هذا الناموس ان الانسان صنيعة الاقليم . تتغير أطواره وتتبدل أخلاقه وأحواله حتى تطابق ما يقتضيه اقليمه . ولذلك اختلفت أخلاق الأمم كاختلاف أقاليمها . فان لأهل البادية أخلاقا غير أخلاق أهل المدن . وتختلف أخلاق أهل الجبال عن أخلاق أهل السهول . وقس على ذلك

واذا تدبرت هذه الأخلاق فى أصل منشئها وسبب ظهورها ، رأيت للعقل دخلا كبيراً فى تكوينها بحيث يصح القول : « ان اخلاق الانسان نتاج عقله وصنيعة اقليمه » ولايضاح ذلك نضرب مثلا مبنياً على رأى أصحاب ناموس النشوء في ارتقاء الانسان : نفرض رجلا لا يزال على الفطرة الحيوانية ، لم يتكون فيه شيء من المميزات البشرية ، فالأرجح فى نظرنا ان الارتقاء بدأ أولا فى عقله فامتاز عن سائر الحيوانات بالادراك ، ثم استعان بالادراك على تكوين أخلاقه التماساً للبقاء ودفعا لما يهدده من أسباب الفناء

وبيان ذلك ان الانسان وجد ضعيفا بين الأقوياء . فأصبح عرضة للمؤثرات الطبيعية وفريسة للحيوانات المفترسة التى لا يقوى على دفعها بقوته البدنية . لكنه امتاز عنها بالحيلة العقلية ، فاستخدمها فى الدفاع عن نفسه والاحتفاظ بحياته . ولولا ذلك لانقرض عن وجه الأرض من عهد بعيد كما انقرض سواه من أنواع الحيوان . لكنه استخدم حيلته العقليـة فى اتقاء البرد بصنع الألبسة وفى اتقاء الحيوانات

المفترسة باصطناع الأسلحة وبناء المنازل . وساعده النطق على الاجتماع فتألف قبائل وبطونا انتشرت فى الارض على اختلاف المناطق والأقاليم . وقام النزاع بينها على المعاش أو على السيادة فأصبح أشد حاجة الى الحيلة العقلية من قبل . وأهم ما يدعوه الى ذلك عاملان : (١) الدفاع عن نفسه (٢) الاجتماع مع اخوانه للاستعانة بهم على أعدائه

والعامل الأول ـ نعني الدفاع عن نفسه فى مقاومة الحيوانات الضارية أو محاربة الأعداء من بني جنسه ـ أوجد فيه أخلاق أهل البادية كالشجاعة والهمة والنشاط والنجدة ونحوها ، سيق اليها بالانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح . لأن القوم المقيمين فى بادية لا غنى لهم عن هذه الأخلاق للدفاع عن حياتهم وكسب أسباب معاشهم . فاذا لم يكن ذلك خلقا فيهم تعودوه بتوالى الأجيال حتى يصير خلقا بانقراض الضعفاء العاجزين عنه وبقاء الأقوياء القادرين عليه . فمن لم يكن فيه استعداد لاكتساب ذلك الخلق مات وبقى الأصلح . وقس على ذلك تكون سائر الأخلاق اللازمة لدفاع الانسان عن نفسه أو التماس رزقه

أما العامل الآخر ـ نعني اجتماع الانسان برهطه للتعاون على أعدائه ـ فيحتاج الى طبقة أخرى من الأخلاق . مرجعها الى تبادل المنافع ومعرفة الحقوق والواجبات . فاضطراره الى الاجتماع حمله على تكلف الأخلاق اللازمة لذلك ، واستخدام ارادته فى الصبر والكظم رغبة فى مصلحة نفسه . فأصبحت تلك الأخلاق عادة ثم صارت بتوالى الأجيال خلقا فطريا . وجد البدوى نفسه فى حاجة الى الاستعانة بأهله وجيرانه فأخذ فى تقريبهم منه يبذل ما يحتاجون اليه وأهمه الطعام ، فاكثر من الضيافة وهي تقتضى الكرم والسخاء ، فأصبح الكرم بتوالى الأجيال من أخلاق أهل البادية. وقس عليه الوفاء والحلم والصدق وغيرها . ويقال بالاجمال ان الخلق تبعث على تكونه الحاجة وتأمر به الارادة . ويمر فى ثلاثة أدوار : نعنى ان العقل يرى ما تستلزمه أحواله ، فتعمد الارادة الى اجرائه مضطرة متكلفة كاظمة . فاذا تكرر ذلك العمل صار « عادة » . ويغلب أن يبدأ بذلك كبير من عقلاء القبيلة ثم يقلده الجيران لما يجدونه فيه من الخير لهم . ثم تصير تلك العادة بتوالى الأجيال « ملكة » راسخة تتوارثها الأعقاب . وأخيراً تصير « خلقا »

على نحو هذا النمط تكونت الأخلاق فى أدهار متباعدة لا يدرك أولها . وهى

تختلف فى الأمم باختلاف أقاليمها وسائر أحوالها . لأن ما يبعث أهل البادية على تطلبه من الأخلاق قد لا يتطلبه أهل المدن . وقد تختلف أخلاق الأمة الواحدة باختلاف أطوار مدنيتها تبعا للمؤثرات التى تطرأ عليها . فتضطرها الى عادات كانت فى غنى عنها فى أحوالها الأولى . ثم تصير تلك العادات أخلاقا راسخة . بهذا نعلل الفرق بين أخلاق العرب فى الجاهلية وأخلاقهم فى هذه الأيام . وبين الأخلاق الرومانية فى أوائل دولة الرومان وما صارت اليه بعد أن استبحر عمرانها

فالأمة الواحدة تختلف أخلاقها باختلاف اقليمها . وتختلف فى الاقليم الواحد باختلاف أطوار مدنيتها ـ يقع ذلك فيها وهي لا تتطلبه ولا تشعر بانتقاله ، لأنه يتدرج من العادات الى الملكات فالأخلاق عملا بسنة الارتقاء

***

فاذا شئنا أن نكون فى أنفسنا أخلاقا ليست فينا فلنقلد الطبيعة ، لكننا نحتاج قبل كل شيء الى « الارادة » . نعنى أن ننظر فيما ينفعنا ويصلح أحوالنا الاجتماعية . فاذا تحققنا اضطرارنا اليه عملنا على جعله قاعدة لا بد من اتباعها . فنصمم على ذلك ونعمل به ولو مكرهين . ثم لا يلبث أن يصير ذلك عادة فملكة فخلقا . ولا يتم تكون الخلق الا بأجيال متوالية . لأن الأخلاق الراسخة فى الأمم يصعب اقتلاعها أو نزعها الا بالصبر وصدق العزيمة مع قوة الارادة

مثال ذلك ان « الشجاعة الأدبية » من الاخلاق الراقية التى نحن فى حاجة اليها ، فعلينا أولا ان نتثبت من ذلك ونعتقده . ثم نجعله قاعدة أعمالنا ونغرسه فى أبنائنا منذ الصغر وهم فى المهد ونرضعهم اياه مع اللبن . ذلك هو أساس التربية والعمدة فيه على الأمهات . ثم يعهد أمره الى المعلمين فى المدارس . وهكذا فى سائر أطوار الحياة فتصير الشجاعة الأدبية عادة فيهم يتوارثها أبناؤهم حتى تصبح بتوالى الأجيال خلقاً فطرياً . ويقال نحو ذلك فى سائر الأخلاق

[عن الهلال سنة ٢٢ صفحة ٥٨٥]

للناس فيما يعشقون مذاهب

قد يرى شاب فتاة فلا يهمه أمرها ولا يتحرك قلبه لها ، وربما نفرت نفسه منها ، فاذا رآها صاحبه تعشقها وهام بحبها ، وأغضب الأهل والخلان من أجلها ولسان حاله يقول :

رأوها بعين غير عيني فأصبحت   قلوبهم فيها مخالفة قلبي

على ان الجمال نفسه لايخلو من شروط عامة يعترف بها الأكثرون . فقد يجمع أهل البلد الواحد على الاعتراف بجمال فتاة من فتياتهم يجعلونها محور اعجابهم يتحدثون عنها فى مجالسهم ،ويضربون بها الأمثال فى أحاديثهم ، فهذه وأمثالها من ربات الجمال لادخل لهن فى هذا البحث اذ ليس المراد بالحب مجرد الاستحسان أو الاعجاب ، انما نريد به تجاذب القلوب الى حد الكلف حتى لا يرى المحب فى حبيبه غير الجمال ولو لم يستطع اثبات ذلك بالبرهان ، وحتى يشعر بامتزاج الروحين واتحاد القلبين فلايبقى سبيل للوم اللائمين ولا نصيحة الناصحين . واذا عوتب على جنونه تمثل بقول الشاعر :

جرى حبها مجرى دمي فى مفاصلي   فأصبح لى عن كل شغل بها شغل

فاذا سمعه صديقه يقول ذلك استغربه لأنه لا يرى فى محبوبه ما يبعث على هذا الهيام .وربما رأى فيه ضد ما رآه صاحبه . فما هو السبب فى هذا التباين أو التضاد ؟

ان هذا البحث قد شغل أذهان العلماء من قديم الزمان فكانوا فى الاعصر القديمة ينسبونه الى تلاؤم الأبراج وتوافق المواليد أو الأسماء أو نحو ذلك من خرافات القدماء ، ولا يزال من أثر هذا الاعتقاد على ألسنة عامتنا قولهم اذا تحاب اثنان : « إن نجميهما اتحدا أو توافقا » . فلما بطل التنجيم ورجع الناس الى الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار عللوا ذلك التجاذب بالمغنطيسية الحيوانية ، حتى اذا اكتشفوا ما اكتشفوه

من الأسرار الطبيعية واستشفوا ما وراء مكتشفاتهم من الأسرار الغامضة التي يتوقعون كشفها في مستقبل الزمن ، نسبوا ذلك التجاذب بين المحبين الى توافق « كهربائيتهما » - يريدون أن في الناس قوة كالكهربائية تتفاوت شدة وضعفاً وتختلف ايجابا وسلباً باختلاف الأشخاص . حتى اذا التقى شخصان وتوافقت كهربائيتهما ، تجاذب قلباهما وتحابا ، وهو قول يدل على رغبتنا في التعليل مع جهلنا حقائق الامور

وتفنن آخرون في تعليل ذلك التجاذب فجعلوه في العيون وعبروا عن فعله بالسحر الذي يقول فيه الشاعر :

عيون عن السحر المبين تبين لها عند تحريك الجفون سكون
اذا أبصرت قلباً خلياً من الهوى تقول له كن عاشقاً فيكون

ولم يقولوا ذلك عبثاً لما في العيون من الدلالة على الميول والعواطف على حد قول التعاويذي :

عيناك قد دلتا عيني منك على أشياء لولاها ما كنت رائيها
والعين تعلم من عيني محدثها ان كان من حزبها أو من أعاديها

على ان هذا أيضا لا يعلل سبب التجاذب الخاص بين اثنين لا يرى الناس باعثاً عليه

وآخر من نظر في هذا الموضوع « جورج مينرس » أحد أدباء الانكليز ، فقد تفرغ للبحث فيه بحثاً استقرائياً ، فجعل رائده المشاهدة والتحرى ، ودليله القياس العقلى فتوصل الى نتيجة مرجعها الى شكل الوجه في المحبين

وخلاصة بحثه أنه وجد بالاختبار في نفسه وفي كثيرين من أصحابه وغيرهم أن التجاذب بين المحبين يرافقه في الغالب تباين في شكل الوجه ، ويشتد التجاذب بينهما كلما تباعد الشبه بين وجهيهما . فالوجه المستطيل يجتذب الوجه المستعرض ، وصاحب الانف الكبير يجذبه صاحب الانف الصغير ، وبارز الجبهة يحب غائرها ، وجاحظ العينين تسحره العيون الغائرة ، وأسود العين يحب صاحب العين الزرقاء ، ومستدق الانف يحب مستعرضه ، وكلما تعددت أوجه الاختلاف بين المحبين ، توثقت عرى المحبة بينهما

فالوجوه تختلف باختلاف أصحابها حتى لا تكاد ترى وجهين متشابهين تمام المشابهة لتعدد أسباب الخلاف . إذ لكل عضو من أعضاء الوجه عدة أوجه

للاختلاف ، فالفم مثلا يختلف طولا واتساعا وبروزاً واطمئنانا وثخانة ورقة وتقوساً واستقامة . وقس على ذلك اختلاف شكل الشفتين ثخانة ولونا واختلاف الانف والعين والحاجب والوجنة والذقن والجبهة وغيرها . وتختلف هذه الاشكال تقاربا وتباعداً باختلاف الامم، وأكثر الامم تناسباً فى أشكال وجوههم القوقاسيون ، وأوسطها شكلا الوجه المعبر عنه بالوجه اليونانى أو الرومانى لأن أعضاءه متوسطة الحجم وفيها تناسب، وشكله وسط بين الطول والقصر والعرض والضيق . فاذا جعلنا هذا الوجه القاعدة الأساسية فكل ما يختلف عنه عد خارجا ، فاذا برز الأنف أكثر من بروزه فيه عد بارزاً ، أو انخفض عنه عد منخفضاً ، وقس على ذلك سائر الأعضاء

والاختلاف فى شكل الوجه إما أن يكون عاما من حيث هيئته الاجمالية ، أو تفصيلياً بالنظر الى أعضائه . ففى الحالة الأولى وجد « مينرس » المشار اليه أن صاحب الوجه المستطيل يحب صاحبة الوجه المستعرض والعكس بالعكس . وصاحب الوجه البيضى يتعشق صاحبة الوجه المربع . وقد أتى بأمثلة كثيرة سمى أصحابها

وأما الاختلاف التفصيلى بين الوجوه فعلى أشكال . ويظهر غالباً بالتصوير الجانبي (البروفيل) فيبدو بروز الأنف أو اطمئنانه وطوله أو قصره وبروز الذقن أو نزوله.

فالقاعدة العامة عند صاحب هذا الرأى أن الاوجه المتخالفة تتجاذب والمتشابهة تتدافع . وتذكرنا قاعدته هذه بناموس التجاذب فى الكهربائية ، أى أن الكهربائية الايجابية تجذب السلبية وبالعكس . فالكهربائيتان المتخالفتان تتجاذبان والمتشابهتان تتدافعان . واذا أردنا تطبيق هذه القاعدة على الحب رأيناها تصدق على ما بين الجنسين من التجاذب العمومى ، أى التجاذب بين الذكر والأنثى على الاجمال . وأما قاعدة « مينرس » فيشبهها رغبة الانسان فى الغريب أو ميله الفطرى الى تكميل ما فيه من النقص باصلاح النسل باجتماع المتباعدين فيخرج من نسلهما خلق وسط . وقد أتى «مينرس» المشار اليه بأدلة كثيرة لاثبات رأيه،قال إنه شاهدها بنفسه وتحققها بالمقابلة والاستقراء . ومع ذلك فان رأيه لايزال محلا للنظر والانتقاد حتى يؤيده التواتر . ولا يعسر على القراء تطبيق هذا الرأى على من يعرفونهم من الأزواج العشاق ــ والبحث بكشف الحقيقة

[عن الهلال سنة ١٣ صفحة ٤١٣]

الحماة والكنة

(رد على سؤال)

[السؤال] جرى على الالسنة أن الحماة والكنة ضدان لا يتفقان . وضرب بهما المثل فى شدة التنافر حتى قيل في كل اثنتين اختلفتا انهما مثل الحماة والكنة . والذى أراه انهما يجب أن تكونا مثالا فى الوفاق ، لأن الحماة التي تحب ولدها يجب أن تحب زوجته ، لانها تعلم انه لم يخترها رفيقة لحياته إلا لانه أحبها ووضع كل آماله فيها ، فيقضى الحنو الوالدى عليه بالحنو عليها ومحبتها واعتبارها بمنزلة ولدها . والكنة تعلم أن حماتها إنما هى سبب وجود زوجها وهى التي ربته ولها عليه الفضل الاعظم ، فيجب عليها أن تحترمها اكراماً له وأن تتخذها بمنزلة والدتها . ولكن الذى نراه خلاف ذلك . فما سبب هذا التضاد وما الوسيلة لملافاته ؟

الحماة والدة ربت ولدها مذ كان فى أحشائها الى أن دب ثم شب . وهى لا تغفل ساعة عن حراسته والحنو اليه جاع أو عطش أو توجع ، وكم قضت الليالى ساهرة لا تعرف الرقاد جاثية الى سريره تغذيه بلبنها وتضمه الى صدرها . اذا بكى ربتته واذا مشى استعاذت بالله من عيون الناس عليه ، لا يرتاح لها بال الا اذا كان الى قربها ، فاذا غاب عن عينيها شيعته عواطفها وحام حوله قلبها ، وهى لا تعرف موضعاً لآمالها الا فيه ، وقد تنسى سائر الناس فى سبيل مرضاته واستجلاب راحته . فاذا شب أخذت تفكر فى زواجه وقد تشرع فى ذلك وهو غافل عنه ، فكلما رأت فتاة نظرت اليها بعين المنتقد لعلها تؤانس فيها ما يؤهلها لاكتساب قلب ولدها الذى هو أعز الناس عندها لا ترى بين أقرانه اكمل منه ولا أجمل . وقد يخيل اليها — ولا سيما فى هذا الزمن — أن آمال البنات حائمة حولها وانهن انما يكرمنها أو يحترمنها استجلاباً لرضاها لعل اختيارها يقع على واحدة منهن ، وهى لذلك لا تزداد الا اعجاباً بولدها ، ولا سيما اذا كان أهلا لذلك ، فلا تعلم على من يقع اختيارها منهن ، وهى على كل حال تحسب اختيارها

لفتاة أكبر منة لها عليها، لاعتقادها أن البنات قلما يعثرن على مثل هذا النصيب . فاذ وقع اختيارها على فتاة واعجبت ابنها لا تلاقى منها ومن أهلها أثناء الخطبة الاالاحترام والاكرام ، فتزداد اعجاباً بولدها وتنتظر وقت اقترانه بصبر نافد حتى تتمتع بما تنتظره من الاحتفاء والاحتفال ، جزاء لما بذلته فى تربية ولدها من الاتعاب لتكون هى الآمرة الناهية ، يرجع اليها الاثنان ـ ولا سيما كنتها ـ فى كل أمر كبيراً كان أو صغيراً

أما الكنة فهى فى الغالب فتاة ربيت فى حجر والديها ، لا تسمع منذ نعومة أظفارها إلا تحدث الناس فى البنات والتشاؤم بولادتهن وتعوذ الوالدين بالله من تكاثرهن ، حتى اذا شبت نسيت ذلك لما تراه من احتفاء الشبان بها ، وتسابقهم الى مشاهدتها ، وتقديمها فى الاجتماعات العمومية ، والاصغاء الى حديثها وتكاثفهم على اكتساب رضاها ، وان كان ذلك لا يخرج عن حدود الملاطفة الخارجية ، الى أن تقع من قلب بعضهم موقعاً حسناً ويعقد النية على خطبتها فيجتهد فى ابتمالتها وبذل الوسائل فى مرضاتها ، واذا اتيح له محادثتها جعل مدار كلامه بث ما لها فى قلبه من المكانة وما ينويه لها من السعادة والهناء ، فاذا خطبها لا تسمع الا الاطراء لخصالها والمبالغة فى حبه لها وتخصيص حياته من أجلها والسعى فيما يجلب لها . وأول شيء يتوخاه فى حديثه وأعماله اقناعها أن لها فى قلبه المكان الأول ، وأنه إنما يريد الحياة من أجلها وأنه لم يشعر عمره بمثل ما شعر به نحوها ، الى غير ذلك مما يجعلها تطير على أجنحة الآمال وتتيه فى عالم الخيال وتتمثل لها السعادة عبداً رقاً ، فتتوق الى يوم يتم لها فيه الموعد فتصبح صاحبة البيت ورئيسته ، والآمرة الناهية فيه ، فتقوم باستقبال زائريها وتستعد للقيام بالواجبات البيتية كما كانت والدتها فى بيت أبيها لأنها ستكون فى مستقبل ايامها رئيسة لعائلة جديدة مستقلة عن عائلة حميها

فاذا تم لها الأمر ودخلت بيت حميها ، لا تلبث برهة حتى ترى خلاف ما توقعت ، وهكذا أيضاً حماتها . لأن كلا منهما كانت تعتقد أن ذلك الزواج سيكون سبباً لراحتها واستقلالها والترؤس على البيت . فترى غير ما انتظرت فيقع التنافر بينهما . ويساعد على ذلك ما بينهما من اختلاف الذوق على نسبة اختلافهما فى السن والتربية وسائر أنواع المعيشة . فيزداد التنافر وقد تستحيل ازالته الا اذا كانت احداهما حكيمة طويلة الأناة . وذلك ينتظر غالباً من الحماة لأنها اكبر سناً ، ولأنها كانت يوماً كنة ، وهي أولى بملافاة الامر والدعوة الى ائتلاف القلوب

وعلى الكنة أن تكون أقرب الى الاذعان لحماتها واحترامها ، وبالاجمال نقول إن ملافاة ذلك الخصام يقوم بأمر فى غاية السهولة يتكفل بازالة كل أسباب الخصام . نريد به أن عقد الزواج المقدس يجعل بين الحماة والكنة رابطة مقدسة أشبه شيء برابطة الوالدة بولدها . فاذا اعتبرت الحماة الكنة ابنة لها واعتبرت الكنة حماتها بمنزلة والدتها ، هان كل عسير ، على شرط أن تعتقد كل منهما ذلك باخلاص وصدق طوية

والرابطة الوالدية التى تستحدث بين الحماة والكنة بواسطة الزواج ليست من قبيل الفرض، بل هى حقيقة شائعة عند جميع الامم ، فان الحماة عند الانكليز تسمى mother-in-law أى « والدة بحسب الشريعة » والكنة daughter-in-law أى « ابنة بحسب الشريعة » وأما الفرنسيون فيسمون الحماة belle-mère أى والدة جميلة والكنة belle-fille أي ابنة جميلة ، وهو تعبير يدل على مايؤيد قولنا . لان الجمال وصف يدل على المحبة . وفى الحالين نرى أن الشرائع توجب الائتلاف بين الحماة والكنة ، والهيئة الاجتماعية تدعو اليه والعقل السليم يحكم بوجوبه، ولا سبيل اليه الا بمعاملة كل منهما الاخرى بما بين الوالدة والولد . فعلى الحماة محبة كنتها ، وعلى الكنة احترام حماتها ، فيمتنع كل ما يدعو الى التنافر ويغلب تسلط السلام والسكينة . أما اختلافهما فى الذوق فلا يقف فى سبيل ذلك لأنه لا يخرج عما هو عادى بين الاولاد ووالديهم لاختلاف ما ربيا عليه وتعوداه ، ولا نراه يؤول الى مثل ما يؤول اليه بين الحماة والكنة . والسبب فى ذلك اخلاص المحبة ، وحسن النية قولا وفعلا ، فينظر كل منهما الى أعمال الآخر بعين الرضى ، وعين الرضى عن كل عيب كليلة

[عن الهلال سنة ١ صفحة ٢٧٥]

الحقائق والاوهام

أو الجواهر والاعراض

نريد بالحقائق الأمور الواقعة بشهادة الحس والعقل . ويدخل فيها الحقائق الطبيعية والاجتماعية والسياسية والدينية وغيرها . وأما الأوهام فنريد بها أموراً لها شكل ، وليس لها حقيقة ، اخترعتها المخيلة من نفسها ، كالخرافات وبعض الاعتبارات الاجتماعية أو السياسية التى تحوم حول الحقائق

والحقائق درجات : فمنها ما هو يقيني ثابت بالبرهان المحسوس ، كالنواميس الطبيعية والقضايا الرياضية ، ومنها ما يتصل اليه بالأحكام العقلية المبنية على الاختبار والمزاولة أو بالنقل المتواتر ، كأكثر الحقائق الأدبية والتاريخية والاجتماعية . فقولنا : « ان الأجسام تتمدد بالحرارة وتتقلص بالبرودة ، وان الماء مركب من الاكسجين والهيدروجين ، وان زوايا المثلث تعدل قائمتين » حقائق يقينية . وقولنا : « ان الانسان حيوان ناطق ، أو ان الحادثة الفلانية جرت فى التاريخ الفلاني ، أو ان التربية تثقف العقول » حقائق اجتماعية أو سياسية . وسنقصر بحثنا عليها

والأوهام درجات ، فمنها ما يناقض العلم أو يخالف أحكام العقل، كالاعتقاد بالعفاريت أو مخاطبة الأرواح أو نحو ذلك من الخرافات والشعوذات وأمثالها ، ومنها ما يحوم حول الحقائق الاجتماعية أو السياسية من الاعتبارات التى لا حقيقة لها بنفسها كالمجاملات والمظاهرات والمبالغات فى الحديث أو العادات المتوارثة فى الاحتفالات ونحوها . فاذا تزوج رجل بامرأة فالحقيقة فى زواجه تقوم باتحاد قلبى الزوجين بالحب واثبات ذلك بعقد القران . وأما الأوهام التى تحوم حول تلك الحقيقة فهى ما يجرونه فى أثناء العقد

من الاحتفالات كنصب السرادقات وإضاءة الشموع وضرب الطبول وما يتعاطونه من الأشربة والأطعمة ونحو ذلك من انفاق الاموال فى هذا السبيل

والعبادة أساسها الاعتقاد بوجود الله والعمل بأوامره ونواهيه ، وهى حقيقة لا معنى للعبادة بدونها . وأما الاوهام التى تتخللها فـكثير مما يجرى من المظاهرات فى الاحتفالات الدينية

واذا أسندت ولاية الى وال ، فالحقيق من ذلك الأمر السلطانى (الفرمان) المؤذن بتعيينه يتلى على جماعة يشهدون صحة تلك الولاية . وأما ما يتخلل تلاوة الامر من لبس الثياب الرسمية ووقوف الجنود بالأسلحة والاعلام والمجاملات ونحوها فهى من الاوهام التى لا تدخل فى أصل الولاية . حتى الامر نفسه يمكن التفريق بين ما فيه من الحقائق والاوهام . فمن الحقائق قول الملك أو السلطان فى فرمانه : « قد وليناك العمل الفلانى بالشرط الفلانى » وأما ما يحيط بذلك من ألفاظ التفخيم والتعظيم فهى أوهام إذ لا تزيد الفرمان معنى

أصل العادات

والعقل اذا ترك لنفسه لا يقبل غير الحقائق الراهنة . ولـكن فى فطرة الانسان ميلا الى الاوهام لانه يرى فيها لذة تنبسط نفسه لما تحويه من الغرائب التى يتطلبها خياله ــ تلك هى علة الاوهام السائدة فى نظام الاجتماع ، وهى فى كل حال لا تجد سبيلا الى الحقائق الطبيعية . لان الطبيعة لا تقبل غير الواقع ولا تعرف سواه . أما الامور الاجتماعية أو السياسية أو الدينية المتعلقة بتصور الانسان أو احساسه أو عواطفه ، فهى التي تتطرق الاوهام اليها وتتوارث وتنمو بتوالى الاجيال وتتسع حتى تصير قاعدة متبعة أوعادة شائعة ــ ذلك هو أصل العادات القومية ومصدر الاعتبارات الاجتماعية

وهذه العادات أو الاعتبارات ، وإن ظهرت لنا بمظهر الاوهام ، فان بعضها مبني فى اصل وضعه على اسباب حقيقية اقتضتها الاحوال التى جرت فيها اول مرة . فاسناد الولاية الى وال قلنا إن الاصل فيه تلاوة الامر القاضى بذلك . وكانت عادة العرب فى اوائل دولتهم ان الخليفة اذا ولى احداً على بلد اكتفى بالفاظ قليلة يقولها شفاها او يكتب بها كتابا مختصراً بلا تنميق او تفخيم . وكان القوم اذا جاءهم الامير بكتابه

أذعنوا لامره بلا معارض . وقلما كانوا يذكرون شروط الولاية . فلما ذهبت دهشة النبوة وعمد بعض الطامعين بالامارات الى انتحال الاسباب لنيل الولايات بحق أو غير حق ـ واذا تولوها استبدوا فيها ولو خالفوا ما يريده الخليفة ـ اقتضى ذلك ذكر شروط الولاية وتحديد واجبات الوالى . وتدرجوا باستبحار العمران وفساد النيات ، الى تأييد حق الولاية بالشهود والى تثبيته بالجند ، فصاروا يتلون الاوامر بوجود شرذمة من الجند ، أو لعلهم فعلوا ذلك فى ظرف خاص ثم صار عادة . وتحول المراد به من تأييد الولاية وتثبيت الوالى إلى مجرد الأبهة بوقوف الجند بملابسهم وأعلامهم وشاراتهم . وبذهاب الحاجة الى ذلك بتغير الاحوال ، صارت تلك الاحتفالات من قبيل الأوهام

ويدخل تحت هذا الحكم سائر أحوال ابهة الدولة كخروج السلطان أو الأمير حاطاً بالجنود والأعوان ، أو وقوف الجند بأبواب الملوك والمعاملات الرسمية في المقابلات والتشريفات وسائر الاحتفالات بالاعياد والمبايعة والصلاة وغيرها . وقس عليه الاحتفال بالزواج أو المآتم أو الولائم والافراح ونحوها ، فان لكل عادة أصلا حقيقياً كان يراد به غرض خاص وذهب الغرض المراد فبقيت العادة

خذ ما شئت من أعمال الانسان وأحواله ، فانك لا تجد فيها شيئا خاليا من الأوهام ، حتى حديثه وطعامه وشرابه وزواجه وحكومته وسياسته وسائر أحواله . كل عمل من هذه الاعمال مؤلف من حقيقة تحوم حولها الأوهام ، وهى العادات التى توارثوها بتوالى الاجيال . وإذا تدبرتها رأيتها درهم حقيقة على قنطار وهم

تفاوت الامم فى الاوهام

والناس يتفاوتون فى جنوحهم الى الحقيقة أو الى الوهم ، وترى الفرق ظاهراً فى الامم على الاجمال . فبعض الامم تتوجه عنايتها الى الحقائق أكثر مما تتوجه الى الاوهام . والبعض الآخر بالعكس . فالانكليز مثلا من أكثر الأمم تمسكا بالحقائق ، اذا أخذ أحدهم فى عمل جعل همه التمسك بما فيه من الحقيقة وأغضى عن الاوهام . ومن الأمثلة التي تدل على تلك الفطرة فيهم حكاية طريفة (سبق ذكرها) خلاصتها أن جندياً انكليزياً استأجر حماراً من أواسط القاهرة للذهاب الى العباسية . فاتفق أن سائق الحمار أخذته نشوة وهو يسوق الحمار فجعل يشتم راكبه لاعتقاده أنه

لايفهم العربية ولا خوف عليه من غضبه . وفى أثناء الطريق سمعه بعض المارة فأخذته الغيرة على الانكليزى فاستوقفه وسأله هل يفهم العربية قال : « كلا »

فقال : « ان هذا المكارى يشتمك ويهزأ بك »

فقال : « وهل يحول شتمه دون وصولى الى العباسية ؟ »

قال : « لا »

قال : « فليشتم ما شاء فأنا إنما أريد الوصول الى العباسية »

ومع ما فى هذا المثل من السذاجة والفكاهة ، فهو يمثل تمسك الانكليز بالحقائق وهناك أمم تجعل همها الظواهر أو الاوهام وتغضى عن الحقائق ، وربما كان الشرقيون أكثر الأمم جنوحا الى ذلك ، نعنى أنهم يتمسكون بالقشور ويتركون اللباب

اختلاف الاوهام فى الامة الواحدة

ثم ان الأمة الواحدة يختلف ميلها الى الحقائق أو الأوهام باختلاف أحوالها من البداوة أو الحضارة ، وباختلاف درجات تمدنها . فالبدوى أقرب الى الحقيقة من الحضرى . وهذا يزيد انغماساً فى الأوهام كلما اتسعت حضارته وأركن الى الرخاء . وأقرب الادلة على ذلك تقلب العرب واختلاف عاداتهم ومعاملاتهم باختلاف أحوالهم، ويظهر ذلك واضحاً فى مخاطباتهم ومكاتباتهم . كانوا في بداوتهم وأوائل حضارتهم يقتصرون فيما يقولونه أو يكتبونه على الحقيقة المجردة حتى فى مخاطبة ملوكهم وامرائهم بلا تفخيم ولا تطويل . فكانوا يخاطبون الخليفة باسمه أو لقبه ثم يذكرون غرضهم بعبارة خالية من الحشو أو التنميق

وقس على ذلك كلام الخلفاء والامراء فى مكاتباتهم وخطبهم ، فانك لا تجد لفظاً يمكن حذفه من الكتاب مع بقاء الغرض المراد منه . ثم صاروا كلما اتسعت حضارتهم ينمقون عبارتهم ويطولونها ويصدرونها أو يذيلونها بألفاظ التفخيم ونعوت التبجيل مما لا دخل له فى الغرض الأصلى المراد من الرسالة . فهذه الالفاظ والنعوت الزائدة عن المراد نعدها من الاوهام ، وقد تزيد أحيانا على الالفاظ الحقيقية أى اللازمة للتعبير عن المقصود . على أن تلك الالفاظ الوهمية كان لبعضها أو كلها فى اصل وضعها غرض حقيقى ، ثم ذهب الغرض وبقى اللفظ بحكم العادة وميل الامة الى التفخيم على أثر ما أصابها من الذل بتوالى الظلم

فالنعوت الفارغة والالقاب المترادفة التى استخدمها العرب فى مكاتباتهم وصلت قبيل هذه النهضة الى ما يفوق المعقول . وربما كانت أكثر عدداً وأوسع استعمالا عند الفرس . وهي حيثما وجدت من آثار الزلفى وبقايا عصور الاستبداد . فبعد أن كان الخليفة فى صدر الاسلام إذا كتب الى عامله اكتفى بقوله : « من عبد الله فلان أمير المؤمنين الى فلان عامله على مصر . أما بعد » ويبدأ بالموضوع ـ صار السلطان من سلاطين آل عثمان يستهل كتابه بفاتحة طويلة ثم يعدد سلفاءه العظام فى بضعة أسطر قبل أن يصل الى موضوع الكتاب ، كما فعل السلطان سليمان القانونى فى كتاب بعث به الى ملك فرنسا وهو قوله :

« بنعمة الله الذى تجل قدرته وتمجد الى الأبد وتتعظم كلمته الالهية . وببركة شمس سموات النبوة ، وكوكب برج الأولياء ، رئيس طغمة الابرار محمد الطاهر صلى الله عليه وسلم . وبظل أنفس صحابته الأربعة الطاهرين أبى بكر وعمر وعثمان وعلى صلوات الله عليهم شاه سلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان الغازى

« أنا سلطان السلاطين وملك الملوك وواهب الأكاليل للملوك العالم ظل الله على الارض . باد شاه وسلطان البحر الابيض والأسود وبلاد الروم ايلى والاناضول وقرمانى وارضروم وديار بكر وكردستان واذربايجان والعجم ودمشق وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس الشريف وسائر بلاد العرب واليمن وايالات شتى التى سلفاؤنا العظام وأجدادنا الشرفاء قد افتتحوها بقدرتهم المنصورة . وكذلك عدد كثير من البلاد التى عظمتى الملوكية قد أخضعتها لسيفى الساطع . أنا ابن السلطان سليم ابن السلطان بيازيد شاه السلطان سليمان خان أكتب اليك يافرنسيس ملك مملكة فرنسا ما هو كذا كذا »

وبعد أن كانت ولاية الاعمال مقصورة على قول الخليفة بعد أن يخاطب الأمير باسمه : « قد وليتك العمل الفلانى » صاروا يخاطبون الولاة بألقاب التفخيم المترادفة كقولهم : «وزيرى سمير المعالى مدير أمور الأنام بالفكر الثاقب والرأى الصائب الخ»

ومن قبيل التمسك بالأوهام دون الحقائق فى الأحوال السياسية أن تكتفي بعض الدول بالسيادة الاسمية على بلد دون السيادة الفعلية . لكنها لا تفعله طبعاً إلا مرغمة .

وقد اخترع أصحاب هـذا التمدن الفاظا سياسية للدلالة على مراتب تلك السيادة كقولهم : Souverainété و Suzerainété

وقس عليه سائر أحوال الاجتماع فانها تكون فى ابان شباب الدولة أقرب الى الحقيقة ثم تأخذ بالميل الى الأوهام كلما دنت الدولة الى الشيخوخة ـ تلك قاعدة من قواعد الاجتماع يمكن التعويل عليها فى الحكم على مراتب الأمم في سلم العمران . فكل أمة تغلبت فيها الأوهام على الحقائق أو رأيت اهتمامها بالظواهر أكثر من اهتمامها بالجواهر ، اعلم أنهـا فى دور الانحطاط . فاذا رأيتها أخذت فى النزوع الى الحقائق ونبذ الاوهام اعلم انها فى نهضة يرجى لها معها الفلاح . وهذا ما بعثنا على التقدم الى كتابنا مراراً فى العدول عن نعوت التفخيم فى المخاطبات . كما فعل أهل أوربا لما أفاقوا من غفلتهم وأخذوا بأسباب مدنيتهم الحديثة

علة الانتقال الى الاوهام

وعلة هذا الانتقال من الحقائق الى الأوهام متصلة بفطرة الانسان وميله الى الخيال وما يصوره له الوهم . فان الحقيقة هي الأصل فى كل حال من أحوال الاجتماع ، ثم يتطرق الوهم اليها بالتدريج حتى يحل محلها . واعتـبر ذلك بالاديان فانها فى أصل وضعها بسيطة مبنيـة على قضايا حقيقية ، ثم تتدرج الى الأوهام بما تقتضيه مطامع الرؤساء ، وهؤلاء لا يتيسر لهم ذلك إلا لما يرونه من ميل العامة الى الأخذ بالأوهام والتعلق باهداب الخيال . لا تكاد تجد ديناً من الأديان الكبرى إلا وهو قائم فى أصله على عبادة إله واحد ، حتى الأديان الوثنية في التمدن القديم بمصر وفينيقية واشور وغيرها فانها فى الأصل توحيدية . وما زال الخيال ينوعها ويغيرها حتى صارت الى عبادة الأصنام العدة وتولدت فيها طقوس تتخللها خرافات لا يقبلها العقل

والأصل في الديانة المسيحية تعاليم معينـة ترجع الى المحبة والتسامح . ولـكن اصحابها اقتبسوا كثيراً من الطقوس الوثنية التى كانت شائعة من قبل وتوسعوا فيها . ولم تأت الأجيال المظلمة حتى تنوسيت أهم الأصول المسيحية واعتور النصرانية طقوس واعتقادات وظواهر ليست من الدين فى شيء . فقام لوثيروس يدعو إلى نبذ الزيادات وطلب الرجوع إلى الانجيل فأنشأ المذهب الانجيلى . ولم يكد هذا المذهب يستقر حتى تطرقت اليه زيادات غشت بعض حقائقه

ولما ظهر الاسلام كان أساسه التوحيد بعبارة بسيطة صريحة . وما لبث بتوالى الأجيال أن دخله كثير مما ليس من الاسلام فى شىء . فقام بعض المصلحين يطلبون تطهيره من هذه الأدران

دليل النهوض فى الامة

فالاصلاح فى كل شىء يقوم بالرجوع إلى الحقيقة وتجريدها مما غشيها من الأوهام بتوالي الأعوام . ويصدق ذلك على الأديان والعادات والمعاملات السياسية وعلى اللغة والانشاء وسائر المخاطبات والمعاملات . فاذا رأيت الأمة انتبهت الى ما يتخلل شؤونها من الأوهام وأخذت فى استئصالها أو تمحيصها والتعويل على الحقيقة والتمسك بها ، فاعلم أنها فى عهد النهوض . وإذا رأيتها متشبثة بالتقاليد بلا تمحيص ولا تعديل ، فاعلم أنها ما تزال فى حاجة إلى الارشاد والسلام

[عن الهلال سنة ٢٠ صفحة ٥٣٠]

لا يصح غير الصحيح

ان بقاء الأصلح من القواعد الطبيعية الداخلة فى ناموس النشوء والارتقاء . وهو عام يجرى على كل شيء من الطبيعيات والمعنويات والادبيات . فكما يقضى على بعض الحيوانات بالانقراض لأنها لا تصلح للبقاء فيما يحيط بها من البيئة ، فهو يقضى أيضاً بذهاب مالا يصلح للهيأة الاجتماعية من الآراء أو القوانين واستبدالها بما يلائمها . ويحكم بانقراض العادات أو الطقوس أو نحوها مما لا يناسب شؤونها . وقس على ذلك سائر أحوال الاجتماع مما لا يحتاج إلى تطويل فى اثباته . وإنما الغرض الآن اثبات ناموس آخر هو فى ظاهره اجتماعى أو أدبى ، لكنه ينطبق على سائر المجارى الطبيعية نعنى قولهم : « لا يصح غير الصحيح »

ان هذه القضية من الظواهر الطبيعية بل هي من أصدق تلك الظواهر . لأن الطبيعة بذاتها لا تعرف غير الصحيح ولا تقبل التملق أو التمويه . ولا تعرف للسبب الواحد إلا نتيجة واحدة . ولا عبرة لديها بالظواهر الخارجية لأنها تعول على الجواهر دون الاعراض . فاذا أدنيت قطعة من الحديد الى مغنطيس اجتذبها اليه لأنها حديد . ولو جعلتها بين عشرات من قطع المعادن المختلفة لاستخرجها من بينها وان تشابهت ظواهرها . ولا يخدعه تلوين تلك القطعة بغير لونها الاصلى أوتشكيلها بغير شكلها . فلو طليتها بلون أبيض أو أحمر أو أسود ، ولو لففتها بورق أو قماش ، فان حقيقتها لا تخفى عليه . واذا أدنيت محلول السليمانى من محلول الملح الاعتيادى تكون راسب أصفر هو كلوريد الزيبق . ولا بد من وقوع ذلك التفاعل ولو اختلفت ظواهر السائلين لوناً وقواماً . وإنما العمدة على الجوهر دون العرض . وقس عليه سائر التفاعلات الطبيعية فى الجماد فانها لا تعرف غير الصحيح ولا يصح عندها سواه

على أن هــذا الناموس يشمل أيضا عالمى النبات والحيوان وان لم يظهر فيهما واضحاً مثل ظهوره فى الجماد ، لتعدد الفواعل الحيوية واختلاط أسبابها ونتائجها . فالكينا تخفض حرارة الحمى سواء تناولها المحموم ســائلة أو جامدة شرباً أو حقناً . وانما يشترط ايصالها الى الدم . ولــكن كثيراً ما يتأخر فعلها أو يضعف أو يضيع لأسباب لا يمكن حصرها لأنها ناتجة عن تفاعل المؤثرات الحيوية فى الابدان.. واعتبر ذلك أيضاً فى سائر الظواهر الفسيولوجية أو الباثولوجية فى الحيوان أو النبات

فاذا انتقلنا الى التفاعل المعنوى أو الادبي فى نظام الاجتماع رأينا هــذا الناموس اقل ظهوراً وابطأ إنتاجاً . لأنه يتوقف على قوى أكثر تشوشاً واختلاطاً ـ نعنى القوى العاقلة وما يعارضها او يلحق بها أو يتوقف عليها من الشهوات العقلية كحب الشهرة والتحاسد او حب الاثرة او النقمة ، او نحوه ممـا يحول دون بيان الحقيقة فيتأخر ظهورها ، ولــكن لا بد من هذا الظهور عاجلا او آجلا

فكم من الآراء العلميــة طمستها الاغراض وحالت دون ظهورها دهراً طويلا ثم ظهرت كالشمس وفاز أصحابها ـ كما فاز القائلون بدوران الارض مثلا بعد ان حكم على قائليه بالـكفر . ولما قال داروين واصحابه بناموس الارتقاء حمل عليهم بعض رجال الدين حملة منكرة واتهموهم بالمروق من الدين . ثم عادوا فاعترفوا بالحقيقة وطبقوا أقوال الـكتب الدينية على هذا الناموس

وهو يصح أيضاً فى الآراء الاصلاحية اذا وقفت فى سبيل ذوى الأغراض من المقلدين الجامدين ، فانها قد تبقى قرونا يغشاها غبار التمويه والمغالطة ثم تظهر ولو بعد حين ـ كان ذلك حظ أكثر المصلحين من الفلاسفة القدماء الى الشارعين والأنبياء . لم يقل أحدهم قولا إلا صبر على ظهوره دهراً . واعتبر ذلك فى رجال الاصلاح المجتهدين ومنهم طائفة فى كل بلد . وأقربهم منا وطناً وعهداً الشيخ محمد عبده . فقد علم تعليما أراد به الاصلاح ، فحال دون ظهوره معارضة المحافظين على القديم ، فناوءوه وتعرضوا له بكل سيئة واتهموه بضعف الدين ـ فعلوا ذلك اما عن اعتقاد مغروس أو لغرض موروث ، ولــكن لا بد من ظهور تعاليمه لأنها اصلاحية . وقل هــذا فى آراء قاسم أمين عن المرأة المسلمة وغيره

وكما ان الآراء الصحيحة قد يغشاها التمويه ولا تظهر الا بعد حين ، فالآراء الفاسدة قد يحييها التمويه حيناً فلا يظهر فسادها الا بعد مرور الأجيال . لــكن لا بد

من ظهوره . انظر الى الخرافات التى خضع لها العقل البشرى دهوراً حتى آن ظهور فسادها بظهور العلم الصحيح فذهبت هباء منثوراً . وأصبح أهل هـذا الزمان يعجبون من أسلافهم كيف انطلت عليهم تلك الشعوذات الكاذبة . بل انظر الى التغرير المقصود فى إظهار بعض الأشخاص بغير مظهرهم بالتمويه التماساً لنفع شخصى . وأقرب الشواهد على ذلك ماكان يقوله بعض المتملقين فى عصر الاستبداد عن عبد الحميد ، وفيهم من الف كتابا فى ذكر فضائل العصر الحميدى الأنور . . ونسب لذلك الطاغية سعياً حميداً فى بث العلوم وانشاء المدارس . فعدد ما أتاه من الاصلاح فى الدولة والأمة . . . كانوا يفعلونه تملقاً يلتمسون به رزقا مغموساً بالدم . وقد يتبادر إلى ذهن القارىء ان حقيقة عبد الحميد لم يخفها ذلك التمويه ، وان الناس كانوا يعرفون حقيقة الرجل الغريب الأطوار . لكن الواقع ان كثيرين كانوا ينخدعون بتلك الأقوال ويعتقدون فضل عبد الحميد. فلما حكم عليه بالخلع بعد حادثة ١٣ ابريل ، تصدى بعض الكتاب لاقامة الحجة وأنكروا على الأحرار عملهم . وتوالت التلغرافات على الآستانة من أنحاء العالم الاسلامي يطلبون الى الدستوريين ألا يلحقوا الأذى بشخص ذلك المخلوع

وما يصح على عبد الحميد يصح على المقدمين من رجاله وأمثالهم ، فقد كان بعض كتاب الصحف يصورونهم أجمل الصور وينسبون اليهم أفخر الفضائل . فلما انقلبت الحكومة ظهرت الحقيقة

وقس عليه سائر ما يقبل المبالغة أو التمويه من الاعمال التجارية أو الصناعية ، فان أصحابها يعلنون عنها ويحسنونها ويبالغون فى إطرائها لكن نجاحها أخيراً لا يكون الا على قدر ما تحويه من الصحة ــ وقد يعلن فلان عن نفسه انه طبيب ماهر تخرج فى اكبر مدارس فرنسا أو اميركا أو انكلترا أوغيرها ، ويعدد مايعرفه من العلوم أو ما تخصص له من الأمراض . والاعلان يلفت الأنظار اليه فيقصده المرضى ، فاذا كان ما قاله صحيحا ثبت وراجت بضاعته وإلا ألقى فى زوايا الاهمال . ويدخل فيه الاعلان عن بعض العقاقير الدوائية الخاصة ببعض الأمراض ، فان أصحابها يجعلون أكثر تعويلهم على الاعلان ونشر الشهادات ونحوها . فاذا لم يكن الدواء مفيداً ذهب الاعلان عبثاً ــ ولا خلاف فى أن الاعلان يفيد صاحبه لكنه لا يخفى الحقيقة وانما يعجل ظهورها . ولذلك فمن العبث أن يكون اعتماد بعض أصحاب المهن أو

التجارات على الاعلان والاطراء

واعتبر ذلك فى الاعلان عن الكتب أو غيرها من ثمار القرائح ، فانها أكثر تعرضاً للغرور من سائر « المعروضات » ، لان الانسان مفتون ببنات أفكاره وكتابنا ما يزالون بعيدين عن النقد الصحيح فى بيان حقيقة ما يعرض عليهم من المؤلفات . وانما يصرفون همهم الى اطراء صاحبه ان كان من أصدقائهم ، أو الى الطعن فيه وفى مؤلفه اذا كان على غير رأيهم أو بعيداً عنهم . ويندر فيهم من يخلص النية فى نقد الكتاب وبيان حقيقته كما يفعل كتاب اوربا

وقد يكون من أسباب التمويه فى وصف ثمار القرائح ثروة المؤلف أو وجاهته فى الهيأة الاجتماعية أو نفوذه فى الدولة ، فينصرف هم الكاتب الى اطرائه تزلفاً أو تهيباً . وبالعكس اذا كان المؤلف متهماً فى دينه أو مخالفاً للمقرظ أو المؤرخ فى المبدأ أو الرأى أو المذهب ، فانه يبخسه حقه أو ينحى عليه بالطعن . وهذه العلة قديمة فى الشرق أصيب بها أكثر المؤرخين عند ذكر معاصريهم من الأدباء والشعراء . فكم من شاعر خمل جنى عليه استقلال فكره وجرأته فى القول فأغضب ولاة الامر أو بعض الوجهاء فغمط المؤرخون المعاصرون فضله ارضاء لأولئك الوجهاء أوتعصباً عليه لمروقه من الدين . ومن هؤلاء طائفة من شعراء العصر العباسى الأول كانوا يتهمون بالزندقة . وبالغ المؤرخون من الجهة الأخرى فى إطراء الشعراء أو الأدباء المقربين من الخلفاء أو الوزراء ـ فكيف فيمن كان شاعراً أو أديباً من الوزراء أو الأمراء أنفسهم ؟ فان المؤرخ المعاصر يكاد لا يجد فى اللغة عبارة تفي بحق تقريظه . وقد يفعل المقرظ ذلك بصدق نية لايتعمد الكذب وانما يؤخذ بهيبة الوجاهة فيرى فضل الشاعر أو الكاتب مجسما . وقد يعجز المؤرخ عن تجريد نفسه من جواذب العصبية أو المنفعة الشخصية فيظهر على قلمه وهو لا يدرى

أرخ أبو منصور الثعالبي شعراء عصره وأدباءه فى يتيمة الدهر ، وفيهم الوزراء والأمراء والوجهاء وغيرهم من سائر الطبقات ، وترى ما قدمناه من تأثير الوجاهة ظاهراً فى كتابه . فلما ترجم المنشئين مثلا خص ابن العميد والصاحب بن عباد باطراء لم يخص به سواهما من المنشئين مع كثرة الذين فاقوهما في تلك الصناعة يومئذ . فأتعب نفسه فى سبك عبارات الاطراء والاعجاب ولم يذكر لهما سيئة . ولا يعقل أن يكونا بلا سيئة . ولعل بعض معاصريهما كتب شيئاً من سيئاتهما لم يجسر على نشره فضاع .

ومما بقي من هذا القبيل ما رواه ياقوت في معجم الأدباء من الطعن في سجع الصاحب فقال: « إنه يدل على الخلاعة ، وإنه لو رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ويضطرب حبل الدولة لما هان عليه التخلي عنها ، وان خطه يدل على الشلل وانه أحمق الطبع »

واعتبر ذلك في سائر العصور الى الآن ولا سيما في الشرق ، فان أهله تعودوا التملق والتزلف والمجاملة لأسباب بيناها في غير هذا المكان ، حتى أصبح طلاب الأدب لا يعولون على ما تقوله الصحف في وصف الكتب . ويندر لأحدهم أن يبعث في اقتناء كتاب لمجرد ما يرى من تقريظه في الصحف ، خلافاً لما يفعله قراء اللغات الافرنجية فانهم يثقون بما يقوله أرباب النقد في الصحف الراقية . وأما الانصاف الحقيق في تقدير الأعمال فانه موكول للزمان وهو الضامن الوحيد لبيان الحقيقة . اذ تتوالى الاجيال ويمضي المعاصرون بما تضمه جوارحهم من تضاغن أو تحاسد ويبقى العمل فينظر اليه أهل الأجيال التالية بعين خالية من الغرض فيحلونه محله من الاجلال أو الاغفال ـ عملا بسنة بقاء الأصلح . وهي مبنية على القاعدة التي صدرنا بها هذه المقالة نعني « لا يصح غير الصحيح »

[عن الهلال سنة ٢٠ صفحة ٤٧٦]

جامعة المنفعة

مرجع سائر الجامعات

ما هي الجامعة

الجامعة هي الاستمساك بمبدأ أو اعتقاد أو غرض يجتمع حوله جماعة من الناس يشتركون فى الأخذ به والدفاع عنه . والاجتماع فطرى فى الانسان لكثرة حاجاته وعجزه عن القيام بها وحده . فاضطر الى الاستعانة على قضائها بالاجتماع مع أبناء جلدته للتعاون وتبادل النفع . فهو يتذرع الى الاجتماع بأسباب تجمعه مع الآخرين أقدمها القرابة أو جامعة النسب ، وتعرف بالعصبية ، ويدانيها فى القدم جامعة اللغة . والتفاهم يقرب القلوب ويوحد الاغراض

فاذا تكاثر الأقرباء وتشعبت القبيلة الى فروع أقام كل منها فى بلد واشترك أبناؤه فى الدفاع عن ذلك البلد وهى جامعة الوطن ، مع بقائهم مشتركين فى جامعة اللغة أو النسب لأنهم من أصل واحد . ويغلب فى أهل القبيلة الواحدة أن يدينوا بدين واحد ، ومهما كثرت فروعها فهى تجتمع بجامعة الدين زيادة على اللغة والنسب . وقد يتفق وجود أمة أخرى فى بلد آخر تتكلم بلسان غير لسانها لكنها تدين بمثل دينها فتجمعها معها جامعة الدين . وقس عليه سائر الجامعات وهي عديدة ـ فأهل البلد الواحد يقسمون الى جماعات يجتمع بعضهم بجامعة المهنة وآخرون بجامعة الجنس أو اللون أو الزواج أو العزوبة ، فيكون المتزوجون حزباً واحداً تجمعهم جامعة الزواج ، وكذلك العزاب والكهول ، مع اشتراك كل فرد من إحدى تلك الجامعات بصفة أخرى مع جامعة أخرى ،فيكون شريكا مع بعض الناس فى جامعة النسب ، ومع غيرهم

بجامعة الدين ، وغيرهم بجامعة اللغة . وهكذا من حيث المهنة والعادة والسن والطول والقصر وغيره . كأن يكون طبيباً فيجتمع مع الاطباء بجامعة المهنة أو محامياً فمع المحامين أو طويلا فمع الطوال أو قصيراً فمع القصار أو أسمر اللون فمع السمر أو أبيض فمع البيض ، وقس عليه

فتتضارب الجامعات وتتقاطع على شكل عجيب ، فأهل القاهرة مثلا تجمعهم مدينة القاهرة ، ولكن ابن هذه المدينة يجتمع مع ابن الاسكندرية على غير المصرى، ويجتمع مع أهل الشرق على أهل الغرب . والمصرى المسلم يجتمع مع المصرى غير المسلم بجامعة الوطن ، ومع السورى والعراقى بجامعة اللغة ، ومع الفارسى والهندى بجامعة الدين . واعتبر هـذا التفرع فى كل بلد ودين ولغة ، فترى الجامعات عديدة يشترك بها الناس بعضهم على بعض أو مع بعض على التقاطع والتضارب . ولو رسمنا تلك العلائق خطوطاً بين الانسان ومن يشترك معهم بجامعة أو غير جامعة لرأينا كلا منها مركزاً تنبعث منه الخطوط انبعاث الأشعة من جسم منير حتى تتقاطع وتشتبك بالخطوط المنبعثة من جسم آخر على شكل مرتبك متقاطع

فالجامعات عديدة لا يمكن حصرها ولا يخلو انسان من اشتراكه فى عشر أو عشرات منها ، لكنه لا ينتبه لهذه الجامعة أو تلك إلا اذا اضطر الى الاجتماع لدفاع أو هجوم ، فاذا خاف أهل عصبية أو قبيلة من عدو يسطو عليهم ، اجتمعوا عليه بجامعة النسب وهم الأهل والاقرباء . فاذا لم ينفعهم ذلك استعانوا بجامعة الوطن أو الدين أو اللغة أو غيرها

جامعة المنفعة أو المصلحة

واذا أمعنت النظر فيما عددناه من الجامعات العديدة ، رأيت مرجعها عند العمل الى جامعة لم تذكر فى جملتها مع انها أساسها كلها نعنى « جامعة المنفعة » أو المصلحة . وهى اشتراك الجماعة في عمل يعود نفعه عليهم . وهى الاصل فى قيام الناس بالاحزاب والعصبيات ، فاذا توسموا لأنفسهم نفعاً فى عمل مع جماعة تذرعوا الى التقرب منهم أو استخدامهم بجامعة تجمعهم بهم . فاذا رأوا بقاءهم على هذا الاجتماع مضراً بمصالحهم أغضوا عن تلك الجامعة وانتحلوا سبباً يجمعهم بجامعة أخرى . فالجامعة الحقيقية انما هى جامعة المنفعة والتاريخ غاص بالشواهد على ذلك

كان العرب قبل الاسلام منقسمين الى قبائل تجمع كلا منها جامعة النسب . العدنانيون فى جانب والقحطانيون فى آخر . ويقسم العدنانيون الى عشرات من القبائل والبطون وكذا القحطانيون . وكل قبيلة أو بطن يجتمع بعصبيته على سائر العرب، ويجتمع مع بطن آخر من قبيلته على البطون الأخرى من القبائل الأخرى كما هو مشهور فى أيام العرب وحروبهم

فلما جاء الاسلام حامت القبائل حوله وجعلوه جامعتهم الكبرى ، وأغضوا عن عصبية النسب لقول النبى : «المسلمون اخوة» . وقال فى خطبة ألقاها يوم فتح مكة : « يامعشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم من تراب » . وقال فى خطبة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، وأكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى »

واقتدى بالنبى خلفاؤه الأولون لاسيا عمر بن الخطاب ، فان جبلة بن الايهم ملك غسان بعد أن اسلم اتفق وهويطوف فيالكعبة ان فزارياً وطىء ازاره فانحل ، فرفع جبلة يده وهشم أنف الفزارى ، فشكاه الى عمر ، فأراد عمر أن يهشم انف جبلة ، فقال : « كيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ؟ » فأجابه عمر : « ان الاسلام جمعك واياه فلست تفضله بشىء الا بالتقى والعافية » فلم يحتمل جبلة ذلك فعمد الى الفرار

فالاسلام جمع بين العرب والعجم كما جمعت النصرانية فى بلاد الشام ومصر بين الرومى والقبطى والنبطى والعربى وغيرهم . على أنهم كثيراً ما كانوا يجنحون الى إحدى هذه الجامعات اذا رأوا فيها منفعة ، فالمسلمون مع اغفالهم الجامعة العربية وتمسكهم بالاسلام كانوا يعودون الى تلك الجامعة لاكتساب بعض القبائل العربية النصرانية فى العراق أو الشام ممن كانوا على ولاء الروم أو الفرس . وكان هؤلاء مع اجتماعهم بجامعة الدين والدولة مع الروم والفرس لما رأوا تغلب العرب انحازوا اليهم بجامعة النسب واللغة . ولو لم يتوسموا بذلك الانحياز خيراً لأنفسهم لتمسكوا بجامعة الدين التى تجمعهم بالروم أو جامعة الوطن التى كانت تجمعهم بالفرس . لكنهم كانوا ناقمين على الفرس لما كانوا يسومونهم اياه من الاضطهاد ، فلما رأوا قوة المسلمين واقبال دولتهم تقربوا اليهم بعصبية النسب ونصروهم ودلوهم على عورات الفرس

وكثيراً ماكان عرب الشام والعراق عوناً للسلمين فى حروبهم يرشدونهم

وينصحونهم ويحملون اليهم أخبار أعدائهم . فلما خرج الوليد بن عقبة غازياً للروم لقيه الروم ، فقاتلوه فجاءه رجل من العرب نصرانى ، وقال له : «انى لست من دينكم ولكننى أنصحكم للنسب ، فالقوم مقاتلوكم الى نصف النهار ، فان رأوكم ضعفاء أفنوكم وان صبرتم هربوا وتركوكم » وقد نفعته هذه النصيحة

ولم يكن عمر يجهل تلك الرابطة فحرض المسلمين على فتح الشام والعراق . ولما رأى ما كان من نصرة عرب العراق لهم عرف فضلهم فلما همّ المسلمون بوضع الجزية على أهل الذمة وفى جملتهم عرب تغلب واياد والنمر وهم نصارى ، أبى هؤلاء الجزية وبلغ عمر ذلك فاستشار أصحابه ، فقال له بعضهم : « انهم عرب يأنفون من الجزية وهم قوم لهم نكاية فلا تعن عدوك عليك » فوافق ذلك ما فى نفسه ، ففرض عليهم الصدقة كما تفرض على المسلمين ، ولكنه شرط عليهم ألا ينصروا أولادهم

فلما استقر الاسلام وانتشر المسلمون فى الارض تفرعت الجامعة الاسلامية باعتبار البلاد فنشأت العصبية الوطنية عندهم ، وأقدم ما ظهر منها في أيام عثمان بين الشام والكوفة ثم حدث الانقسام الوطنى السياسى بعد قتله . ثم مابين الحجاز والشام ومصر فى أيام معاوية . وهكذا حتى أصبح لكل بلد عصبية خاصة مع اختلاط البلد الواحد من أمم شتى . وذهبت عصبية النسب بتوالى الاجيال وظلت الجامعة الوطنية — ناهيك بانقسام الجامعة الدينية الاسلامية الى الشيعة والسنة والى الفرق الاسلامية مما لا يمكن حصره ومرجعه الى جامعة المنفعة

واعتبر ذلك فى أمم أوربا كيف جمعتها الدولة الرومانية وهي فى ابان مجدها ، فلما ذهبت انقسم أهل أوربا الى فرق كل منها مستقلة بنفسها . وما زالوا يتحاربون ويتخاصمون حتى اقتضى قيامهم لمحاربة المسلمين فى الحروب الصليبية ، فتذرعوا الى ذلك بجامعة الدين فاتحدوا بها وحملوا على الشرق بخيلهم ورجلهم . فلما فرغوا وعادوا الى بلادهم وأفاقوا من غفلتهم وأخذوا فى تكوين الدول اشتغلت كل منهم على حدة ، واتخذت لنفسها جامعة تفصلها عن سواها — نعنى جامعة الوطن ، فتألفت أمم فرنسا وانكلترا والمانيا وغيرها ، ولكل منها لغة خاصة ووطن خاص ، وهى مع هذا تتذرع عند الحاجة الى الاجتماع حسب أصولها ، فتجنح ايطاليا واسبانيا وفرنسا الى الجامعة اللاتينية وترجع المانيا والنمسا وانكلترا الى الجرمانية . وهي لا تفعله الا عند الاضطرار التماساً لمصلحة . فيكون الباعث الحقيقى لانتحال تلك الجامعة « المنفعة » وانما يظهرون

باحدى الجامعات الأخرى توسلا الى اجتماع الأيدى

وكثيراً ما يخلق الناس جامعة لاحقيقة لها ويتواطئون على الاجتماع بها لما يتوسمونه من النفع بواسطتها . وأكثر ما يكون ذلك فى الأمور الدينية أو الاعتبارية ، كأن ينتحل بعض الرؤساء أرباب المطامع معبوداً يعظمه ويعبده ويضرب به على وتر الدين فيدعو عصابته الى الاجتماع باسمه والنهوض لقهر أمة أخرى يزعم أنها أهانته فتسعفه وتحارب وتناضل حتى يفنى معظمها . فاذا ظفرت عاد الظفر على ذلك الزعيم بنيل الرئاسة وشرف الفتح

وقد ينتحل بعض أصحاب المطامع أمراً اعتبارياً آخر يعظمه فى عيون أتباعه فيضرب به على وتر الشرف أو عزة النفس ، فيزعم أن اعداءه أهانوا شرف أمته أو حزبه ، ويدعوهم لرد شرفهم بالسيف ، وهو إنما يطلب الكسب لنفسه . كذلك كان يفعل أكثر القواد العظام فى كل العصور فيجمع أحدهم رجاله حول خرقة منصوبة على عصا يسميها الراية ويوهم أتباعه أن الدفاع عنها دفاع عن الوطن أو الدين ، فيستهلكون دون حمايتها حتى يظفروا ، وإنما يكون الظفر له

وقس عليه تعظيم الزعماء بعد موتهم رغبة فى الاجتماع حول اسمهم والعمل بوصاياهم . وكثيراً ما يرفعون قدرهم الى مقام القديسين ويروون عنهم أقوالا لم يقولوها وينسبون اليهم فضائل لم يأتوها . وهم لا يفعلون ذلك الا اذا توسموا من ورائه منفعة لهم . فكم قدس الناس رجالا يستحقون الاغفال لمنفعة توسموها فى تقديسهم وكم أغفلوا رجالا يستحقون التقديس لم يروا فى تقديسهم منفعة !

ماذا نستفيد من ذلك

متى عرفنا أن الباعث الأصلى للتكاتف على القيام بأمر من الأمور إنما هو «جامعة المنفعة» ، وان سائر الجامعات لا يتخذها القائمون بهذا الأمر إلا وسيلة للاجتماع ، لم تعد تغرنا الدعوة باسم الدين أو اللغة أو الوطن لعمل من الأعمال ، وانما ننظر الى الباعث الحقيقى عليها فاذا وجدنا فيه مصلحة حقيقية لنا أو لذوينا تساوى المنفعة التى سيحرزها الداعون الى ذلك الفعل وافقناهم

ونستفيد منه أن جمع الكلمة على مشروع عام لا يتم لنا إلا اذا كان للمجتمعين كافة نفع من وراء نجاحه ، ولا بأس من أن ندعوهم اليه باسم الوطن أو الدين أو

غيرها من الجامعات الكبرى أو الصغرى بعد أن نبين للقائمين به وجه النفع الشخصي لكل منهم أفراداً أو اجمالا . فاذا تبين لهم ذلك أجابونا باسم الجامعة التي ندعوهم بها ووافقونا على تقديسها وكتموا ما يتوقعونه من النفع وهو الباعث الحقيقي على الاجتماع

فمن أراد جمع قوم على انشاء جمعية أو تأليف شركة أو حزب أو المطالبة بحق أو الغضب لظلامة أو غيره من المطالب ، وجب عليه أن ينظر أولا في هل يرجى منه نفع للمشتركين فيه ؟ فاذا تحقق ذلك دعاهم وهو الفائز ، وإلا فليضرب بمشروعه عرض الحائط ، ولايغره ما قد يظهر له في بدء الدعوة من الاقبال ، ولاسيما اذا دعاهم باسم الدين ، فانه لا يلبث أن يراهم ينفضون من حوله فيعود بالفشل

[عن الهلال سنة ١٩ صفحة ٢٨٠]

حب الشهرة

من دعائم العمران

الشهرة فى الحقيقة وهم ، وطلابها انما يطلبون وهماً ، لأنها لا تسد جوعا ولا تدفع مرضاً ولا تقى من برد أو حر . ولكن يندر فى الناس من لا يتطلبها وان تفاوتوا فى أساليب السعى فى طلبها كأنها من جملة حاجات الانسان . على أنه لا يلتمسها فى الغالب الا بعد أن يحصل على الكفاف من حاجاته البدنية ، فاذا أمن الجوع والبرد والحر وصان نفسه من غوائل الحيوانات المفترسة ، طلب حسن الأحدوثة (الشهرة) . ويندر أن يكتفى بما يناله فاذا شبعت نفسه منها طلب شهرة تبقى بعد موته يعبرون عنها بالذكر الجميل . وتعليل ذلك فى اعتقادنا أن الانسان مفطور على حب السيادة وطول البقاء ، وكلاهما من ثمار حب الذات ، لأن من أحب نفسه أحب لها الراحة والرفاه ولا يتم له ذلك بغير السيادة أو الغلبة ، لأنه اذا ساد أو غلب ضمن لنفسه الحصول على لوازم الحياة وأمن الفقر . وأحب أن يطول زمن تلك الراحة وهو البقاء . فالانسان يشترك فى مطالبه الأولى مع سائر الحيوانات فى التماس الطعام والمأوى . ثم يفترق عنها بحسب الظاهر بطلب السيادة والبقاء . والسيادة فى أبسط أحوالها أن يتسلط الانسان على من حوله من الرفاق فيكون له فيهم الكلمة النافذة ، فاذا قال أو فعل أذعنوا له وأطاعوه واذا جاء أو ذهب احترموه وبجلوه . فمن لم يستطع السيادة الحقيقية على من حوله اكتفى بالاحترام الذى يبدونه له . وهم لا يبدونه الا وفى نفوسهم اقرار له بشىء يمتاز به عنهم . فالاحترام ينجم عن الاقرار بسيادة معنوية . ولما كانت السيادة الحقيقية لا تتأتى الا لنفر قليل من الناس ، اكتفى الاكثرون بالسيادة المعنوية أى الاحترام

فاذا نال الانسان احترام أهله وجيرانه طلب احترام أهل بلده ثم أهل البلاد المجاورة وغيرهم الى ما يبلغ اليه امكانه وهى الشهرة . والناس يتفاوتون فى طلبها كتفاوتهم فى مطامعهم وميولهم ومواهبهم ، بين من يكتفى باحترام امرأته وأولاده ، ومن لا يرضى باحترام الناس كافة . فاذا ناله طلب ما وراء ذلك ، وخصوصاً متى تذكر الموت فانه يرى شهرته ذاهبة ضياعاً ، فاذا كان من أهل التقوى فلا يهمه أمر هذه الحياة طالت أو قصرت . وإلا فانه يطلب « البقاء بعد الموت » فيسعى الى ذلك من سبل تختلف باختلاف أطواره ومطامعه ومواهبه . فبعضهم يكتفى ببقاء ذكره بمن يخلفه من البنين ، والبعض الآخر يبنى المدائن والقصور ، وآخرون يقفون أموالهم لعمل الخير بعدهم ، وغيرهم يبنون الكنائس أو الجوامع أو السبل ونحوها . ولمثل هذا الغرض بنيت الاهرام ونحتت المسلات وأقيمت الانصاب فى زمن التمدن القديم . ومنهم من يستبقي ذكره بعمل جليل من فتح أو بنيان أو تأليف كتاب أو نحوه . فالذين يعملون لبقاء ذكرهم انما يطلبون البقاء بعد الموت ، وهذا باطل . والذكر ولو بقى لا فائدة منه لصاحبه . لانه قد لا ينفعه في حياته وهو يرى ويتنفس ويسر ويحزن ، فكيف بعد أن يصير ترابا أو يتحول إلى نبات . . .

فالشهرة وإن عددناها من ملازمات الاحياء ، فانها عند أهل الحقيقة من الاوهام الباطلة للاسباب التى قدمناها . على أننا لو نظرنا فيها من حيث الاجتماع البشرى ، واعتبرنا فائدتها بالنظر الى المدنية ، رأيناها من أقوى دعائم العمران ،ولو ذهبت لاختل نظام الاجتماع وأصبح التمدن فى خطر عظيم . لأن الناس مترابطون فى مصالحهم مشتركون فى أعمالهم لا يستغنى بعضهم عن بعض بين رئيس ومرءوس واستاذ وتلميذ وتاجر وصانع وخادم ومخدوم وحاكم ومحكوم . ولابد لحفظ حقوقهم من وازع قوى يرد القوى عن الضعيف ويردع الظالم عن المظلوم . والوازع العام الحكومة . ولكنها مهما بلغ من تيقظها وعدالتها لا ترد من الحقوق الا نقطة من بحر ، لأنها انما تحكم فيما يتصل بها علمه من الحوادث التى يعرفها الناس ، بل هى لا تطلع الا على جزء صغير من تلك الحوادث . فكيف ما يبقى فى طى الكتمان من المنكرات التى يرتكبها البشر ولا رقيب عليهم . فكم في عالم الغيب من سرقات ومظالم وفظائع ارتكبها بعض الناس ولم يعلم بها أحد سواهم ، وقد يكون مرتكبوها من أهل المناصب الكبرى وذوي المقامات الرفيعة . وكم تحت التراب من أعمال ذهب أصحابها ولا تزال سراً

مكتوما فى عالم الخفاء ولن تزال الى الأبد . والفظائع التى يرتكبها الناس وتبقى مكتومة أكثر كثيراً من التى تنكشف ، وهذه اكثر من التى تبلغ الى مسامع الحكومة

فالحكومة لا تكفى وحدها لانصاف المظلومين وكبح جماح الظالمين ورد القوى عن الضعيف ومنع الناس عن اتيان المنكرات ، فهى الوازع الاصغر الثانوى . وأما الوازع الاكبر الرئيسى فهو « الدين » لانه يقاص المجرمين على ما يرتكبونه فى الخفاء وإن لم تقع عليهم عيون بشرية ، وعقابه أشد كثيراً من عقاب الحكومة وأطول زمناً ، بل هو يغرس فى نفس الانسان ما يردعه عن المعاصي أو يوبخه على ارتكابها ، وهو الضمير . فلولا شيوع التدين وخصوصاً فى الطبقات السفلى من الناس لكانت الحقوق فوضى ولأكل القوى الضعيف ، مما لا يتصوره العقل ولم يتفق فى عصر من العصور ، إذ ما من أمة أو قبيلة مهما بلغ من توحشها الا ولها ما تدين به ويردع قويها عن ضعيفها . والدين أقدم وازع فى الناس لانه وجد قبل الحكومة أو هما وجدا معاً مما لا محل للبحث فيه الآن

فالدين اذا كان عاما فى طبقات الناس ومتمكناً فى نفوسهم أغناهم عن الحكومة وكان خير ضامن لحقوقهم وأحسن رادع للقوى عن الضعيف . ولكن البشر يتفاوتون فى مواهبهم ومعارفهم ومعتقداتهم وفيهم المؤمن والمعطل والجاحد . وقد زادت الشكوك فى عهد هذا التمدن وخصوصاً في الدين لا يستوعبون العلم بل يتمسكون بأطرافه ولا يفهمون حقيقته . ولكن قد يمر على بعض البلاد عصر يجاهر أهلها فيه بالكفر وإنكار الخالق، ومع ذلك فالحقوق تظل مصونة ولا يظلم الناس بعضهم بعضاً، فما الذى يردعهم عن ارتكاب الجرائم السرية التى يخافون وصولها الى الحكومة ؟ قد يكون الجواب : انما يردعهم عن ذلك آدابهم أو فضائلهم أو شرفهم . ولكن هذه الألفاظ لا معنى لها إن لم يرد بها حسن الاحدوثة أو المحافظة على الشهرة . فالمعطلون يردعهم عن ارتكاب المنكرات السرية خوف اشتهارها فينثلم صيتهم وتتشوه شهرتهم فيقل احترام الناس لهم ، وبعبارة أخرى يتقلص ظل سيادتهم المعنوية . فكم من بطل خاض غمار الحرب فلم يقلقه إطلاق القنابل ولا خاف مرهفات السيوف ، فلما خشى أن ينثلم صيته من انكشاف منكر ارتكبه سراً أعظم الأمر ولم يجد له مخرجا من الشقاء الا بالانتحار . وكم من سيد قادر لا يمنعه من ارتكاب المحرمات وهضم حقوق الناس دين ولكن يمنعه خوف الفضيحة وذهاب الشهرة

على أن حب الشهرة لا يقصر على منع المظالم والمنكرات بل كثيراً ما يكون حاثاً على الفضائل حتى في المتدينين . فان أكثر المحسنين وأهل البر يلتمسون مع الأجر في الآخرة حسن الاحدوثة في الدنيا . ناهيك بالذين يحسنون التماساً للشهرة فقط وقلما يهمهم أمر الأجر والثواب وهم كثيرون . ولو دققت النظر وأعملت الفكرة لرأيت الجانب الأعظم من أهل الاحسان انما يحسنون فى سبيل الصيت الحسن ، وخصوصاً فى هذا العصر ، فان الناس لايعملون حسنة الا وهم ينظرون من ورائها إما الى نفع مادى أو الى « نفع أدبى » وهو الشهرة . حتى الحكام أنفسهم فانهم إنما ينصفون الناس عملا بالواجب ، ومغزى هذا الواجب أنهم اذا لم يعملوا بالحق أضروا بشهرتهم . فالأسباب الحاثة على الفضيلة (غير الدين) كثيرة ، ولكنك اذا تدبرتها وحللتها رأيتها ترجع الى حب الشهرة والتماس حسن الأحدوثة فى أثناء الحياة أو بعد الممات . وقد يفعل بعض الناس الخير لأنه خير بما تمكن فى نفوسهم من حب الفضيلة بالتربية الحسنة أو العادة وهم قليلون

فحب الشهرة الذي يعده الدين من قبيل المجد الباطل ، ويعتبره العلم من الأوهام الفارغة ، ويعده أهل الحقيقة من قبيل العبث ، انما هو من أكبر دعائم الفضيلة ومن أقوى لوازم العمران ، فالرجل القوى اذا لم يكن متديناً ولا طلابا للشهرة فانه بعيد عن الفضيلة مضر فى جسم العمران

[عن الهلال سنة ١٣ صفحة ٨٧]

وتر الدين حساس

يستولى به الخاصة على العامة

للانسان جوانب كثيرة يحرص على صيانتها ويغضب لها كالدين والعرض والنسب ونحوها . لكن غضبه لدينه أوسع مجالا وأشد تأثيراً لانه يشترك فيه الألوف من دين واحد على الألوف من دين آخر . والتدين طبيعي فى البشر لأنك لا تجد أمة تخلو من دين على تفاوت واختلاف فى ماهيته وطريقة التدين به . واذا طفت فى المدائن والقرى قد ترى بينها مدناً بلا أسوار وبلاداً بلا أحكام ، وأسواقا بلا مال أو نقود ، وقد لا تجد هناك مدارس ولا مسارح. لكنك لا تجد بلداً بلا معبد . وقد ترى شعوبا بلا سياسة ولا شرائع ولا مدنية ولا صناعة ، لكنك لا تجد شعباً ولا قبيلة بلا دين كأنه من الغرائز الوجدانية . فلا عجب اذا كان عرقه حساساً . وقد اتخذه الناس وسيلة للاجتماع من أقدم أزمنة التاريخ

والانسان اجتماعى من فطرته ، أى انه ميال الى تبادل المنفعة بالاعانة والاستعانة ، ولعل السبب فيه كثرة حاجاته وعجزه عن الاستقلال فى قضائها ، فينقاد الى انتحال أسباب الاجتماع وهى كثيرة مثل أسباب ضعفه . وأقدم وسائل الاجتماع القرابة وهى عصبية النسب ، ثم الوطن والدين واللغة ، ثم العادات والأخلاق والمهن والحرف حتى الجنس واللون والزواج والعزوبة والشباب والكهولة والطول والقصر مما لا يمكن حصره . وقد يشترك الرجل بجامعة النسب مع واحد وبجامعة الوطن مع ثان وبجامعة الدين مع آخر

فأسباب الاجتماع عديدة وميسورة لكل انسان ، وإنما يجنح الى أحدها اذا مسته

الحاجة تبعاً لما يتوسمه من مصلحته بالاجتماع . فاذا خاف أهل عصبية أو قبيلة من عدو يسطو عليهم اجتمعوا عليه بجامعة النسب وهم الاهل والأقرباء . فاذا لم ينفعهم ذلك استعانوا بجامعة الوطن فاذا أعجزهم التغلب بها تمسكوا بجامعة الدين أو اللغة ويختلف ذلك باختلاف العصور وتباين الأحوال

واذا تأملت هذه العصبيات رأيت الدين أوسعها كلها لأنه يجمع الاسود والابيض والقريب والبعيد ، لا يشترط فيه التسلسل من أب واحد كجامعة النسب ، ولا الاقامة فى بلد واحد كجامعة الوطن، ولا التكلم بلسان واحد كجامعة اللغة ، وانما يكفى فيه الايمان بمعبود واحد . وجامعة الدين أوثق رابطة بين أصحابها من سائر الجامعات لتشابههم فى الطبائع والمناقب بنشوئهم على آداب واحدة وتمرسهم بطقوس واحدة كأنك صببتهم فى قالب واحد . فيتشابه فيها الانكليزى والزنجى والعربى والهندى والفقير والغني لأن الدين لا وطن له ، ولكنك لا تجد وطناً لا دين له

وقد يجتمع الناس للدفاع عن وطنهم كما يجتمعون للدفاع عن دينهم ، لكنهم يدافعون عن الوطن مدفوعين بعامل المصلحة وارشاد العقل ، لأنهم بمحافظتهم على وطنهم يحفظون أموالهم وأهلهم وسائر مرافق الحياة الدنيا فيجتمعون لحمايته . أما الدين فانهم يدافعون عنه لا بحكم العقل بل بدافع الشعور ، فيغضبون وينقمون وينهضون . واذا لم يكن فى قيامهم نفع لهم فى هذه الدنيا فنى الآخرة ما هو خير وأبقى ، وهى تعزية الفقراء ورجاء الضعفاء فى الأكثر ، ولذلك كان وتر الدين أشد حساسة فى العامة منه فى الخاصة لاشتغال هؤلاء بملاذ الدنيا ومطامعها

ويعلم الخاصة تعلق العامة بالدين فيستفيدون من ذلك الوتر الحساس فيهم لنيل مآربهم ، فيستنصرونهم به على أعدائهم ويستخدمونهم باسمه فى مصالحهم ومطامعهم . فهم يجمعونهم به للقتال ويسمون القتال فى سبيل الدين «الحرب المقدسة» . والحروب المقدسة قديمة العهد جداً والتوراة مملوءة بأخبار تلك الحروب بين اليهود وغيرهم وبين الأمم على اختلاف مواطنها وأديانها . فان أسباب الخصام كلها دينية يقوم فيها الشعب لنصرة الهه أو ينتقم لاهانة لحقت به . فهل كان رؤساؤهم يقومون دائماً لهذه الغاية أم كثيراً ما كانوا يطمعون من وراء ذلك بالتغلب والسيادة ؟ مسألة فيها نظر

واعتبر ذلك فى الحروب المقدسة عند الوثنيين فانها كثيرة وفى تاريخ اليونان عدة

معـارك انتشبت بين قبائلهم أو مدائنهم لرد كرامة الله أو الدفاع عن حجاجه أو لاسترجاع تمال مقدس سرق من الهياكل . آخرها وأشهرها ان الفوقيين (من اليونان) تعدوا على أرض هيكل دلفى فى زمن فيليب المكدونى والد الاسكندر فزرعوا بعضها فأدبهم فيليب فهجموا على الهيكل ونهبوه فحاربهم وأخلى الديار منهم سنة ٣٤٦ ق . م

وقس على ذلك الحروب النصرانية وأولها حرب قسطنطين الكبير حامى حمى النصرانية ـ حتى هذا البطل يرتاب المؤرخون فى صدق نيته فى تنصره ، ويقول بعضهم إنه أظهر النصرانية ليكسب نصرة المسيحيين على أعدائه فناداهم باسم الدين فنصروه

ولو أن بطرس الناسك دعا أهل اوربا لمحاربة الشرق باسم السياسة لما لبوا دعوته ، ولكنه ضرب على وتر الدين فدعاهم لانقاذ قبر المسيح من أيدى المسلمين . فغادروا بلادهم وحملوا على الشرق بخيلهم ورجلهم ، وتشكلت منهم فرق من الجند باسم الدين كالفرسان الهيكليين ونحوهم ، وقس على ذلك حروب المسلمين وسائر الأمم مما نستغنى عن ذكره بشهرته

والملوك في كل زمان يغتنمون حساسة وتر الدين فى العامة ويستخدمونهم فى أغراضهم بواسطة رجال الدين . ولذلك كان الخاصة فى الأعصر القديمة طائفتين : الحكام والكهان تتعاونان على استخدام العامة واستعبادهم باسم الدين . كذلك كان الناس فى عهد الفراعنة بمصر والفينيقيين فى الشام والكلدانيين فى بابل ، وفى سائر الدول الوثنية القديمة فى الشرق والغرب . وكانت نحو ذلك فى عهد النصرانية ، فلم يكن الملوك يستغنون عن الكنيسة ليستقيم سلطانهم على العامة

كذلك كان المسلمون فى زمن الخلفاء اذ كان الفقهاء واسطة السيادة الدينية بين الخليفة والعامة ، مثل توسط الأمراء والقواد فى تأييد السياسة الدنيوية . وقد يغنى الفقهاء عن الواسطتين جميعاً لان عامة المسلمين ينقادون الى فقهائهم ، ويستسلمون اليهم كما ينقاد عامة النصارى الى كهنتهم . فالخلفاء العباسيون كانوا يقربون الفقهاء للاستعانة بهم على إخضاع العامة وامتلاك قلوبهم ، وكذلك كان يفعل السلاطين والأمراء لهذا السبب أو لسبب آخر . والنفع متبادل بين الفئتين لان الفقهاء كانوا يكتسبون بتقربهم من الخلفاء مالا وجاهاً ، ولكن ما يكتسبه الخلفاء منهم أعظم وأبقى . فرسخ احترام الخلفاء فى قلوب العامة وتمسكوا بهم وعظموهم باسم الدين

وكان الخلفاء يذعنون للعامة باسم الدين أيضاً . حتى كانوا يضطرون كثيراً الى مسايرة بعض الناس فى بعض اعتقاداتهم الدينية ، ولو كان هذا الاعتقاد مخالفاً لما فى نفوسهم أو مناقضاً للواقع . كما فعل الخليفة المهدى اذ جاءه رجل بنعل زعم انها نعل النبي فقبلها المهدى منه وأجازه عليها مع اعتقاده كذبه ، وإنما خاف إذا كذبه أن يحمل العامة قوله على الفتور فى الدين

ولم يكن للخلفاء بد من إظهار التقوى والقيام بالفروض الدينية لئلا يفسد عليهم العامة ويحتقروا سلطانهم ولو كان الخليفة لا يعتقد ذلك . ذكروا ان الوليد بن يزيد الأموى مع اشتهاره بالخلاعة والتهتك كان اذا حضرت الصلاة يطرح ما عليه من الثياب المصبغة والمطيبة ، ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ويؤتى بثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة فيصلى فيها أحسن صلاة بأحسن قراءة وأحسن سكون وركوع وسجود فاذا فرغ عاد الى تلك الثياب

والعامة فى كل زمان أتباع كل ناعق ، فمن استطاع استهواءهم بالدين تبعوه ونصروه ، وقد يفعل ذلك دعاتهم عن تدين صحيح . وقد يتظاهرون بالدين لأغراضهم كما يفعل دهاة السياسة فى كل دولة . وكانوا يسترضون العامة أيضا بالطعام ينصبون لهم الموائد فى الطرق ، فكان الحجاج يضع كل يوم من رمضان الف خوان وفى سائر الأيام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وارزة بسكر . وكان يدور هو بنفسه على الموائد يتفقدها يحملونه اليها فى محفة ويتنقلون به من خوان الى خوان ، فاذا رأى ارزة ليس عليها سكر أمر الخباز أن يجيء بسكرها ، فاذا أبطأ حتى اكلت الارزة بلا سكر أمر به فضرب ٢٠٠ سوط ، وكذلك كان يفعل عمال الحجاج فى سائر المدن ، فكان بعضهم ينصب الموائد مرتين فى اليوم للغداء والعشاء . وكان يوسف بن عمر عامل هشام بن عبد الملك ينصب خمسمائة خوان ، وكان يزيد بن هبيرة يضع الف خوان يطعم الناس . ولكن الاكثر فى دهاة السياسة أن يستهووا العامة بالدين

على أن حساسة ذلك العرق كثيراً ما تستخدم للخير كما تستخدم للشر . فان ما يصنع من الاحسان فى العالم يصنع معظمه باسم الدين التماساً للثواب . ولا سيما فى الأعصر الماضية ، فان الاوقاف الخيرية فى كل أمة لم تكن لولا الدين ـ هذه الجوامع

والكنائس والتكايا والأديرة والمدارس والمستشفيات ، كلها من ثمار الشعور الديني
لحساسة وتر الدين

وبالجملة فان الانسان ولا سيما العامة يجيبون داعي الدين قبل كل داع للاسباب التي قدمناها . وتتوقف نتائج تلك الدعوة من الخير أو الشر على غرض الداعي اليها ، فاذا دعاهم الى حرب أو ثورة أو عداء أو نقمة أو نحوها عادت حساسة ذلك الوتر بالضرر ، واذا دعوا الى مبرة أو احسان كانت الدعوة نافعة . أكثر الله الدعاة الى الخير

[عن الهلال سنة ١٩ صفحة ٢٤١]

بالضغط والمقاومة

تظهر القوى الكامنة

من أشهر نواميس الطبيعيات ان القوى الطبيعية ، وهى الجاذبية والحرارة والنور والكهربائية والمغنطيسية ، تنوعات قوة واحدة كامنة فى المادة . ومن أبسط طرق إظهارها الفرك أو الضغط أو الحك ، وبعبارة أخرى « المقاومة » . فاذا نظرت الى قطعة من الحديد فى حالها الطبيعية رأيتها باردة لا نور فيها ولا حرارة ولا كهربائية حتى يخيل لك أنها مجردة منها كلها ، لكنك اذا طرقتها بثقل أو حككتها بمبرد ، لاتلبث أن تراها قد حميت وتزداد حرارتها بازدياد قوة الضغط أو الفرك . وكلما زدتها ضغطاً زادت حرارة حتى تحمى وقد تبيض فتنير . وأما الاستنارة بالضغط فتظهر واضحة فى قدح الزناد ، وذلك بأن تضرب فولاذاً بصوان فيخرج من بينهما شرارة نور تضىء . وقد كان الناس قبل اختراع عيدان الكبريت يشعلون نيرانهم بالزناد أو بحك قطع من الخشب بعضها ببعض حكا شديداً . ولا فرق بين الاشعال بالزناد أو بحك الخشب وبين الاشعال بعيدان الكبريت الا من حيث المقدار ، وأما الكيفية فواحدة . لأننا إنما نشعل عود الكبريت بالفرك ولكن فى رأسه قليلا من الفصفور وهو سريع الاشتعال يكفى لاشعاله حرارة قليلة تتولد بفرك قليل

وأما ظهور الجاذبية بالفرك فاكثر ما يتضح فى فرك قطع الكهرباء أو الشمع الأحمر أو الزجاج ، فانك اذا حككت قطعة من هذه المواد بنسيج صوفى حميت ، واذا أدنيت منها هنة صغيرة من القش أو نحوه جذبتها ، واذا زدت الفرك تولدت الكهربائية وهو أمر مشهور فان جانباً كبيراً من الآلات الكهربائية تولد تلك القوة بالفرك وحده

ثبت مما تقدم أن القوى الطبيعية تكون كامنة فى المادة فيظهرها الضغط أو المقاومة فتستخدمها فى قضاء حاجاتنا ، ولولاه لظلت تلك القوى مختفية لا تنفعنا شيئاً

وهذا شأننا أيضاً فى المقاومة الادبية ، فان الانسان قد يكون مفطوراً على الذكاء وحدة الذهن والهمة والاقدام ، فاذا لم يلاق مقاومة وضغطاً ظلت هذه القوى كامنة فيه فتخاله بليداً خاملا حتى تعترضه عقبات تقف فى سبيله فيحتك بها فتبدو مواهبه فينبغ ويأتى بأعمال عجيبة . ولقد ترى أشد الناس تأثيراً فى ترقية شئون المجتمع الانساني اكثرهم تعرضاً للضغط والمقاومة . ولنا من تراجم مشاهير الناس وتواريخ الأمم والجماعات أقرب شاهد . ويتضح ذلك بالأكثر فى المذاهب الدينية ، فان الاضطهاد الذى قاساه زعماء الأديان ونصراؤها قد كان اكبر منشط لهم وأقوى دافع على المواظبة والسعى فى نشر مبادئهم . على حين أنهم لو تركوا وشأنهم ما نالوا معشار ما نالوه من الفوز . يكفيك ما تعلمه عن الاضطهاد الذى قاساه رسل المسيح فى أثناء تبشيرهم فقد لاقوا أشد أنواع العذاب ومات معظمهم قتلا

ومن هذا القبيل استقلال الأمم ، فان الضغط الشديد كثيراً ماكان داعياً الى الاستقلال . فالاميركان لم ينهضوا للاستقلال من نير الانكليز الا فراراً مما كانوا يقاسونه من الضغط والحيف ، حتى اذا أنفوا من تحمله هبوا وثارت فيهم القوى الكامنة وحاربوا الانجليز وخرجوا من حوزتهم . وقس عليه أمثاله

وكم من رجال اشتهروا بالسياسة والادارة وملكوا رقاب الجماعات قوة واقتداراً وقد كانوا خاملين متقاعدين ، حتى دفعهم دافع المقاومة وهاجهم عامل الضغط فظهرت قواهم فارتقوا بها الى مراتب السياسة أو الادارة أو الحكومة ، فأنشئوا الاحزاب وأسسوا الممالك . لا نظن المغفور له محمد على باشا لما جاء مصر فى جملة رجال الحملة العثمانية التى أنفذها الباب العالى لاخراج الفرنسيين ، أنه خطر بباله انشاء دولة يحيي بها أموات هذه الديار يتوالى أعقابه الحكم عليها أجيالا . وعندنا أنه لما ارتقى في مراتب العسكرية الى رتبة سرششمه وصار قائداً لأربعة آلاف البانى ، ظن نفسه قد بلغ اوجاً رفيعاً . ولو ظلت الأحوال على ما كانت عليه ولم يلاق مقاومة لظل فى تلك الرتبة أو ربما ارتقى الى رتبة أرفع منها قليلا . ولكن المقادير هيأت له أسباباً أظهرت قواه حتى نال ما ناله . وأول ما حرضه على السعى فى التماس السيادة ضغط أصابه من والى مصر إذ ذاك « خسرو باشا » . وذلك أن هذا الوالى وهو أول من ولى مصر بعد

خروج الفرنسيين منها طرد المماليك فلجأوا الى الصعيد ، وكانت لديه أوامر سرية باعدامهم . فجرد عليهم حملة من جنده وأمر محمد على أن يسير فى رجاله الالبانيين لنجدة تلك الحملة . فأبطأ محمد على فى الذهاب فعادت الحملة مغلوبة قبل وصوله . فشكاه قائدها الى خسرو ونسب انكسار حملته الى إبطاء محمد على ، وكان فى نفس خسرو حقد على محمد على فعزم على اعدامه غيلة وبعث اليه أن يوافيه الى القلعة فى منتصف الليل للنظر فى بعض الشئون ، فأدرك محمد على مراده فهاج غضبه وتحركت فيه حاسة الانتقام ، ولم ير وسيلة لنيل مرامه الا الالتجاء الى المماليك ، فانحاز اليهم وجرت المخابرات بينه وبينهم سراً وعول فى سره على خلع خسرو وطمع من ثم فى الولاية . وكان المماليك أعواناً له حتى تمكن من خلع خسرو ومن تولى بعده ونال مرامه على ما هو مشهور فى تاريخ حياته

ومما يؤيد قولنا من هذا القبيل أيضاً ترجمة لوثيروس زعيم طائفة الانجيليين ، فان نهضة هذا الرجل فى أوائل القرن السادس عشر كانت من أكبر دواعى الاصلاح الحديث فى أوربا . ولولا مقاومة البابا ليون العاشر له بالحرمان ونحوه من القصاصات العنيفة لم ينل بعد أجيال عدة ما ناله فى سنوات قليلة ، وكأن تلك المقاومة كانت احتكاكا بين الكاثوليك والبروتستانت ، فانهضت همم الطائفتين فقام رجال الكاثوليك للم شعث طائفتهم ، وأنشأوا الجمعيات التى كانت سبباً كبيراً فى تأييد الكنيسة الكاثوليكية وفى مقدمتها جمعية الآباء اليسوعيين

وهناك دليل أقرب الينا من كل ذلك زماناً ومكاناً وهو قيام محمد احمد السوداني بالدعوة المهدية . ومن يطالع تاريخ هذا الرجل يتحقق يقيناً أنه لولا المقاومة والاضطهاد لم يبلغ عشر معشار ما بلغ اليه من الشهرة وسعة السلطان فى حياته . أى لو تركته الحكومة المصرية وشأنه ، ما طمع بفتح السودان والتسلط عليه ، ولاطمحت أنظاره الى مصر والشام والعراق ، بل نظنه كان يقنع بأن يكون شيخاً فى طريقته كالسنوسى فى بلاد المغرب والشيخ المرغنى فى السودان أو نحو ذلك

على أننا لو دققنا النظر فى تاريخ حياة هذا الرجل من أول ظهوره لرأيناه انما كان غرضه فى بادىء أمره التعبد والزهد ، ولم يخطر بباله قط أن يدعى المهدية ، وانما ساقه اليها الضغط الشديد الذى لاقاه من شيخه محمد الشريف . وذلك أن محمد احمد المتمهدى شب راغباً فى العبادة والزهد ، فدرس على عدة من مشايخ الطرق ، وأخيراً

انتظم فى حلقة الشيخ محمد الشريف شيخ الطريقة السلمانية وبالغ فى العبادة والورع وكان رقيق الجانب حسن المجالسة فأحبه رفاقه . ولما أخذ العهد على ما هو جار فى تلك الطريقة انفرد بحلقة لنفسه هي فرع من حلقة الشيخ محمد الشريف وأقام فى جزيرة أبا وراء الخرطوم . فاتفق أن بعض مريديه احتفل بختان أولاده ، فحضر الاجتماع جم غفير ودار الرقص والغناء على جارى العادة عندهم لزعمهم أن الله يغفر لهم بذلك ما ارتكبوه من الآثام . فاعترضهم محمد احمد ونهاهم عنه فقالوا إنه مأذون به من شيخ الطريقة نفسه . فقال ان ما لا تجيزه الشريعة لا يقدر أن يجيزه شيخ الطريقة . فبلغ قوله هذا إلى مسامع الشيخ محمد الشريف فبعث اليه فجاءه خاضعاً ذليلا والتمس عفوه على مشهد من الشيوخ والفقهاء ، فلم يعف عنه بل وبخه وبالغ فى تعنيفه ومحا اسمه من سجل الطريقة . فخرج أسيفاً ثم عاد ثانية وقد بالغ في الخضوع فجعل الرماد على رأسه والشعبة فى رقبته (وهي عمود ذو شعبتين يوضع فى العنق علامة التذلل) ودخل على محمد الشريف وهو فى تلك الحال فلم يزدد هذا إلا غضباً وقسوة حتى طرده واهانه وعيره بأصله الدنقلاوى . فخرج محمد احمد من حضرته وقد خنقته دموع الغيظ مع العجز . فكأن ذلك الضغط الشديد نبه ما كان كامناً فيه من الدهاء والذكاء فأخذ يسعى فى طريقة ينتقم بها من شيخه ، فانحاز الى شيخ آخر بينه وبين الشيخ الشريف مناظرة فقبله . وأخذ محمد احمد فى جمع الاحزاب حتى خافه الشيخ الشريف فبعث يسترضيه ووعده بالصفح ، فشعر محمد احمد بلذة الظفر فازداد انفة وكبراً وأجابه ساخراً : «اني لا أريد أن تتنازل لدنقلاوى مثلى» ولم يقبل دعوته . فشاع ذلك الحديث فى السودان وكان أول شهرة هذا الرجل . حتى كان ما كان من دعوته وقد اتضح أنه لولا ضغط الشيخ محمد الشريف عليه لما تنبه للسعى وجمع الاحزاب

وقس على ذلك كثيراً من الحوادث التى نراها كل يوم وقد نعانيها بانفسنا أو نعاين وقوعها فى بعض أصدقائنا أو جيراننا مما لا يخفى على أحد

وهناك ملاحظة لا بد لنا من ابدائها تتمة للموضوع ، هي أن بعض المواد لا تحتمل الضغط ولا المقاومة ولا الفرك كالزجاج مثلا ، فانك اذا ضغطته انكسر قبل أن تظهر حرارته والخزف اذا حككته أو فركته تفتت ، وهكذا الناس فان منهم من اذا ضغطت عليه أو قاومته ذل وضعف ، وهم على تفاوت فى احتمال المقاومة وهي العوارض

التى تطرأ على الانسان والعقبات التى تقف فى سبيله ، فاذا أصابت رجلا فيه قوة كامنة كانت سبباً فى اظهارها ، فيقوى على تحمل الشاق وينشط للعمل فينبغ ، واذا أصابت رجلا ضعيفاً زادته ضعفاً حتى يموت . فكم من رجال شرعوا فى مشروعات هامة أو تسلموا اعمالا كبيرة ، فلما اعترضتهم الصعوبات ذلوا وذهبت مساعيهم أدراج الرياح ! هذا التعايشى وريث تحت المهدية السودانية فانه كان ضعيف السياسة سيء التدبير فلم يحسن العمل ، فلما قاومته الحكومة المصرية لم يتحمل الا ضربة ذهبت بسلطانه وقوضت أركان حكومته

فالمقاومة محك الرجال تزيد القوى قوة والضعيف ضعفاً كالفرك الذى يحمى الحديد ويفتت الخزف ولله فى خلقه حكمة لا تدركها العقول

[عن الهلال سنة ٧ صفحة ١٧١]

العوامل الخفية

في الهيئة الاجتماعية

لا يخفى على أحد أن فى الهيئة الاجتماعية عوامل تؤثر فى ارتقائها وانحطاطها تأثيراً يختلف باختلاف هــذه العوامل . فاذا ذلت الأمة وســاءت حالها وفسدت أعمالها وكسدت تجارتها ، حكمنا أول وهلة أن السبب فى ذلك كله فساد حكومتها أو جهل رعيتها أو قحط أرضها أو غيره من العوامل التى تؤثر فى ثروة البلاد وترقية شئونها ، واذا بحثنا عن علاج لهذه الحال ، لا نرى خيراً من اصلاح الحكومة ونشر العلوم والمعارف وتهذيب الشعب واصــلاح الزراعة والتجارة ونحوه من أسباب العمران المشهورة مما لا يختلف فيه اثنان

ولــكن هذه العوامل ليست وحدها العاملة فى ترقية الأمة أو انحطاطها ، بل قد يكون لها التأثير الأضعف أو تكون هى ناتجة عن أسباب أخرى خفية قلَّ من ينتبه اليها . نعم ان فساد الحــكومة وظلم الحكام سببان كافيان لاذلال الشعب وخموله وفساد أموره ، ولاريب أن الجهل من أعظم عوامل الخراب ، والأمة الجاهلة تعيش فى ظلمات الدمار ، ولا تنكر تأثير العلم فى ترقية شئون الأمم ، ويقال هذا فى الاسباب الأخرى الظاهرة

على أننا لا نبحث فى هذه العوامل الآن وكتابنا قد أفاضوا في درسها ونقدها ، وليس فينا من يجهل تأثيرها فى العمران . ولــكننا نبحث فى أسبابها وعللها الأصلية . فقد قلنا إن فساد الحكومة يفقر البلاد ، ولــكن ما هى أسباب ذلك الفساد ؟ . وتقدم أن جهل الرعية يذلها ، ولــكن ما هو سبب الجهل ؟. والتقاعد عن الزراعة والتجارة يجعل البلاد قفراً ، ولــكن ما هو سبب ذلك التقاعد ؟ . ان لهذا كله أسباباً هى العلل

الاصلية للخراب . ويقال مثـله فى أسباب الارتقاء فان لهـا عللا أصلية سنبحث فيها تفصيلا وقد سميناها « العوامل الخفية » وعليها مـدار كلامنا وهى كثيرة نذكر أهمها منها :

(١) «المرأة» : ان المرأة من أقوى العوامل الخفية تأثيراً فى الهيئة الاجتماعية ، ولا يغرنك منها حياؤها وانزواؤها ، ولا تحتقر رطوبة اناملها ورقة عواطفها ، ولا تعجب وأنت شاب بقوة جنانك وكثرة سعيك ، ولا تفتخر باستقبالك القنابل فى ساحة القتال وجوب البلاد وخوض البحار ، واذلالك القوى الطبيعية ، واستخدامك البخار والكهرباء . ولا تفاخر المرأة بقوة سلطانك ، ولا تهول عليها بصولجانك ، ولا ترهبها بعملك وصناعتك واختراعاتك واكتشافاتك . واعلم أنك مهما أدركت من العز والسؤدد،واحرزت من العلم والصناعة،ما أنت الا ثمرة غرس بنانها وصنيعة قلبها ولسانها . ولولا قلبها الضعيف ما قوى قلبك ، ولولا رطوبة بنانها ما اشتد بنانك . فالمرأةوهى منزوية فى مطبخها تؤثر فى الهيئة الاجتماعية تأثيراً لا تستطيعه الجنود المجندة ولا يقوى عليه أعاظم رجال العلم والسياسة

ولا يخفى أن المرأة هى الأم وهى الزوجـة وهى الأخت . فالأم والزوجة والاخت قابضات على زمام العمران ، فاما أن يرفعنه الى أوج السعادة ، واما أن يهبطن به الى حضيض الذل . يفعلن ذلك خفية واعتباطاً لا يشعر بهن احد . ولا غرابة فالرجل مهما أوتى من المواهب او بلغ من المناصب لا يخلو أن يكون زوجاً او ابناً او اخاً وقد يكون كل هذا معاً . فهو ربيب امرأة وعشير امرأة ورفيق امرأة. وقد أطاعها فى طفولته وحداثته مكرها ، وانقاد اليها فى شبابه محباً ، واكرمها فى كهولته شاكراً حامداً ، وقضى تسعة أعشار حياته بين يديها وقلبه طوع ما بين شفتيها . وقد ربى كما تريد وشب كما تشاء ، وهو يطيعها بلا أمر ويصدع باشارتها بلا قانون ويجرى على هواها وهو لايدرى . واذا رأيته يكد فى طلب العلا أو يجد فى التماس العلم أو الفضيلة ، فاعلم أنه انما يلتمس جهاراً ما أوحت به اليه سراً ، ويسعى قصداً وعمداً فى طلب ما غرسته فى نفسه اعتباطاً . فالقاضي يحكم فى الجلسات العلنية وفى خلال حكمه اظلال انطبعت على مخيلته من أنفاس والدته أو زوجته . والتاجر يبيعك السلعة وفى خلال حديثه فى مساومته رقة أو خشونة أو لين أو فظاظة ممـا اكتسبه من عشيرة حياته وهو لايعلم . وقس عليه الكاتب والصانع والمحامي والطبيب وغيرهم ، فلا يعمل

الرجل عملا إلا وللمرأة فيــه أثر لأنها أكثر عوامل الطبيعة تأثيراً فيه . وينسب الفرنسيون كل ما يجرى فى الناس الى المرأة حسناً كان أو قبيحاً ، فاذا حدث حادث ظل سببه مجهولا قالوا : « فتش عن المرأة » (Cherchez la Femme) وقال آخرون: « ان التى تهز السرير بيمينها تهز الارض بيسارها »

فالمرأة من أقوى العوامل الخفية فى الهيئة الاجتماعية ان لم نقل أقواها ، فيجب علينا أن نربيها تربية تجعلها سبباً فى رفع منار تلك الهيئة ، ولا يكون هذا إلا بالتعليم والتثقيف

(٢) «الآداب العمومية» ونريد بها حال الشبان من الفضيلة أو الرذيلة . ولها فروع وأقسام يطول شرحها نقتصر منها على أهمها وهو « العفاف » والعفاف سياج العمران . والمراد به هنا التنزه عن الدنايا وخصوصا الفحشاء . فان هذه الرذيلة من أشد النقائص تأثيراً فى جسم العمران ، لأسباب لا تخفى على أحد ، أهمها انحطاط النفس وسقوط الهمة وضعف العزيمة . فالأمة التى تسود فيها الفحشاء يصبح أفرادها أذلاء خاملين ضعفاء عقلا وجسداً ، وخصوصا اذا أطلقوا لأنفسهم العنان بالانغماس فى الملاهي والافراط وان يكن فى غير سبل الحرام ، فان أناسا انغمسوا فى هذه الملاهى لا يرجى منهم خير بل هم أعضاء فاسدة فى جسم العمران

فاذا اتضح هذا علمت كيف تسقط الدول . ويسرع سقوطها اذا سرى هــذا الداء العياء فى وجهائها ورجال حكومتها ، اذ يشغلهم عن النظر في شئون رعيتهم فيعم البلاء والعياذ بالله

وأما المسكون العافون فهم رجال الأعمال اذا نهضوا نهضوا بعزم ، واذا دعوا الى مشروع عظيم قاموا به ، وانقطعوا الى النظر فيه ، فيخدمون بلادهم ويرفعون شأنها

ومن فساد الآداب العمومية آفة القمار . وهي لا تقل تأثيراً فى العمران عن الفحشاء بل ربما كانت من بعض الوجوه أشد وطأة منها ، لأن المقامرة تفسد الأخلاق وتنشىء فى أصحابها الطمع والبغض عدا ذهاب الأموال وضياع الآمال . والمقامر لا يعرف الألفة ولا يفقه معنى الشفقة والحنو ولا غرض له إلا ابتزاز الأموال . وقد ينقم على أخيه فكيف يحن الى مواطنيه ، فهو عدو الهيئة الاجتماعية بالرغم منه ولا تفلح أمة انتشر القمار فيها لأن قوام الأمة الاجتماع ، والقمار يفرقها

(٣) «المعيشة البيتية» وللمعيشة البيتية علاقة عظيمة بالعمران ، لأن الناس اذا

اعتدلوا فى طرق معايشهم صحت عقولهم وأبدانهم ، واذا أفرطوا فيها ساءت حالهم . فالمتأنقون فى الطعام المشتغلون به عن النظر فى أعمالهم لا يفلحون . ومن يقضى بعض نهاره يفكر فى اكلة يشتغل فى اتقانها، يتصرف ذهنه عن أعماله الأخرى . وهب انه لم ينفق فى ذلك وقتاً طويلا فان مجرد التأنق فى المأكل والاكثار من الأطعمة مقعد للانسان عن العمل بما ينشأ عنه من الخمول فى العقل على حد قول القائل: « البطنة تذهب الفطنة » . ومن ضروب الافراط فى المعيشة الانغماس فى المسكرات والسهر الطويل فانهما شران عظيمان يذهبان بالصحة والعقل معاً

ومن ضروريات العمران النظافة . وقد يخيل للقارىء أول وهلة انها ليست من العناية بحيث تعد من هذه الطبقة . ولكنها بالحقيقة لازمة للهيئات الاجتماعية لزوم الكساء والطعام للافراد . والمنزل الذى لا تسود فيه النظافة والترتيب ينشأ أهله على الخمول والكسل ، ومن نظف جسمه صح عقله . ومن يستطيع الرقاد على فراش قذر ولا يتململ فهو ضعيف الاحساس لا يرجى منه نفع

(٤) « التدين » ومن العوامل الخفية فى الهيئة الاجتماعية « التدين » ونريد به التقوى وخوف الله . فان الناس اذا ضعف إيمانهم ماتت ضمائرهم وأصبحوا فوضى لا زاجر لهم . وقد يظن البعض ان التربية تغنى عن الدين وهو وهم باطل ، لأن الانسان ميال بطبيعته الى حب الذات والطمع ، فاذا لم يقم فى نفسه ما يردعه اشتغل فى سلب أموال الناس لا يبالى بما يقاسونه ، والدين هو الرادع الوحيد لهذه المطامع ، ولا ننكر أن بعض المطلعين يحرصون على منافع سواهم حرصهم على منافعهم الشخصية ولكنهم نفر قليل ، ولا نظنهم يفعلون ذلك الا من آثار التربية الدينية التى رضعوها مع اللبن قبل أن اطلقوا لافكارهم العنان وجحدوا الدين وانكروا الديان . ولعلك لو جادلتهم حسبوك فى ضلال وأنكروا ما أثره الدين فى أنفسهم . ولكنك لو خيرتهم فى أن يكون الكفر عاماً فى سائر ابناء جلدتهم على تباين معارفهم وتفاوت طبقاتهم ما اختاروه . وربما احتجوا بأن بسطاء الناس لا علم ولا أدب عندهم يردعانهم عن المنكر ، ولكنهم لو تأملوا لرأوا العلم كثيراً ما يزيد الشرير شراً لأنه يساعده على التفنن فى شره ، وأن التدين وحسن العقيدة ضروريان لقوام الهيئة الاجتماعية ، وأسعد الأمم حالا أحسنها عقيدة واكثرها خوفاً من العقاب وطلباً للثواب

ومما يحسن ذكره فى هذا المقام أن بعض الذين لم يدركوا من العلم الا قليلا يسبق

إلى أذهانهم أن الكفر من ضرورات العلم ويخيل لهم اذا عرفوا نواميس المطر والرعد والكسوف ، واستطلعوا أسباب الزلازل والانواء وغيرها من الحوادث الطبيعية ، انهم قد كشفوا أسرار الطبيعة ولم يبق في الكون غامض يجهلونه ، فلا يرون ثمة حاجة الى الاقرار بقوة غير منظورة . ولكنك لو سألتهم عن مبدع هذه الكائنات وواضع تلك النواميس ، بل لو كلفتهم حل أصغر الغوامض لضاقوا ذرعاً ووقفوا مبهوتين !

على انهم لو استوعبوا العلم وتوسعوا فيه ونظروا فى نظام الكون نظر البصير ، لباتوا حيارى ولم يرتح لهم بال إلا بالاقرار بخالق عظيم يخافه السلطان فى عرشه ، ويلتجىء اليه الصعلوك فى ضيقه وفقره

وقد يظن آخرون أن الحكومة تغنى الناس عن التدين بما تسنه من القوانين القاضية بعقاب الجانى ورد القوى عن الضعيف ، ولكنها لا تستطيع ذلك الا فيما يبدو لديها من أعمال الناس . وأما ما بطن منها فلا رادع يردعه غير الضمير ، وهو القاضى الصارم الذى لايقبل الرشوة ولا يعرف التملق ، والقانون الذى لا يقبل التأويل ولا التحوير ، فيصدر حكمه على صاحبه ويوبخه فى خلوته على ذنب لم يباشره بعد . وما الضمير الا نتيجة التربية الدينية ، وهو اذا نما وتغذى بلبان الآداب أغنى الحكام عن جنودهم والقضاة عن شرائعهم وقوانينهم . وكفى به حاكما منتقماً وقاضياً عادلا . وأما القضاء والقانون فلا يغنيان عن حكم الضمير شيئاً ، يكفيك دليلا على ذلك اختلاف الناس فى احكامهم أمام القضاة واختلاف القضاة فى الحكم فى قضية واحدة

والخلاصة أن المرأة والآداب العامة والمعيشة البيتية والتدين من أعظم العوامل الخفية فى الهيئة الاجتماعية . واذا أنعمت النظر فيها رأيتها ترجع كلها الى العامل الأول منها وهو المرأة . فالمرأة وحدها العامل الخفي فى الهيئة الاجتماعية ، فهي مدبرة المعيشة وهى ينبوع الآداب العامة وهي مرضعة التدين والتقوى . فاذا شاءت أصلحت الأمة واذا شاءت أفسدتها . فالوسيلة الفضلى لرفع شأن الأمة تعليم المرأة وتثقيفها وتهذيبها وهى تربى الأمة وتثقفها وترقى شؤونها . وأما اذا فسدت المرأة فتفسد بها الأمة لا محالة

[عن الهلال سنة ٧ صفحة ٤٥٧]

أقصى أماني الانسان
في الحياة الدنيا

مطالب الانسان فى الحياة كثيرة ترجع إلى التمتع بالملذات ، وهى اما مادية أو معنوية . فالملذات المادية تشتمل على ما يتطلبه البدن من الشهوات المحسوسة أوما تقتضيه الطبيعة من ضرورات الحياة كالطعام والشراب وغيرهما . وهى محدودة ،أى أن طالبها مهما يكن من شرهه أو نهمه لا بد من وصوله الى حد يقف عنده . فالجائع وإن كان بطيناً لا بد من وصوله الى حد يشبع عنده ، واذا تجاوزه أضر نفسه وهدم جسمه وكذا العطشان وغيرهما

أما الملذات المعنوية فلا حد لها لأن النفس لا تشبع منها ، وكلما زدتها منها زادت تطلباً لها . وهى كثيرة ترجع الى « حب التفوق على الأقران بالقوة البدنية أو العقلية أو الأدبية » أى الامتياز على الآخرين بشىء يتحدث به الانسان عن نفسه وهو « التفاخر » أو يتحدث به الناس عنه وهو « حسن الأحدوثة » التى تنتهى بالشهرة

والشهرة مرجع الملذات المعنوية يطلبها كبار النفوس ورجال المطامع . وان كانت فى الحقيقة وهماً وطلابها يطلبون وهماً لأنها لا تسد جوعا ولا تدفع مرضا ولا تقى من برد أو حر . ولكن النفس ترتاح اليها وتلتذ بها ، ويندر من الناس من لا يشتهيها وان تفاوتوا فى أساليب السعى فى سبيلها . وهم يطلبونها كأنها من جملة حاجات الحياة

وحب التفوق على الآخرين أو الشهرة تطلب من طرق مختلفة وعلى أساليب شتى تختلف باختلاف الطلاب وتفاوت قواهم ومشاربهم وميولهم . فمنهم طلاب الشهرة بالعلم أو طلابها بالثروة أو بالسياسة أو الاحسان أو الجاه أو الشجاعة أو القوة أو

غير ذلك . والحقيقة أن نفس الانسان تشتهى الشهرة بكل هذه الفضائل معا ، لـكنه يعجز عنها كلها أو بعضها تبعا لمواهبه وميوله فيوجه قواه الى واحدة منها يرى فى نفسه استعداداً لنيلها

فمطالب الانسان كثيرة وأمانيه تشمل كثيراً من اللذات المادية والمعنوية ، لأن كل انسان يطلب الطعام والشراب وغيرهما من ملاذ الجسد ، وهو أيضا يتمنى لنفسه الملاذ المعنوية من حسن الأحدوثة أو الشهرة،فيريد أن يكون ممتازاً بالقوة البدنية والعقلية ، وأن ينال الشهرة بالعلم والأدب والسياسة ، وأن يتسع جاهه ويتحدث الناس بثروته وأن يقيموا له التماثيل على احسانه

كل انسان يميل الى احراز كل هذه اللذات لـكن ميـله اليها يختلف باختلاف مزاجه وباختلاف قدرته على الظهور بهذه الفضيلة أو تلك . فقد يميل أحدهم في شبابه الى الشهرة بالشجاعة،ثم يعلم بالاختبار أن الاحوال لا تساعده على الظهور بها فيتحول الى طلب الشهرة بالعلم أو السياسـة ، وقد يطلب الشهرة بالقلم ثم يرى المشقة التي يقاسيها أرباب الاقلام فيعدل عنها الى سواها . وهو فى كل حال يطلب سائر اللذات ولـكنه يختص واحدة منها بالاهتمام ويجعل أقصى أمانيـه فى حياته أن يصل اليها . فبعضهم يجعل أقصى مطالبه التمتع بملاذ الجسد وهو مع ذلك يريد أن يكون شهيراً محبوبا . وآخر يطلب الشهرة بالعلم مثلا لـكنه يطلب أن يتمتع بالطعام والشراب ، وأن يكون صاحب جاه أو ثروة . وقس عليه سائر المطالب وطلابها

قل من جد فى أمر يحاوله . .

ويقال بالاجمال ان الانسان اذا وجه فـكره الى مطلب جعله أقصى أمانيه من دنياه،وكان فيه ذكاءوثبات ، فانه نائله لا محالة . وهذه حقيقة اجتماعية تؤيدها المشاهدة . فمن كان أقصى أمانيه جمع المال مثلا فلا بد من نيله عاجلا أو آجلا ، لأنه يصرف قواه الى وجهة واحدة يجعلها همه ومرجع سعيه ويغضى عن سائر المطالب ، فلا يهمه طلب العلم أو طلب المجد أو التمتع بالملاذ الجسدية ، وهذه كلها تقتضى الانفاق وهو لا يلتذ بغير الاقتصاد . فاذا اشتهت نفسه طعاما لذيذاً ورأى الحصول عليه يقتضى إنفاقا كثيراً عدل عنه ، وتكون لذته فى استبقاء ثمن الطعام فى جيبه أهم من لذته بتناوله ، فلا يمضى زمن حتى يرى نفسه من الأغنياء . وكلما زاد غنى زاد شحاً ، ولـكنه يكون قد نال أقصى أمانيه

وقس عليه من كان أقصى مطالبه أن ينال الرتب أو الأوسمة ، فهذا يجعل مدار سعيه نحوها فيتقرب من أصحابها بكل مالديه من الأسباب، إما بالمال أو بالعلم أو بالتزلف ولاينفك يسعى اليها حتى ينال منها ما يكفيه

واعتبر ذلك فى الذين يطلبون المناصب السياسية أو الادارية ، فاذا صرفوا ذكاءهم وسعيهم نحو تلك الجهة فانهم يصلون الى غايتهم وهكذا فى سائر المطالب . فان الانسان اذا وجه عنايته وقواه الى مطلب واحد منها وبذل سائرها فى سبيل نيله ، فانه نائله ولذلك قالوا :

وقل من جد فى أمر يحاوله   واستعمل الصبر إلا فاز بالظفر

فالانسان لا بد له من مطلب رئيسي يوجه اليه اهتمامه ويقف عليه سعيه . وعلى هذا المطلب الرئيسى تتوقف منزلته عند أهله أو معاصريه ، لأن علاقته بهم تختلف باختلاف ذلك المطلب . فمن كان أقصى أمانيه أن يتمتع بملذات الجسد لا تكون منزلته عند الناس مثل منزلة من كانت غايته القصوى من دنياه أن يشتهر بالاحسان وعمل المبرات . ونحن موردون فيما يلى أمثلة من مطالب الناس وما يرجى منهم من نفع أو ضر

الملذات الجسدية

أقل الناس نفعاً للناس من كانت أقصى أمانيهم التمتع بالملذات الجسدية ، فهؤلاء يعيشون لأنفسهم فقط وقد يجرهم نهمهم أو شرههم الى الضرر بالآخرين . فان من يرى غاية الحياة الدنيا أن يتمتع بالطعام اللذيذ ، ويتنزه نفسه بالسياحات والمناظر الجميلة ، ويبتنى القصور ويقتني الرياش الفاخر لمجرد التلذذ البدنى ، ولا يهمه إلا الحديث عن الطعام الفلانى والشراب الفلاني ، والذهاب للرياضة فى محل كذا أو السياحة فى بلد كذا ، فهذا لا يرجى منه نفع لنمو حب الذات فيه نمواً يعمى بصيرته عن أحوال الآخرين

وأكثر هؤلاء ضرراً على المجتمع الانسانى من كانت أمانيهم محصورة على الخصوص فى المطالب الجنسية ، فهؤلاء شر كبير على ذلك المجتمع ، لأن تلك المطالب تقودهم الى شرور لا يمكن حصرها . وقد يأتون فضائح تهتز لها أعصاب الانسانية لأن الانسان انما يشبه الحيوان بمطالب الجسد ، فاذا تغلبت فيه وكانت هى أقصى أمانيه ،

غلبت فيه الحيوانية وكان أعظم ضرراً من الحيوانات المفترسة ، لأنه أقوى منها عقلا وأوسع حيلة فيستخدم حيلته في قضاء شهواته ، فيرتكب في سبيل ذلك ما لا يتأتى للحيوانات المفترسة الوصول اليه

اعتبر فظاعة ذلك مما يرتكبه بعض العقلاء من الخطأ في مجاراة ملذاته مرة واحدة في حياته في حال تغلب الشهوة الجسدية على عقله ، كيف ان تغلبها في لحظة واحدة يجر عليه بلاء لا نهاية له إلا بانقضاء حياته ، فما شأن من يكون أقصى مطالبه الاستسلام لتلك القوة الحيوانية

الملذات المعنوية

أما من كان أقصى مطالبه اللذات المعنوية فانه يكون أقرب الى الانسانيـة ، وان كانت كثيراً ما تجره الى أذى الآخرين ، ولـكن نيلها يقتضي إعجاب النـاس بأعماله لأن مرجعها الى حسن الأحدوثة أو الشهرة ، وللناس نفع من وراء ذلك

على ان انتفاع الناس من طلاب الشهرة يختلف مقداراً وكيفية باختلاف موضوع الشهرة المطلوبة وعلاقتها بالناس . وأكثرهم نفعاً طلاب الشهرة بالاحسان ، فان هؤلاء تتوقف شهرتهم على رضا النـاس ، ولا يرضونهم إلا ببذل المـال في إنشاء المدارس أو الملاجيء أو المستشفيات أو الـكنائس أو تأليف الجمعيات لاعانة الفقراء أو الأخذ بناصر الضعفاء أو نحوه

يليهم طلاب الشهرة بالعلم والأدب ، لأن شهرتهم تقتضي نشر العلم وبث الأفكار النافعة والمبادىء الملائمة لروح العمران فيالصحف أو الـكتب ، أو بالقائها في النوادي على الجماهير بالخطابة أو المحاضرة

يليهم طلاب الشهرة بالثروة والجاه ، فهؤلاء قلما يتعدى نفعهم الى الناس لأن غرضهم أن تكثر ثروتهم ويفوقوا أقرانهم بكثرة المـال وسعة الجاه بمـا يأتونه من البذخ والترف بتشييد القصور واقتناء الرياش ولبس الحرير والاكثار من الحلى واقتناء المركبات والافراس ونحوها

على ان الهيئة الاجتماعية قد تستفيد من هؤلاء لمـا يبذلونه في الأسواق بابتياع معدات البذخ والترف . وأما اذا كان حب المال لايطلب الاشتهار به ، فانه يكون ضربة على الانسان إذ يكون أقصى امانيه احتشاد المال لنفسه بقطع النظر عن التماس الجاه

أو الفخر برضا النـاس . ويغلب فى هؤلاء البخل والشح فيكونون عالة على المجتمع الانسانى ، أو هم كالعلق يمتصون دم الهيئة الاجتماعية ولا يفيدونها بشىء . ولهذا يكرههم الناس حتى أولادهم يتمنون وفاتهم ليستولوا على حقهم من الارث ويتمتعوا به . ويغلب فى أبناء الأغنياء البخلاء أن يكونوا مبذرين

ومن أنواع الشهرة التى لاتضر ولا تنفع طلب الاشتهار بالجمال ، فان من الناس من لا هم له إلا أن يقـال انه جميل الخلقة رشيق القامة حسن البزة لطيف العشرة . وهذا فى النساء أكثر منه فى الرجال ، فنيل الشهرة بالجمال لا يقتضى استرضاء الناس بشىء ينفعهم

ومن أكثر ضروب الشهرة ضرراً فى الآخرين الشهرة السياسية ، فان طلابها لا ينالونها غالباً إلا بسفك الدماء . ويصح ذلك على الخصوص فى طلاب السيادة قبل هذا العصر ، فان مطامع بونابرت في السيادة والتماسه التفوق على أقرانه بالحركات العسكرية ، سبب شقاء ملايين من الناس بين قتل وترميل ويتم وثكل

فالشهرة مطلب كل انسان أو هى مطلب أكثر الناس حتى العامة، لكنها عند هؤلاء محدودة لا تتجاوز استحسان ذوى قرباهم وأهلهم فيكتفى العامل أو الصانع أو الفاعل أن تعتقد امرأته أو والدته أو اخوته انه أقوى على العمل أو أمهر فى صناعته من جاره أو زميله فلان . وهي الشهرة فى أبسط أحوالها ولاتأثير لها فى الهيئة الاجتماعية . ثم يتعاظم تأثيرها كلما اتسعت مطامع طلابها ، وهم كبار العقول وأهل الذكاء والنشاط ويختلف تأثيرهم فيمن حولهم باختلاف نوع الشهرة التى يطلبونها

على أن من الناس ــ وفيهم جماعة من أهل الذكاء والنشاط ــ لايطلبون الشهرة ، ومع اقتدارهم على نيلها تراهم لا يهمهم أمرها . وقد يأتون أعمالا كبيرة يخدمون بها الانسانية خدمات جزيلة لا يقصدون منها شهرة ولا فخراً ، وبينهم جماعة من المحسنين انما يحسنون التماساً للثواب فى الآخرة ، وجماعة من طلاب العلم يطلبونه للتلذذ به لا للتفاخر وهم قليلون

وهناك طائفة من أهل المواهب لا يهمهم من دنياهم الا أن يقوموا بما عليهم من الواجبات ، فاذا كان أحدهم رب عائلة فهمه أن يعول أبناءه ويربيهم ويحافظ على صحتهم وأن يقوم بأودهم جهد طاقته لا يهمه عرف الناس أو لم يعرفوا . واذا كان رئيساً على عمل فهمه أن يتم واجباته فيه بالأمانة والدقة لا يلتفت الى إعجاب الآخرين به ، فأقصى

أماني هؤلاء القيام بواجباتهم ــ ونعم الاماني !

وهناك طائفة كبيرة من الناس ليست مطالبهم فى هذه الدنيا ولا يهمهم من ظواهرها ومفاخرها شيء الا ما يحتاجون اليه للقيام بأود الحياة ، وانما مطالبهم فى العالم الآخر لما يرجونه هناك من الثواب والنعيم . فيقضون حياتهم فى هذه الدنيا وليس لهم أمنية فيها وانما امنيتهم ما يرجونه من الراحة والسعادة فى الآخرة ، وكثيراً ما جرهم هذا المطلب الى خدمة الانسانية ، بل مضى على العالم أدهار وهم وحدهم رجال الخير وخدمة الانسانية باعالة الفقراء وذوى الأسقام ببناء المدارس والمعابد والمستشفيات ــ نعنى رجال الدين . ان طلاب الآخرة من هؤلاء لا يعتبرون الشهرة بل ينبذون الدنيا وملذاتها وينقطعون للعبادة ، وفيهم من يفعلون الحسنات سراً لوجه الله فيتعهدون الأرملة واليتيم والفقير والمريض تحت طى الخفاء يعولونهم بما يبلغ اليه امكانهم وهم قليلون

وبالجملة ان لكل انسان مطلباً رئيسياً من مطالب الحياة يوجه اهتمامه نحوه ويجعل مدار سعيه اليه وهو نائله . وأفضل هذه المطالب ما كان فى نيله فائدة للناس وأقبحها ما كان فيه ضرر لهم للاسباب التى قدمناها

[عن الهلال سنة ١٨ صفحة ٥٧٧]

نظام الاجتماع
وهل يمكن قلبه

نريد بنظام الاجتماع الشكل الذى بلغت اليه الهيئة الاجتماعية فى نظامها الحالى . والأمم على اختلاف الأعصر والأجيال ترجع فيه الى قواعد متشابهة فيها كلها . فالأمة تتألف هيئتها الاجتماعية من عوامل أو قواعد نشأت فيها بطبيعة العمران ترجع الى ستة : العائلة ، والأمة ، والدولة ، والكنيسة ، والآداب الاجتماعية ، والمدرسة . نشأت كل منها تدريجاً من أبسط أحوال الانسان وارتقت بارتقائه وتفرعت وتنوعت على مقتضيات الاحوال ، لكنها لا تزال فى أساسها نحو ما كانت عليه فى أول أدوارها . ولا يزال الغرض منها كما كان فى أول نشأتها

فالعائلة : هي أصل النظام الاجتماعي . كانت فى همجية الانسان تتألف من الأم وطفلها حتى يبلغ أشده فيتركها كما يفعل سائر الحيوانات . ولكن طول مكثه فى حضانتها جعله يألفها ويميل اليها وإلى ما قد يعاصره من الاخوة على تفاوت أعمارهم . وهي (العائلة) على مبدأ الأمومة تتألف من الأم وأبنائها وأبناء بناتها . ولم يكن يعد من العائلة غير الاخوة والأخوات والأخوال وأبناء البنات . ثم دعت الحاجة الى التعاون فى طلب الرزق وصارت الرئاسة الى الرجل فالتمس الاستعانة بأبنائه فضلا عن اخوته فتحول نظام العائلة من الأمومة الى الأبوة . ووضعت الشرائع بتوالى الأجيال حسب الحاجة . واقتضت طبيعة المعاش أن تمكث المرأة فى المنزل ويخرج الرجل لطلب الرزق لأنه أطلق سراحا منها . وتكفلت هى بتربية الأبناء لأنهم أحوج اليها فى طفولتهم للرضاعة وغيرها . ودعا ذلك الى وضع شروط الزواج وحقوق الأبناء واختلف باختلاف طبائع الأمم

والأمة : نريد بها أهل البلد الواحد أو الاقليم الواحد الذين يشتركون فى العادات والأخلاق ويتبادلون المنافع ويتعاونون على المعاش . كان الغرض منها فى أقدم أحوال الانسان التعاون على الصيد . والصيد يومئذ أهم مصادر المعاش . فكانوا اذا عادوا من الصيد اقتسموه . ويدخل فى معنى الصيد أيضاً الغزو ، فالغنائم وفيها الأسرى كانوا يقتسمونها ، ثم رأوا استبقاء الأسرى للخدمة فاستعبدوهم وصاروا يستخدمونهم فى مرافق الحياة . فينبغ القوى ويندثر الضعيف . وتقلبت أحوال الأمة بين البداوة والحضارة وهي تنمو وترتقي وتتفرع حتى تكونت فيها الطبقات المختلفة من العمال وأرباب الأموال والصناع وغيرهم

والحكومة أو الدولة : بدأت عند أول خلاف وقع بين أهل البلد الواحد على أثر صيد أو غزو . فكانوا اذا اختلفوا فى قسمة الصيد أو الغنيمة فزعوا الى الحكومة الى أقواهم ليفصل فى الخلاف بينهم وهو واحد منهم يغلب أن يكون أكبرهم سناً . فتولدت حكومة الشيوخ أو الآباء وصار الحكم الى الشيخ أو الأمير . وتنوقلت أحكام الأمراء للقياس عليها أو العمل بها فى الأحوال المتشابهة . ثم جمعت تلك الاختبارات والتقاليد بتوالى الأجيال بعد تعديلها أو تكملتها وصار أصحابها طبقة ممتازة تفرغوا لهذا العمل وهى « الحكومة أو الدولة » ولها أدوار تتباين بتباين أخلاق الأمم وميولها وسائر أحوالها . ثم تفرعت الحكومة الى طبقات بعضها للسلطة الرئيسية وغيرها للحرب وأخرى للتشريع وتقلبت السلطة بين ثيوقراطية وملكية وجمهورية وديموقراطية وارستوقراطية وغيرها بمقتضى طبيعة العمران وناموس النشوء والارتقاء

والكنيسة : نعنى بها العامل الدينى فى نظام الاجتماع . وهى قديمة أيضاً وأصلها الاجتماعى على رأى أصحاب النشوء يرجع الى ضعف الانسان واتساع تصوره وخوفه من الظواهر الطبيعية التى لا يعرف أسبابها ولا سيما الموت ، فانه أقدم ما أزعجه من أحوال الحياة . لأنه يفضى به الى العدم وهو يحب البقاء . فلجأ الى الاقوياء عقلا يستغيث بهم ويستفتيهم فيما يجهله ، وهم يفتونه بما يرضيه أو يقنعه ، ويتخذون ذلك وسيلة للسيادة أو التكسب . فنشأت طائفة الكهان والسحرة من قديم الزمان . وكانت فى أول أدوارها مختلطة بطبقة الحكام وقد يكون الرئيس حاكما وكاهناً معاً

ولما ارتقى الانسان ارتقت تصوراته من حيث الدين ، وتكيفت آلهته وتنوعت

الأدعية والصلوات والاعتقادات بتنوع طبائع الأمم واختلاف البيئة وسائر الاحوال . حتى تعددت الأديان وتنازعت . ثم ظهرت الاديان الالهية ولكل منها طبقات من الكهان ودعاة الدين وضروب من الطقوس والمعتقدات كما هو معلوم.

والآداب الاجتماعية : يدخل فيها ما يتبادله أفراد الامة الواحدة من الاعتبارات الادبية المبنية على الشعور والمتعلقة بالأخلاق . لأن الامة لما اجتمعت ولم تر بداً من التعاون في أحوال الحياة اضطرت الى تقرير ما ترى فيه نفعاً لمجموعها وصيانة لاغراضها مع ما تقتضيه طبائع الامم من التفاوت في الاحكام . وهي ما يعرف بالآداب الاجتماعية أو القواعد الادبية . وهي قائمة في الاصل على العادات القومية . ثم صارت قواعد متبعة لا تخلو منها أمة

والمدرسة : يراد بها التعليم والتربية على الاجمال . وهي في أول أدوار العمران عبارة عن توارث الاختبارات وتحويلها مع الزمان الى قواعد كلية تطابق حاجات الامة واعتقادها ، وهي العلوم في أول نشأتها . وكان للخرافات سلطة عظيمة ودخل كبير فيها . وتقلبت العلوم على أدوار مختلفة قبل التاريخ وبعده في الدول الشرقية القديمة بمصر وبابل واشور الى اليونان فالرومان فالعرب فالتمدن الحديث . واختلف باختلاف الاعصر مما يطول شرحه

علة هذا النظام الاصلية

هـذه أهم قواعد الاجتماع نشأت بحكم الطبع جرياً على ناموس الارتقاء . وقد يظهر بعضها أول وهلة من نتـاج المدنية أو الحـكومة أو انها حدثت بالتواطؤ . ولـكنك عند اعمال الفكرة تجدها من ثمار مذهب النشوء . لانها مبنية على غرائز في الانسان استلزمت هذه القواعد فتولدت بطبيعة العمران

وجد الانسان ضعيف البدن حاد الذهن واسع الحيلة . ولولا ذلك لانقرض عن وجه الأرض لعجزه عن مقاومة العناصر والطوارىء من برد أو حر أو خطر . كما انقرض غيره من أنواع الحيوان البائدة لهذا السبب عينـه . لـكنه استخدم حيلته العقلية في دفع الطوارىء ومقاومة العناصر . فاقتات بلحوم الحيوانات واكتسى جلودها وحاك شعورها . وأكل ثمار الاشجار واستظل بأغصانها . ثم بنى المنـازل وتعاون بالتفاهم على الاجتماع في طلب المعاش واستثمار الأرض . فلما أمن الجوع لذت

له الحياة وتولدت فيه المطامع وأصبح همه المطالب السامية (Ideal) . فتكونت طبقة من الأقوياء أصحاب المطامع لا يلذ لهم إلا التفوق على أقرانهم أو السيادة على سواهم . والتمسوا اعجاب الآخرين بهم وهى « الشهرة » كأنهم رأوا الحياة قصيرة بالقياس الى مطالبهم فاعتاضوا عن طولها بالتماس الشهرة لانها « اتساع » الحياة . فالذى يعيش عشر سنين لا يعرفه إلا مائة شخص كالذى يعيش سنة ومعارفه الف شخص

فحب الشهرة أو التفوق أو التماس السيادة مع وجود الحيلة العقلية أدى الى تنازع البقاء وأصبحت الحياة ميدان نزاع وحروب بين أصحاب المطامع ، اما بالسيف أو بالقلم أو بالدهاء . فانقسم الناس الى قبائل وعشائر أو أمم ودول وتحاربوا وتناظروا . واقتضى تناظرهم احتكاك الأفكار فنمت الغرائز وشحذت القرائح ونشأت أكثر القواعد الاجتماعية التى تقدم ذكرها

أما الضعفاء من الناس الذين غلبهم القوى فهم يطلبون طول البقاء مثله لكنهم يعجزون عن نيله بالشهرة ولا يتيسر لهم التمتع بملاذ الحياة كلها مثل أولئك . فرأوا فى الاعتقادات الدينية اكبر تعزية لهم فتمسكوا بها كما سلمها اليهم الكهان أو من جرى مجراهم . وتمسك بها سواهم من الأقوياء أيضاً لأنها أكبر معز لهم فى أحوال ضيقهم . وقس على ذلك سائر مقتضيات نظام الاجتماع فانها نشأت بحكم ناموس الارتقاء العام

هل يمكن قلب هذا النظام

قد رأيت ان القواعد الاجتماعية انما تولدت وارتقت جرياً على سنة الارتقاء مجاراة لغرائز الانسان . فهى كالقضاء المبرم لا يمكن تبديلها . ولكن الأمة لا تخلو من الناقمين على نظامها الاجتماعى ، ولا سيما فى أحوال فساده واختلال أموره ، فقالوا بابداله . وقد حاول بعضهم هذا منذ القدم فأخفقوا لأنهم يعملون على مقاومة المجارى الطبيعية . اعتبر ذلك فى كل ما حدث من الانقلابات السياسية والاجتماعية والدينية . وهى كثيرة من أقدم أزمان التاريخ الى الآن لم يستطع واحد منها قلب قاعدة من قواعد الاجتماع . فالانقلابات السياسية التى يراد بها قلب الدولة لم ينتج عنها إلا ابدال حكومة بحكومة أو تحويل نظام الى نظام : من الملكى المطلق الى المقيد أو الى الجمهورى — والدولة لا تزال باقية

والانقلابات الدينية أراد بها أصحابها ابدال دين بدين . ولكن الغالب أن يتحول الدين الجديد بتوالى الأعوام ويتنوع حتى يلائم أخلاق الأمة التى انتشر فيها . لأن الناس لا يقبلون الدين الجديد ان لم يلائم أخلاقهم وعاداتهم . ولهذا نرى فى الأديان الالهية كثيراً من العقائد والطقوس الوثنية التى كانت قبلها

واعتبر ذلك فى الانقلابات الاجتماعية وغيرها فان الأمة لا تترك آدابها وعاداتها لتتخذ آدابا وعادات جديدة . لكنها إما أن ترفضها أو تعدلها حتى تلائم أخلاقها وحاجاتها . وقس عليه سائر ما حاول الناس ادخاله من المبادىء الاجتماعية الجديدة . فانك لا تجد دليلا واحداً على ان قاعدة جديدة حلت محل قاعدة قديمة . وانما تبقى وتنتشر بالاندماج فيما كان قبلها . كأن نظام الاجتماع سيل جارف اذا عارضه معارض ابتلعه وساقه فى مجراه

ومن هذا القبيل أيضاً المبادىء الاشتراكية . كان المراد بها فى أول ظهورها أن تحل محل النظام الحالى، لكنها ما زالت تتنوع وتتعدل حتى أصبح الغرض منها اصلاح ما فسد من هذا النظام فيأخذ منها ما يلائمه وهو فى مجراه . كما كان شأن سائر التغييرات التى أريد ادخالها فيه من أول عهد التاريخ الى الآن

فالسبب الرئيسى فى ثبات النظام المذكور انه مبنى على غرائز الناس الخلقية لا على عقولهم . أى انهم سبقوا اليه بأخلاقهم وغرائزهم لا بعلومهم وفلسفتهم . والغرائز البشرية لا تزال كما كانت من أقدم أزمنة التاريخ

والأخلاق تتوارث فى الاعقاب وفيها ما أضافه اليها الاسلاف من الاعتقادات والعادات . فالشخص الواحد منا نتاج العوامل الطبيعية قروناً متطاولة . وقد رسخت القواعد الاجتماعية فى خاطره بتوالى الادهار . والأمة مؤلفة من الأفراد وحظها من الارتقاء يتوقف على أخلاقهم لا على ذكائهم ولا على علومهم . لأن العلوم قد تنضج وتزهو والأمة فى حال الانحطاط . والذكاء قد يكون في الأمة المحكومة الذليلة . وأما الأخلاق الراقية فلا تكون إلا فى عز الدولة وابان سلطانها وعليها يتوقف حال الاجتماع

[عن الهلال سنة ٢١ صفحة ٢٢٧]

تاريخ الاحزاب السياسية

من قديم الزمان الى الآن

نريد بالحزب السياسى طائفة من الناس تجمعهم دولة واحدة يتكاتفون فى نصرة مصالح الأمة ولو آل ذلك الى الاحتجاج على الدولة أو مناهضة الحكومة بالقلم أو اللسان أو السيف . وقد تتعدد الاحزاب فى الأمة الواحدة وتختلف طرقها ويشتد الجدال بينها حتى يأول الى الخصام ، وغرضها واحد وهو خدمة المصلحة العامة ، وإنما تختلف فى الأساوب المؤدى الى ذلك الغرض . ويصدق هذا التعريف على احزاب هذه الأيام ، وأما القدماء فاحزابهم غير أحزابنا إذ لم يكن عندهم أمة يخدمون مصلحتها لأنهم كانوا طبقتين الخاصة والعامة . والخاصة هم أصحاب السيادة وقد يختلفون عليها فينقسمون الى احزاب تنتشب الحرب بينها فى التنازع على الاستئثار بالتسلط على العامة . فينحاز هؤلاء الى هذا الحزب أو ذاك يسفكون دماءهم فى نصرة بعض ظلامهم على البعض الآخر . ولا بأس من ايراد أمثلة من الاحزاب القديمة ونقدم الكلام فى طبقات الناس :

طبقات الناس

ليس فى الوجود حيان يتشابهان تمام المشابهة حتى النبات والجماد ، فكيف بالانسان مع تعدد العوامل المؤثرة فيه ؟ فلا عجب اذا تفاوت الناس فى قواهم ومواهبهم واصبحت الأمة فيهم مؤلفة من طبقات ودرجات يستأثر قويها بضعيفها ويستبد كبيرها بصغيرها ويستخدم عاقلها جاهلها . ذلك كان شأن الأمم التي تمدنت قديما ، فالمصريون كانوا مؤلفين من طبقتين كبيرتين هما : الخاصة ، والعامة . والخاصة فئتان : الملوك

والكهنة . والعامة هم سائر الناس ، وفيهم الجند والرعاة والتجار والتراجمة والنوتية والصناع . وكذلك سائر الامم القديمة فى أشور وبابل وفارس وفينيقية واليونان والرومان . والخاصة فى كل حال هم أصحاب الأمر والنهى ، وسائر الناس طغام أتباع لا صوت لهم ولا جامعة ، لا يخشى اجتماعهم ولا يخاف بأسهم . وربما عبروا عنهم بالعبيد وعبروا عن أنفسهم بالاحرار . وقد يأخذهم الكبر فينسبون الى الآلهة كما فعل اليونان ، فقد كانوا فى أقدم احوالهم يقسمون الى ثلاث طبقات : الاشراف ، والأحرار ، والعبيد . والاشراف هم الملوك ويزعمون أنهم من نسل الآلهة ، والاحرار هم اصحاب الارضين ، ومنهم الامراء والقواد . وأما العبيد فهم العامة ومنهم العمال والصناع والخدم . فلما استبحر عمرانهم وانتشرت العلوم بينهم ، انكروا انتساب الملوك الى الآلهة فأنزلوهم الى مصاف الأحرار ، لكنهم لم يرفعوا طبقة العبيد فأصبحت الامة اليونانية طبقتين الاحرار والعبيد . وكذلك كان الرومان ولكنهم تفننوا فى هذا التقسيم وفصلوه . فكانت الامة عندهم مؤلفة من ست طبقات (١) الاسر المالكة ويتبعهم اصحاب العقار والارضين (٢) سكان المدن الكبرى وهم مزيج من الصناع والمحررين (٣) سكان القرى (٤) الفلاحون (٥) العبيد (٦) المتشردون . والعبيد تتألف منه معظم الأمة

وقس عليه التمدن الاسلامى فكانت الأمة تتألف فيه من طبقتين : الخاصة والعامة . وكل منهما مؤلفة من طبقات ورتب (كما فصلنا ذلك فى الجزء الخامس من تاريخ التمدن الاسلامى)

العامة فى العصور الماضية

واعتبر ذلك فى سائر الأمم القديمة والوسطى ، فان العامة لم يكن لها شأن يراعى ولا صوت يسمع ، وإنما كانوا آلة يتوكأ عليها أهل المطامع لنيل السيادة ، فلم يكونوا يعرفون الأحزاب إلا التحاقاً بالخاصة ، وهؤلاء كانوا ينقسمون الى أحزاب تتنازع السيادة ويستعين كل حزب منهم بطائفة من العامة يرمى بها خصمه كما يترامى الناس بالحجارة . والعامة راضون لا يتذمرون ولا يغضبون لاعتبارهم الخاصة من دم غير دمائهم . وانما اعتقدوا ذلك ورضوا الذل والصغار وألفوا الظلم وتعودوا الرياء لجهلهم وضعف قلوبهم

كانت العامة فى العصر الاسلامى اخلاطا من غوغاء ولفيفاً من أمم شتى وصناعات شتى . وكانوا لجهلهم أتباع من سبق اليهم أو ملك ثقتهم أو غلب على اعتقادهم بلا تمييز بين الفاضل والمفضول ، وكان عقلاء الخاصة يعلمون ذلك فينظرون الى العامة نظرهم الى أحقر البشر . فقد سئل الامام على عن العامة فقال : « همج رعاع اتباع كل ناعق » وقال الفضل بن يحيى : « الناس أربع طبقات : ملوك قدمهم الاستحقاق، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأى، وعلية أنهضهم اليسار ، وأوساط الحقهم بهم التأدب ، والناس بعدهم زبد جفاء ، وسيل غثاء، لكع لكاع ، وربيطة اتضاع ، هم أحدهم طعامه ، ونومه » . وقال معاوية للاحنف : « صف لى الناس » فقال : « رءوس رفعهم الحظ ، واكتاف عظمهم التدبير ، واعجاز أشهرهم المال ، وأدباء ألحقهم بهم التأدب ، والناس بعدهم أشباه البهائم إن جاعوا ساموا ، وإن شبعوا ناموا » هذه هى آراء خاصة تلك الأيام فى عامتهم

فكان الخاصة ورجال المطامع اذا انقسموا الى أحزاب استعانوا بالعامة وتضاربوا بهم وأقدر الأحزاب على اكتساب ثقة العامة أغلبهم فى ميادين السياسة . بذلك غلب معاوية علياً ــ غلبه باسترضاء العامة واصطناع الاحزاب بمداراة الناس واجتذاب قلوبهم . وذكروا من أمثلة ذلك أن رجلا من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن واقعة صفين فتعلق به رجل من أهل دمشق فقال : « هذه ناقتى أخذت مني فى صفين » فارتفع أمرهما الى معاوية وأقام الدمشقى خمسين رجلا بينة يشهدون أنها ناقته فقضى معاوية على الكوفى وأمره بتسليم البعير اليه فقال الكوفى : « أصلحك الله انه جمل وليس بناقة ! » فقال معاوية : « هذا حكم قد أمضى » ودس الى الكوفى بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره ودفع اليه ضعفيه وبره وأحسن اليه وقال له : « أبلغ علياً انى أقاتله بمائة الف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل »

وبلغ من أمرهم فى طاعته أنه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة فى يوم الاربعاء، وأعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها وركنوا الى قول عمرو بن العاص ان علياً هو الذى قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته . ثم ارتقى بهم الأمر فى طاعته الى أن جعلوا لعن على سنة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير

واعتبر ذلك أيضاً فى سائر العصور الاسلامية حتى فى مدينة السلام بؤرة التمدن

الاسلامي ، فان العامة كانوا جهلاء يتحزبون للفقهاء أو الخلفاء باسم الدين وهم لايعرفون من الدين الا اسمه . فقد ذكروا عن رجل من عامة بغداد أنه شهد مجلس جماعة من العلماء اجتمعوا للمناظرة فى أبى بكر وعمر وعلى ومعاوية ، فلما سمع جدالهم تصدى لبعض الباحثين وقال له : « كم تطنبون فى على ومعاوية وفلان وفلان ؟ »

فقال له الرجل : « ماذا تقول أنت فى على ؟ »

قال : « أليس هو أبا فاطمة ؟ »

قال : « ومن هى فاطمة ؟ »

قال : « امرأة النبي عليه السلام بنت عائشة أخت معاوية »

قال : « فما كانت قصة على ؟ »

قال : « فى غزاة حنين مع النبي وقد كان عبد الله بن على حين خرج فى طلب مروان الى الشام وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر ونزل عبد الله بن على الشام ووجه الى ابى العباس السفاح أشياخا من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة ، فحلفوا لأبى العباس السفاح أنهم ما علموا لرسول الله قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بنى أمية حتى وليتم الخلافة »

أولئك هم العامة فى كل زمان ومكان ، وطلاب السلطة المطلقة لا يستغنون عنهم لأنهم معظم الرعية ، وبهم تجبى الاموال ، ومنهم تتألف الجنود فمن استطاع كسب ثقتهم واجتذاب قلوبهم ملكوه ، ولايجتذب قلوب العامة مثل الدين. فاذا اجتمعت السياسة والدين تمت وسائط السلطة المطلقة وتولى أمور الناس أكثرهم دهاء وأقدرهم على استرضاء العامة بالتقوى

وبالجملة فقد ظهر فى العالم القديم أحزاب كثيرة تضاربت وتخاصمت وتنازعت ولكنها كانت تفعل ذلك مدفوعة بحب الذات طمعاً فى السيادة . فالعرب كانوا قبل الاسلام أحزاباً تجمعها العصبية ، فلما جاء الاسلام اجتمعت هذه الاحزاب الى حزب واحد بجامعة الدين ، فلما فتحت أبواب السيادة بعد موت النبي انقسموا الى أحزاب سياسية أقدمها الأنصار والمهاجرون ، ثم هاشم وأمية ، ثم العرب وقريش ، ثم اليمن ومضر ، فالعرب والفرس ، والسنة والشيعة ، وتحزب أهل المدن بعضهم على بعض كالبصرة والكوفة والشام والمدينة . والاختلاف فى كل حال بين الخاصة وهم الامراء والقواد ، وأما العامة فيتبعونهم فينقسمون بانقسامهم ويذهبون ضحية مطامعهم

حقوق العامة من طبائع البداوة

أول من احترم رأى الأمة اليونان القدماء لأنهم أول من أنشأ جمهورية ونشط الفكر الديمقراطى قبل الميلاد بعدة أجيال، فجعلوا للشعب حقوقاً سياسية . واقتدى بهم الرومان فى صدر دولتهم ثم عادوا الى الاستبداد . وربما مل العامة الذل فنهضوا على الخاصة ولا سيما فى الدولة الرومانية ، فكانوا يرضونهم بعضو ينتخبونه منهم للقضاء أو نحو ذلك ويبقون على استبدادهم فيهم . وهم لا يطمعون فى السيادة أو الحقوق السياسية ، وقلما كانوا ينهضون إلا لنصرة الخاصة فى أحزابهم فينقسم هؤلاء الى حزبين أو ثلاثة أو أربعة فينقسم العامة مثلهم

توالى على اوربا أجيال فى عصر الدولة الرومانية والعامة لا يزدادون إلا ذلا وجهلا ، حتى سطا عليها قبائل الجرمان من الشمال وكانوا أهل بادية واستقلال وحرية كما كان العرب فى جاهليتهم وأوائل اسلامهم . فاختلط الجرمان بالرومان وبثوا فيهم روح الاستقلال ومبادىء الجمهورية كما فعل المسلمون فى صدر دولتهم . فكان الجرمان فى عهد بداوتهم يولون امراءهم بالانتخاب، وإنما ينتخبون أهل الكفاءة وقوة العارضة. ولكل فرد منهم بلغ رشده حق أن ينتخب أو ينتخب . فبثوا هذه المبادىء فى المملكة الرومانية لما افتتحوها لكنها ما لبثت أن ذهبت ضياعاً فعدلوا عنها الى الحكم المطلق والملك الموروث ، وإنما ذهبت تلك المبادىء منهم بذهاب البداوة والانفة والاستقلال اذ أركنوا الى الترف والرخاء واستسلموا الى المطامع والملذات كما أصاب العرب بعد تمدنهم فحولوا الحكومة من الانتخاب الى الارث

ولم ترسخ الديمقراطية فى أوربا فى الأجيال الوسطى لاستيلاء الجهل على العامة وانحصار العلم فى الخاصة ، ولو أراد الخاصة أن يمنحوا العامة حقوق الانتخاب ويجعلوا الحكومة طوع أصواتهم وهم جهلاء لأضاعوا دولتهم

فلما أشرق التمدن الحديث بأنوار العلم وأنشئت المدارس مع تعميم التعليم بين العامة والخاصة وسعت الحكومة لترغيب الناس فى العلم واجبارهم عليه،عادت مبادىء الديمقراطية الى الظهور وثبتت هذه المرة وتمت لأنها مؤسسة على العلم الصحيح . فأصبح للعامة صوت مسموع ورأى نافذ . وأصبحت مقاليد الأمور راجعة اليهم فانقسموا الى أحزاب اتفقت فى خدمة الأمة واختلفت فى الطريق المؤدى اليها وهي الاحزاب السياسية التى نحن بصددها

على أن حرية الأفراد بدأت فى التسرب الى شعوب اوربا منذ ظهور النصرانية لأن تعاليمها تؤدى الى التسوية بين العامة والخاصة فى نظر الدين . ولكن الاحوال لم تكن تأذن بظهور هذا الشعور لان نظام الاجتماع يومئذ كان يقضى بتفضيل الحكومة على الشعب ـ كانت الحكومة كل شيء والشعب لاشيء ، تضحى بصالحه فى سبيل مصالحها . وكانت غاية التمدن عندهم أن يشتد ساعد الحكومة ويتسع سلطانها لا تبالى بما تسفكه فى سبيل ذلك من دماء الافراد أو الجماعات من العامة ، ولا هي تسأل عنه ولا هم يعدون عملها خارجا عن حقوقها لألفهم الظلم وتعودهم الاستبداد لانهم كانوا لايفقهون معنى الاستقلال الذاتى أو الحرية الشخصية . وكانوا يزدادون تمكناً من ذلك كلما تقهقرت الدولة لتفشى الجهل بين الناس ، وهو عدو الانسانية وقاتل النفوس الأبية ، وكلما زاد الشعب جهلا زادت حكومته استبداداً وظلماً

قضت اوربا أجيالها الوسطى وهذه حالها ، حتى اذا انقلب تمدنها القديم ونشأ التمدن الحديث بعد أن أبدلت الدولة الرومانية بالدول الحالية تبدل نظام الاجتماع فيها وتحولت الاولية من الحكومة الى الشعب فأصبح الشعب الأصل والحكومة الفرع ، وبعد ان كانت غاية الاجتماع تأييد الدولة وتوسيع دائرة المملكة ولو هلك الشعب ، أصبحت الغاية تأييد مصلحة الشعب والسعى فى سعادة الفرد ، وما الحكومة إلا الوسيلة المؤدية الى ذلك . والفضل الاكبر فى رفع منزلة العامة وبث روح الاستقلال فيهم للجرمان الذين هبطوا على المملكة الرومانية من الشمال فذهبوا بما بقي من سيادة الرومان فى الغرب ، وأسسوا الدول الحالية كما تقدم ، وكانوا أهل بادية واستقلال كما كان العرب لما صعدوا اليها من الجنوب فى صدر الاسلام وذهبوا بقيتها فى الشرق . وحرية الأشخاص طبيعية فى أهل البادية لتمرسهم بالغزو والحرب ، وكلهم محارب ذو بأس وسيف ، وكلهم يشترك فى اقتسام الغنيمة . اعتبر ذلك بما كان عليه العرب قبل تمدنهم إذ كان البدوى يخاطب الخليفة أو الأمير كما يخاطب بعض رفاقه

فتحول نظام الاجتماع فى اوربا من سيادة الدولة الى سيادة الأمة ، وأصبحت الديمقراطية من أهم أغراض الأمم . ورافق ذلك تشكيل مجالس تنوب عن الشعب لمشاركة الحكومة فى الرأى أو الاقتراح وهو الدستور . وكان انتخاب النواب معروفا

فى الأجيال الوسطى على كيفية أخرى ، أما انتخابهم على الكيفية الحالية فهو من محدثات الدول الجديدة . وقد ظهر أولا فى اسبانيا فباشرته أراغون وقسطيلة في أواسط القرن الثاني عشر للميلاد ، واقتدت بها صقلية سنة ١٣٣٢ ثم جرمانيا سنة ١٢٥٥ فانكلترا سنة ١٢٦٥ ففرنسا سنة ١٣٠٢

تلك هي فاتحة إشراف الشعب على أعمال الحكومة واشتراكه فى آرائها بواسطة مجالس النواب . فلا عجب اذا حافظ على حقوقه وغل أيديها عن الاستبداد فيه فأخذت حقوق الفرد تصان وحريته تظهر فوضع الدستور ونشأت الاحزاب الديمقراطية وساد الرأى الجمهورى

الاحزاب السياسية

لما سنت شعوب اوربا وأميركا الدستور وألفت مجالس النواب ، أصبحت هي المسئولة عن شئونها السياسية وأحوالها الاجتماعية ، وكانت العامة قد تثقفت عقولهم واتسعت مداركهم بالعلم والتربية فزاد اهتمامهم بترقية حالتهم الاجتماعية ، وانصرفوا الى البحث فى ذلك بواسطة نوابهم فاذا جرهم البحث الى الاختلاف فى مسألة هامة تحتاج الى أخذ ورد تباينت آراؤهم فى الوسائل المؤدية الى الغرض المقصود ، فينقسمون الى حزبين فاكثر لتسهيل البحث ويهتم كل حزب بايراد الأدلة على صحة رأيه — يبدأ هذا الانقسام فى النواب ويتطرق طبعاً الى الذين أنابوهم وهم العامة . والنائب لا يذهب الى رأى أو ينحاز الى حزب إلا وهو عالم بمجمل رأى الذين أنابوه ، فهو انما يؤدى واجباً عليه نحو منتخبيه ، وتختلف هذه الاحزاب قوة وعمراً باختلاف المسائل المختلف فيها

وأقدم تحزب سياسى بين نواب الأمة ظهر فى انكلترا بين مجالس الأشراف والعموم ، ومنها حزبان عرفا بحزب التورى والهويج Tory and Whig ويراد بالتورى الاشراف أو الخاصة وبالهويج الشعب . وكان حزب الشعب سبباً كبيراً فى الغاء تجارة الرقيق ورفع شأن العامة . وربما ظهر فى اوربا مثل هذه الأحزاب مما لا أهمية له . وأما الاحزاب الجمهورية التى انقسم اليها عامة الشعب للبحث فى مصلحة الأمة فلم تظهر إلا فى أواخر القرن الثامن عشر ، ولا عجب اذا كان الاميركان هم الذين قاموا بها لأنهم أول من نال الحرية بقوة الشعب

وذلك ان بلادهم كانت قبل استقلالها منقسمة الى ولايات كل منها مستقل بحكومته وشئونه لا يجمعها إلا الخضوع لسلطة انكلترا . وأرادت هـذه الولايات أن تتحد وتشترك فى الحكومة والنظام ، لكن الانكليز كانوا يفرقون بينهاخوفاً من اتحادها عليهم . ولما نهضوا للاستقلال لم يكونوا قد اتفقوا على توحيد الولايات فلما فرغوا من الحرب واستقلوا عادوا الى البحث فى ذلك فاختلفوا فيه وانقسموا سنة ١٧٨١ الى حزبين عرف أحدهما بحزب الفدرال وهو القائل بالانضمام وحزب الانتيفدرال ضده . وفى سنة ١٧٨٨ غلب الحزب الأول وانضمت الولايات المتحدة الى دولة واحدة سنة ١٧٨٩ وساد حزب الفدرال واستقل بتدبير شئون الحكومة وانتظم أكبر رجال السياسة فيه

ثم اختلفوا فى تنظيم حكومتهم من حيث علاقة الولايات بعضها ببعض فانقسموا الى حزبين أحدهما يرى أن تكون الولايات تابعة لحكومة مركزية تشبه الحكومة الملكية ، والآخر يرى استقلال كل ولاية باحكامها . واتفق فى أثنـاء ذلك قيام الفرنسيين على ملكهم لويس السادس عشر بالثورة الفرنسية المشهورة سنة ١٧٨٩ وقد سموا أنفسهم جمهوريين نسبة الى الجمهور واشارة الى نهوضهم لمقاومة سلطة الملك فاقتبس الاميركان هذه التسمية سنة ١٧٩٢ وسموا بها الحزب القائل بمنع توحيد الحكومة . وكان الحزب فى أول تشكله ضعيفاً وأخذ ينمو وحزب الفدرال باق

وكان الاميركان قد عقدوا مع فرنسا عهداً سنة ١٧٧٨ يقضى بتعاونهما عند الحاجة على اثر ما كان من نصرة الفرنسيين للاميركان فى استقلالهم ، فلما فاز الفرنسيون بجمهوريتهم حملوا على الدول سنة ١٧٩٣ وفى جملتهن انكلترا واستنجدوا الاميركان فتحير هؤلاء بين أن يقوموا بعهدهم ويعرفوا جميل فرنسا عليهم وبين أن يحاربوا انكلترا وتجارتهم فى قبضتها ، فكان من رأى حزب الفدرال البقاء على الحياد ثم جاءهم مندوب من فرنسا يذكرهم بالعهود فأثر قدومه فى الشعب وهاج وطفق يهدد الحكومة ويستحثها على القيام بعهودها ، فلم ينجح ولكنه أحدث حزباً ثالثاً عرف بالحزب الديمقراطى وهو يتفق مع الحزب الجمهورى من بعض الوجوه ويختلف من البعض الآخر . ثم اتحد الحزبان فسميا الحزب الديمقراطى الجمهورى وتقلبت عليه أحوال شتى . وقس على ذلك أحزاب سائر الدول . . .

[عن الهلال سنة ١٦ صفحة ١٤١]

الحرب

هل تبطل من الارض

مهما بلغ شأن هذه المدنية من الارتقاء بكثرة الاختراعات والاكتشافات، ومهما تربع أصحابها على الفراش الوثير وركبوا البخار واستضاءوا بالكهربائية وألجموا الهواء. ومهما أنشئوا من الصحف وألفوا من الجمعيات والنوادى أو الأحزاب، ونادوا بالحرية والاستقلال، فلا يغرك دفاعهم عن الفرد وسعيهم فى تحرير الرقيق ـ فانهم مهما يكن من أمرهم ما يزالون بعيدين عن المدنية الصحيحة، ما دام فيهم الميل الى الحرب، لأنها من بقايا الهمجية تمثل لك الانسان فى أفظع أحواله الوحشية

أصل الحرب

كان الانسان فى أقدم أدواره يقتات بالأثمار يقتطفها من أشجار أنبتتها الطبيعة لا يغرس ولا يحرث. وإذا نفد الثمر عمد الى طير صغير أو حيوان ضعيف التقطه وقتله وأكله نيئاً قبل اختراع الطبخ. ولا يزال يقتات بما يجده من ذلك فى البقعة التي احتلها بأهله حتى تخلو من الثمر والحيوان فينتقل الى سواها. وهو يفضل المقام بجوار الينابيع أو على ضفاف الأنهار لأنه يجد أكثر حاجاته فيها. وقد يكون هناك جماعة سبقوه الى الماء فينازعهم عليه فيفوز القوى، ويتملك الماء ـ ذلك هو أول أسباب الخصام بين القبائل

ثم اهتدى الى الاختزان مما فى يده خوفا من الجوع في غده. واضطر بتوالى الأعوام الى الزرع وتربية الماشية واقتناء الطيور الداجنة، وبعد أن دهمه الجوع مراراً أصبح يخاف القحط قبل وقوعه بأعوام فعمد الى التوسع فى الارضين الخصبة

جره ذلك الى التنازع مع معاصريه من بني الانسان ، وأصبح كل كبير منهم يستكثر من أهل عصبيته ليتقوى بهم على سلب جاره ما بيده من أسباب الحياة ، وهذا هو الغزو بأبسط احواله

فتألفت بذلك العصبيات ونشبت الحروب وأهم أسبابها طمع الانسان فيما يملكه غيره مما يحتاج هو اليه من وسائل العيش . وقد ألف كل كبير جنداً من أهل عصبيته هو زعيمهم وقائدهم يأتمرون بأمره . فلذت له الرئاسة وأحب الاستئثار فزاد ميله الي الغزو والاستكثار من القوة رغبة فى السيادة وهى من ملاذه الفطرية . فأصبحت الحرب يراد بها السيادة فضلا عن اختزان الاقوات . ثم صارت الى مجرد حب السيادة والتوسع فى الفتح طمعا فيما للآخرين ليقال ان فلاناً أقوى من فلان وان مملكته أوسع من مملكة سواه . والسيادة يومئذ للغالبين المستبدين لا دستور ولا نواب وانما يسود القاهر

تعظيم أمر الحرب

فأصبح رجال السلطة من مصلحتهم تحبيب القتال الى رجالهم ، لئلا يضعفوا عن حماية دولتهم . فأخذوا يحسنون الحرب ويعظمون أمرها حتى نصبوا لها التماثيل فى التمدن القديم . ومنها إله الحرب (مارس) عند الرومان كان له شأن عظيم لا يفضله فى المنزلة بين الآلهة عندهم إلا جوبيتير ، وكانوا يعدونه إله الأرض والزراعة والماشية، ولعل الأصل فى هذه المناقب انهم كانوا يحصلون بالحرب على تلك الأسباب الحيوية

أما العرب فانهم عظموا أمر الحرب تعظيما كثيراً ، وجعلوها موضوع مفاخراتهم وحماستهم . وانتحلوا لذلك حججاً ترجع الى حب الذات والرغبة فى الاستئثار بأموال الآخرين بالغزو والسطو . وان ظهرت عندهم بأسماء أخرى كالجوار والوفاء والعصبية والثأر وغيره . فأصبح الرجل منهم يفتخر باثارة الحروب وقتل النفوس كقول عنترة :

خلقت للحرب أحميها اذا بردت　　واصطلى بلظاها حيث أحترق
لو سابقتني المنايا وهى طالبة　　قبض النفوس أتانى قبلها السبق

وهو يفتخر بكثرة ما يسفكه من الدماء حتى تتلطخ قوائم جواده بها كقوله :

ورميت مهرى فى العجاج نخاضه　　والنار تقدح من شفار الانصل
خاض العجاج محجلا حتى اذا　　شهد الوقيعة عاد غير محجل

ويجعلون ذلك في سبيل دفع الذل بنصرة القبيلة أو نحو ذلك كقول مرة ابن ذهل :

وانى حين تشتجر العوالى أعيد الرمح فى أثر الجراح
وأجمل من حيـاة الذل موت وبعض العار لا يمحوه ماح

وجعلوا القتل سبباً من أسباب المجد والشرف قال المتنبي :

ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وان ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

وقوله :

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وأصبح حب السلامة من الرذائل المرغوب عنها على حد قول الشاعر :

حب السـلامة يثنى هم صاحبه عن المعالى ويغرى المرء بالكسل

ولا غرابة فى ذلك ونحن فى هذا العصر نرى الناس يتفاخرون بحضور المعارك وينقلون على صدورهم علامات تخلعها عليهم دولهم تشهد بكثرة ما حضروه من الوقائع الحربية

فأصبح الشعراء اذا مدحوا أميراً جعلوا من أهم مناقبه السفك والقتل والركوب فى الغارات والغزوات ، وهو كثير فى أشعارهم كقول ابن هانىء فى جعفر بن على يصف قومه :

قوم يبيت على الحشايا غيرهم ومبيتهم فوق الجياد الضمر
وتظل تسبح فى الدماء قبابهم فكأنهن سفائن فى أبحر

انظر كيف انهم يحسنون القتل ويفاخرون بكثرة القتلى . فهل يفعلون ذلك خوفاً من الجوع ؟ انما يفعلونه رغبة فى الفخر وحباً فى السيادة . يقتل الانسان أخاه فى الانسانية ليس لأنه يخاف أن يسلبه طعامه كما تفعل الحيوانات المفترسة ونحوها إذ تتقاتل على فريسة ينالها القوى منها ، بل هو يفعل ما هو أفظع من هذا ، ان الناس يتقاتلون ويسفكون الدماء ليقال انهم قتلة ويسوغ لهم أن يكونوا رؤساء تطأطىء لهم الهام خوفاً لاحباً . وإلا فالأرض رحبة والارزاق متسعة والحياة أقصر من أن تقضى فى النزاع على شهرة كاذبة ينالها الانسان بالقتل والسفك ، ولله در المتنبي إذ قال بعد ان طعن الزمان وأهله :

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه وأن نتفانى

وهى حقيقة لا ريب فيها . لكن المتنبي عطف وعاد الى نغمة سائر الشعراء فى الضرب على وتر الفخر والحماسة فقال :

غير ان الفتى يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا
واذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا

أقوال العظماء فى الحرب

ويتبادر الى الأذهان ان الحروب من شأن العصور الاستبدادية لرغبة الملوك فى السيادة فيسوقون الناس الى الحروب ، فيقتل الالوف وألوف الالوف من الابرياء وفيهم النساء والاطفال ليقال ان القائد الفلاني فتح البلد الفلانى عنوة وغلب الأمة الفلانية . وهو عمل لا يمكن تفسيره بغير الجنون الحربى ، أى ان الناس يصابون بجنون فى طلب الفخر كما يصابون بجنون فى طلب المال أو فى التدين أو الكفر أو غيره . قال أحد الفلاسفة : « الحرب داء الأمراء »

وما من فيلسوف ولا عالم لم يطعن فى الحرب وعواقبها ويعنف أصحابها ، حتى القواد وأعظمهم بونابرت فقد قال فى الحرب : « انها عمل وحشى » وقال : « ان القوى الأدبية تنحط فى الحرب حتى تصير نسبتها الى البدنية كنسبة ٣ الى ٤ » وقال ولنتن : « لو شهدت يوماً من أيام الحرب لتوسلت الى الله ألا يريك يوما ثانياً منها » وقال أيضاً : « ليس أفظع من الانكسار فى المعركة الا الانتصار فيها » وقال مونتسكيو : « ان خراب اوربا انما يكون على أيدى قوادها فى الحروب » . وقال نابيه : « ان الانتصار فى الحرب يخفى سيئاتها كما تغطى الحسنات السيئات » وقال لويس نابليون : « ما الحرب إلا أعمال بربرية منظمة وهي من بقايا الهمجية مهما اختلفت مظاهرها وأشكالها »

هل تبطل الحرب

ويذهب بعض الفلاسفة المعاصرين إلى أن الانسان سيصل الى عصر تبطل فيه الحروب ويتآخى الناس فيعيشون برغد وهناء ووفاق . وحجة أصحاب هذا القول أن الارتقاء

والتهذيب مستمران . وبتوالى الأعصر يقتلع من أذهان الناس النزاع والخصام فتبطل الحرب . ولكنه قول مبنى على النظر والخيال . ان الانسان لن يصل الى ما ذكروه ولو توالت الأدهار على تمدينه وتهذيبه . ان التمدن لا يبطل الحرب وإنما ينقلها من صورة الى صورة . كانت أدواتها الفأس والحربة والرمح فصارت البنادق والمدافع والألغام وهى أشد فتكا وأسرع تدميراً . لا تنكر ما للنظامات السياسية من الوسائل المساعدة على تخفيف الحروب بتوسط الدول الأخرى . ولكن هذه لا تتوسط ان لم يكن فى توسطها نفع لها ، وهو الطمع الذى قدمنا انه أقدم أسباب الحرب

إن سبب الحرب الرئيسى التنازع على السيادة كما رأيت . وهو فطرة غريزية في الانسان مبنية على حب الذات . وليس حب الذات خاصاً بطبقة من طبقات الأمم ، وإنما هو غريزة من غرائز الانسان كالجاذبية للاجرام . بل هي فى الأمم المتمدنة أقوى منها فى سواهم لأن العلم يوسع دائرة العقل ويكثر مطالب الانسان فتكثر حاجاته ويضطر للتنازع . على أن الأمم البدوية الباقية على الفطرة مع ما يظهر من إغراقها فى الغزو والنهب فان فى أخلاقها البدوية ما يخفف وطأة تلك المطامع ، نعني الأريحية والنجدة التى يعبر عنها الافرنج بقولهم : « شفاليري » . فكثيراً ما كانت هذه النجدة سبباً فى الكف عن الحرب وحجب الدماء كما تكون سبباً لسفكها

أما المتمدنون من أهل الحضارة فالحرب عندهم مبنية على المطامع الشخصية فقط ولا معرفة لهم بالأريحية أو النجدة . ولهذا قالوا ان السياسة لا قلب لها . فكل أمة أو دولة تنظر الى جيرانها أو معاصريها بعين الحسد ، ولو استطاعت أن تخضعهم جميعاً لسلطانها لفعلت . فهى تتربص حتى تسنح لها فرصة تثب بها على بلد لتوسيع دائرة سلطانها . وهى طبعاً لا تقدم على حرب الا بحجة ، وما أكثر الحجج وأكثرها كاذب، وانما الحجة الحقيقية طمعها فى ذلك البلد ، فاذا طمعت دولة في دولة ورأت فى نفسها القدرة على التغلب انتحلت سبباً للحرب مهما يكن طفيفاً فانها تعظمه وتبالغ فيه وتحشد رجالها للقتال ، تدعوهم اليه باسم الدين أو الوطن أو اللغة أو غيرها من الجامعات التى تعتقد أنها تثير عواطف رجالها . ويختلف ذلك باختلاف الأمم . لكنها فى كل حال تختار من الجامعات ما يوافقها . فان أرادت الاعتداء على أمة من مذهب ديني غير مذهبها وتختلف عنها باللغة أو الوطنية دعتهم باسم الوطن وادعت أنها تحارب فى سبيل الوطن . وهى فى الحقيقة انما تحارب فى سبيل المصلحة الخاصة والمطامع الذاتية .

والمعتدى عليهم يجرون على نفس الخطة فى الدفاع يستنصرون جيرانهم أو أنصارهم بالجامعة التى توافق حالهم

ومن غرائب الحروب الدينية أن أصحابها يلصقون بالدين ما ليس منه فى شيء . وما من دين الا وهو ينهى عن قتل النفس الا فى سبيل القصاص أو الدفاع . ومع هذا فان الجنود المتحاربة لا تتقدم الى ساحة الوغى قبل أن تصلى كل طائفة منها الى ربها وتطلب اليه أن يعينها على الفتك بالطائفة الأخرى . ولا يكون ذلك الا بكثرة القتل . فكأنهم يكلفون الله أن يساعدهم على قتل الأنفس !

خسائر الحرب ونفقاتها

ذلك هو حال الناس من قديم الزمان الى الآن وان اختلفت الصور أحياناً ــ ان الانسان يجيز لنفسه التعدي على جاره اذا آنس فيه ضعفاً عن مقاومته ، فيسلبه أرضه أو استقلاله بحجة يعرف الناس كافة انها كاذبة ولـكنهم يسكتون عنها مع علمهم بما ينجم عن ذلك من الأضرار الفاحشة . ولا يخفى ذلك على المحاربين وفيهم جماعة من كبار الرجال أهل العقول الراجحة . فهؤلاء لا يجهلون ما ينجم عن الحرب من الاضرار ولـكنهم يفضلونها طمعاً في الـكسب ويوجهون ذلك العقل الراجح الى استنباط الوسائل للتغلب وانتحال الاسباب المساعدة على القتل

ان خسائر الحروب لا يمكن تقديرها . وهي لا تقتصر على خسارة الانفس والأموال ، فان هناك خسائر أدبية واجتماعية لا تقل عن تلك . أما خسائر الانفس فانها ظاهرة لا تحتاج الى دليل . يالله من يوم تدور فيه رحى الحرب وتتراكم الجثث على الصعيد . . وويل للانسان فى ذلك اليوم الفظيع !

[عن الهلال سنة ٢٠ صفحة ٩٢]

مجاري الطبيعة

كالقضاء المبرم

نريد بمجارى الطبيعة ما يجرى فى عالم الجماد من الحوادث الطبيعية على اختلاف وجهاتها ومراميها ، من حركات الافلاك الى الظواهر الجوية والجيولوجية ، وما يلحق ذلك من أعمال الحياة فى عالمى النبات والحيوان وفيها الانسان ، وما يترتب عليها من النظامات والاحكام الاجتماعية أو الادبية أو غيرها . فهذه الحوادث الطبيعية جارية منذ الازل على نظام متسلسل الاسباب ، كل حلقة منه مرتبطة بالتى قبلها ، فهى مترابطة متداخلة لا يتيسر للانسان تغيير وجهتها أو التأثير فى مجراها فى شيء

فكما أن الانسان لا يطمع فى أن يحول مسير الشمس أو يوقفه ، ولا أن يمنع المطر من النزول ولا العواصف من الهبوب ، ولا يخطر له أن يمنع ريح السموم اذا هبت أو الزلازل إذا حدثت ، فلا ينبغى له أن يتوهم نفسه قادراً على تغيير مجارى أعمال الاجتماع ونظاماته ، لانها تابعة لتلك أو هى ثمرة من ثمارها . ولايضاح ذلك نقسم الحوادث الطبيعية الى (١) حركات الاجرام (٢) الظواهر الجوية (٣) الحوادث الجيولوجية (٤) الظواهر الحيوية (٥) الظواهر العقلية أو الأدبية . ولنبحث فى كل منها على حدة :

حركات الافلاك أو الاجرام — للاجرام أحكام فى حركاتها وسكناتها يحدث عنها الخسوف والكسوف والعبور والاقتران . وهى قديمة ثابتة بحيث يسهل التنبؤ عن حدوثها قبل مئات من السنين ، وهـذا ما يعبرون عنه بالارصاد أو الازياج . فهذه طبعاً لا يد للانسان فى تغيير شيء من أحكامها ولا يمكنه أن يقف فى طريقها أو يحولها عن مجراها

الظواهر الجوية ـ ويراد بها ما ينتاب أرضنا هـذه من الطوارىء الطبيعية على سطحها من مطر أو سيل أو عاصفة أو حر أو برد أو رعد أو برق ، وأهمها الفصول الاربعة التي تتوالى عليها كل سنة ويترتب عليها اختلاف حال سطح الارض حراً أو برداً وخصباً أو جدباً . والسبب الرئيسى لهذه التغيرات حركة الارض اليومية فضلا عن حركتها السنوية وتفاوت تأثير أشعة الشمس على سطحها . فتوالى الفصول ثابت بثبوت تلك الحركة، ولا حيلة للانسان فى تبديل شيء منها ، بل هو يقف بازاء هذه الحوادث وقفة المحاذر أو المفترض ،اذا نزل المطر استخدم ماءه لرى الارض ونماء الزرع واختزن منه شيئاً لحين الحاجة ، وإذا كان المطر سيولا حتى يخشى منه الغرق صرفه وتجنب أذاه ، وإذا أشرقت الشمس حارة فى الصيف اتقى حرها بالمساكن والمظلات ، وإذا حجبها الغيم واشتد البرد استدفأ بالنار . وقس عليه سائر مجارى الطبيعة فى الظواهر الجوية ، فان الانسان لايستطيع أن يرد سيلا ولا أن يقف مطراً، ولا أن يسكت رعداً أو يرد عاصفة ، وانما هو يحتال فى تجنب أذاها أو الانتفاع بها

كل ما تقدم من الحوادث لا يخالفنا القارىء فى عجز الانسان عن دفعها ، بل هو يعد ذكرها من قبيل تحصيل الحاصل . وهكذا يكون حكمه اذا ذكرنا الحوادث الجيولوجية وبينا عجز الانسان عن ايقاف الزلازل اذا مادت بها الارض ، ومنع البراكين عن قذف ما فى جوفها من الحمم ، أو منع سطح الارض من الهبوط أو النتوء بفعل حرارة باطنها

هذه الحوادث كلها ثابتة لاخلاف فى أن الانسان أعجز من أن يمد لها يداً ، وهى سائرة على نواميس ثابتة متسلسلة الأسباب والنتائج بحيث يمكن التنبؤ عنها قبل حدوثها ولا سيما نظام الافلاك . أما الظواهر الجوية والجيولوجية فلا يزال أكثر أسبابها المتسلسلة مجهولا ، ولـكننا بالقياس على تلك نحتم بأن لها نواميس ثابتة متسلسلة الأسباب لو كشفت لنا لهان علينا التنبؤ عن الأمطار والأنواء والزلازل قبل حدوثها كما نتنبأ عن الخسوف والكسوف

الظواهر الحيوية ـ ونعنى بها ما يطرأ على عالمى الحياة (النبات والحيوان) من الطوارىء الطبيعية كالخصب والجدب والصحة والمرض والحياة والموت . فهذه الطوارىء وأمثالها إنما هى من نتائج الظواهر الجوية ، فالخصب والجدب من ثمار تأثير الشمس على الأرض ، فهى التى تبخر مياه البحار وتصعد بخارها الى الجو ثم يتساقط

مطراً . فاذا قصرت فى ذلك لسبب من الأسباب حصل الجدب ، واذا اعتدلت كان الخصب ، فضلا عما يطرأ على الزرع من الأمراض الوافدة كدودة القطن ونحوها . ولانتشار هذه الامراض أسباب ترجع الى الظواهر الجوية كالرياح والعواصف والحر والبرد ، ولها أسباب متسلسلة لا بد من وقوعها . واعتبر ما يترتب على الخصب أو الجدب من تبدل أحوال الناس من الراحة والتعب والشدة والرخاء

فالنيل اذا شح ماؤه فى بعض السنين ترتب عليه قلة المحصول فتروج المضاربات ويربح بعض الناس ويخسر البعض الآخر، فيترتب عليه كثير من الحوادث الخصوصية فى العائلات والمنتديات ، من خصام أو وفاق من مرض أو صحة وزواج أو طلاق وغير ذلك مما قد يصدر عن تناقل الثروة وفوضى التجارة . كل ذلك راجع الى ظاهرة من الظواهر الجوية البسيطة ، وهى أن المطر عند مصادر النيل كان قليلا فى ذلك العام . وقس على ذلك سائر الظواهر الحيوية التى تبدو أول وهلة كأنها مستقلة عن الحوادث الطبيعية العامة، وانما هى من نتائجها ، فهى إذاً ثابتة لابد من أن تأخذ مجراها أراد الانسان أم لم يرد ، وانما هو يحتال فى مداراتها وتجنبها وقلما يكون له تأثير فى ذلك

فالمرض الذى ينتاب الانسان يظهر أول وهلة أنه عارض وفى الامكان تجنبه قبل حدوثه ، ولكنك عند التأمل فى الاسباب التى بعثت عليه أو جرت اليه تجدها مترابطة بأسباب ومقدمات متسلسلة لا بد من إفضائها الى هذه النتيجة . ولعلك لو استطعت الاطلاع على حلقات هذه الأسباب كلها لرأيتها تتصل بظاهرة من الظواهر الطبيعية التى لا يمكن منعها . فالجرثومة المرضية التى لقحت المريض وأحدثت فيه المرض انتقلت اليه إما بالهواء وهبوبه يرجع سببه إلى وقوع أشعة الشمس على الأرض وهو من الحوادث الفلكية التى لا يمكن دفعها، وإما أن تكون قد انتقلت بيد أو أداة أو وسيلة أخرى لو تتبعناها لرأيناها ترجع الى الحوادث الطبيعية الثابتة

أعمال الانسان

بقى علينا النظر فى الأفعال التى تصدر عن الانسان باختياره ، وهى التى يعبرون عنها بأعمال الارادة وعليها مدار النواميس الأدبية ونظام الهيئة الاجتماعية وروابط الناس بعضهم ببعض ، كالفضائل والرذائل والعلم والجهل والاقدام والخمول وكل ما

يصدر عن العقل أو الخلق أو العادة أو التربية . فهذه تظهر بادىء الرأى ناتجة عن ارادة الانسان ، ولكننا لو تتبعنا علة ما نراه فى الناس من الفضائل أو الرذائل ، وما نرى من تفاوتهم فى العقول والقرائح، لهان علينا الرجوع بتلك الاعمال الى أسباب قديمة . وبيان ذلك أن الانسان صنيعة ثلاثة عوامل رئيسية : الوراثة والاقليم والتربية

الوراثة — ليس الانسان مختاراً فيما يرثه من والديه من القوة والضعف ، من الميل الى الخير أو الى الشر ، من الاقدام أو الخمول . فأعماله من هذا القبيل مقدرة بالنظر الى حال والديه . فهو منذ ولادته قدر له أن يكون كما تقتضيه الخصال التى ورثها من والديه . فلو ورث منهما الذكاء والنشاط والاقدام وعلو الهمة وصدق المعاملة لقدر له أن يكون رجلا عظيما — وإن ظهر له ذلك مظهر الاختيار ، ففاخر أقرانه بجليل أعماله وهو يرى أنه يفعلها بمجرد ارادته فينال العلى بسعيه واجتهاده ، وما هو بالحقيقة الا آلة لما ورثه من والديه ، ولو ورث منهما الضعف والخمول والبله لعاش تعساً مهاناً ضائعاً

ومثل ذلك يقال فيمن ورث من والديه الطمع أو الشره أو الكذب مع ضعف الارادة ،فشب لصاً أو مقامراً أو سكيراً أو قاتلا ، فان حالته تكون مقدرة منذ ولادته ولا ذنب له فى هذه ولا فضل له فى تلك

وقد يتبادر الى الذهن ان الذنب أو الفضل لوالديه لأنهما أورثاه تلك الخصال ، ولكن لا ذنب لهما ولا فضل . لأنهما اما ورثا ذلك كله من والديهما أو ورثا البعض واكتسبا البعض الآخر من الاقليم أو التربية . وهكذا لو تدرجنا فى البحث عن التوارث الى الجد الأول فاننا نرى بعض تلك الخصال موروثاً والبعض الآخر مكتسباً من طوارىء الاقليم أو التربية . فالوراثة خلقية وما ينجم عنها ضرورى ولا سبيل الى دفعه

الاقليم — وللاقليم تأثير كبير فى أخلاق الانسان وأعماله ، وهو يشمل كل ما يحيط به من البيئة كالحر والبرد والخصب والجدب ونوع المعيشة ، أو ما يطرأ عليه من العوارض المؤثرة فى بدنه أو عقله مما يغير خلقه أو يضعف بعض أجزاء دماغه أو يقويها فتظهر نتائج ذلك فى أعماله

والانسان منذ تصوره في الرحم عرضة للتأثيرات الخارجية . فيولد وللاقليم آثار فى جسمه وعقله ، ويشب فتظهر تلك الآثار فى أفعاله حتى لقد تغير أحكام الوراثة .

إذ كثيراً ما يكون الوالدان من أهل الفضل والنبل فيولد لهما ولد شرير اكتسب ميله الى الشر من تغيير أصاب مجموعه العصبي وهو جنين أو طفل . وأعمال الانسان مرجعها الى الدماغ فتكون كما يكون هو . والاقليم مجموع ظواهر طبيعية أسبابها متسلسلة الى الأزل ، فما ينتج عنها يعد أزلياً أى أنه مقدر حدوثه منذ الازل

نزلت صاعقة فى قرية فأجفل منها أهل القرية وارتعبت النساء وبينهن حامل عصبية المزاج فتأثرت تأثراً ألقاها مغشياً عليها واختبطت أحشاؤها فأثر ذلك فى دماغ الجنين ففسد فيه مركز الارادة فولد الطفل ضعيف الارادة ونشأ عرضة للشرور والمفاسد . فكل ما يفعله راجع الى سببين أحدهما الضعف من والديه وهو وراثى وقد تقدم الكلام على قدمه . والثانى طارىء من ظواهر الاقليم وهو قديم أيضا باعتبار ان الصاعقة نتيجة تفاعل طبيعى متسلسل الاسباب الى الازل كسائر الظواهر الجوية . وكثيراً ما تأول تلك الصدمة الى تنويع دقائق الدماغ تنويعاً يحدث فى العقل ميلا الى بعض الفضائل كالعلم أو الدين أو عمل الخير أو نحو ذلك

التربية — وللتربية تأثير فى أخلاق الناس وعقولهم ، وهي تمتاز عن العاملين السابقين بأنها ليست عاملا خارجياً كالاقليم والوراثة ، بل هى من اعمال العقل وتكاد تكون اختيارية ، ومعنى ذلك ان الذين يربون أولادهم لتقويم عوجهم او ينشئون المدارس لتثقيف الشبان وتعليمهم او يسنون الشرائع لتهذيب الامم وردع الناس عن الشرور إنما يغيرون شؤون المجارى الطبيعية ،فينوعون بعض ما كان من آثار الوراثة أو الاقليم . فالتربية تظهر بهذا الاعتبار انها ليست من العوامل الازلية التى تصح ان يقال عن نتائجها ازلية بل هي مقاومة لتلك العوامل

ونريد بالتربية كل الوسائل المؤدية الى إصلاح شؤون الهيئة الاجتماعية وتنظيمها وتخفيف متاعب الانسان . اهمها التعليم بأنواعه كالتعليم الطبيعى والدينى والادبى والسياسى والقضائى . ويدخل فى ذلك وضع الشرائع والقوانين والبحث فى المرض والعلاج والاكتشاف والاختراع والتدريب على الصنائع والفنون والزراعة والتجارة وغيرها

ولو اعدت النظر فى أهم وسائل التربية وهى العلم والدين والقضاء لرأيت الغرض الاساسى منها تهذيب النفس وردع المرء عن الاستسلام الى الشهوات . والشهوات أصل الشرور ومصدر الضرر العام . فان كلا منا يشعر عند التأمل انه مؤلف من

عنصرين متضادين أحدهما حب الذات ، وهو ميل الانسان الى اكتساب كل شيء لنفسه ، وهو نوعان الشهوات البدنية كالطعام والشراب وغيرهما ، والشهوات النفسية كالطمع والحرص وحب الفخر وغيرها . والعنصر الثانى العقل وهو القاضى العدل والفيلسوف الحكيم ينظر الى الشهوات من عرشه السامى ويهزأ بضعف الجبلة البشرية ويسعى فى اصلاح ما أفسدته ، فيضع الشرائع والاحكام قيوداً تكبح جماحها ، ويشير بالتعليم والتهذيب تخفيفاً لويلاتها ويرشدها الى الدين فيمزجه بالوعيد إرهاباً وتهديداً

فالعقل هو المصلح الكبير وطريق الاصلاح التربية بأعم معانيها . فهل أعمال العقل تابعة لمجارى الطبيعة ؟ وكيف تكون كذلك وغرضها فى الأكثر مقاومة الحوادث الطبيعية ؟ وهنا يقف الفكر حائراً والذهن مرتبكا . وسبب الارتباك قصورنا عن ادراك ماهية العقل . على أننا لا نعدم باباً نرى فيه حلا لهذه المعضلة . وذلك أننا اذا كنا لا نعرف ماهية العقل فاننا نعرف تأثير الطوارىء الطبيعية عليه كتأثيرها على سائر القوى ، وإن لم يقع ذلك التأثير عليه رأساً فهو واقع على آلته « الدماغ » فيتغير بما يؤثر عليه من ماجريات الطبيعة

وجملة القول أن الحوادث الطبيعية على اختلاف نتائجها ومراميها كالقضاء المبرم لا سبيل الى دفعه أو تبديله . فحركات عالم الجماد ـ وهى تشمل الحوادث الفلكية والجيولوجية والظواهر الجوية ـ لا خلاف فى أنها مترابطة الاسباب تجرى على نواميس ثابتة لا مرد لها ، وظواهر عالم الحياة وما يدخل فيها من الطوارىء على الاحياء ، وما يترتب على ذلك من المرض والصحة والخصب والجدب ، قد رأينا أنها ملحقة بتلك الحوادث . وأما ظواهر أعمال الانسان فانها داخلة تحت هذا الحكم مبنية على تفاعل الاقليم والوراثة ، وكلها ترجع الى الظواهر أو النواميس الحيوية . فما يحدث منها لا بد من حدوثه ، وما شأن من يحاول دفعه إلا شأن من يحاول أن يرد سيلا جارفاً أو يوقف مطراً متساقطاً

واعتبر ذلك فى المسائل الكلية والجزئية على السواء . فالنظام الاجتماعى كما وصل الينا بما فيه من الرئاسات الدينية والسياسية وما يتخلله من قواعد الزواج والتوارث وغيرهما انما هو ظاهرة من ظواهر الحياة الانسانية ، ولكنها نتيجة مجارى الطبيعة العامة ، وأساسها تفاوت الناس فى القوى البدنية والعقلية منذ الولادة باختلاف تأثير الاقليم وغيره على أمهاتهم مع فطرة الانسان على حب الذات وطلب الرئاسة والتغلب

على سواه . وقد انتقد دعاة الاشتراكية هذا النظام وحاولوا إبداله غير مرة من عهد افلاطون والمدينة التى أشار بانشائها على النظام الجديد ، الى توماس مور المتوفى سنة ١٤٧٨ صاحب جزيرة أوتوبيا التى جعل نظامها مثالا لما يجب أن يكون عليه نظام الاجتماع على زعمه ، الى جون نويس صاحب مدينة الاونيدة بجوار نيويورك سنة ١٨٤٤ ، الى غيرهم ممن لم يعجبهم نظام الاجتماع ، فأشاروا بابداله ولم يفلحوا ولن يفلحوا ، لأن آراءهم تخالف مجارى الطبيعة ولو جاروا الطبيعة مع بعض التنقيح أو التدبير لأفلحوا

واعتبر ذلك أيضاً فى الحوادث الجزئية ، فان المرض اذا انتاب الانسان لا بد أن يسير سيره الطبيعى ، وليس فى طاقة الطبيب أن يوقفه أو يحوله عن مجراه ، وما العلاج الذى يصفه الا حيلة يتعلل بها ريثما يأخذ المرض مجراه الطبيعى وينتهى إما بالشفاء أو بالموت

السعى والتوفيق

ويستنتج مما تقدم الجواب عن سؤال كثيراً ما يطرح على بساط البحث وهو : « هل يتوقف نجاح الانسان على سعيه أكثر مما يتوقف على الأحوال أو ما يعبرون عنه بالتوفيق ؟ » وقد رأيت مما تقدم أن الأحوال هى الأصل ، أعنى مجارى الطبيعة فسعى الانسان للرزق مثلا يقتضى أولا وجود الأسباب المساعدة على العمل . فاذا كان مزارعاً فلا ينفع سعيه إلا أن يكون هناك حقل يزرعه ، والتاجر لا فائدة من سعيه ان لم يجد سلعاً ينقلها ويبيعها ، والصانع لا تنفع صناعته ان لم يجد المواد التى يصنع منها السلع ونحوها . فهذه كلها من نتائج الحوادث الطبيعية ولادخل لارادة الانسان أو سعيه فيها . وهى قواعد ارتزاقه فضلا عما قد يعترض سعيه فى أثناء عمله من الطوارىء الطبيعية من جدب أو خصب أو مرض أو صحة أوحرب أو نوء أوعاصفة تقف فى سبيل سعيه أو تمهد له أسباب النجاح ، فهذه لا دخل له فى وجودها وانما هو يحتال فى تدبيرها بحيث ينتفع بها أو يجتنب أذاها . وهنا يتفاوت الناس فى اقتدارهم على تدبير تلك الاحوال ومقدار ما يستخرجون من نفعها حسب تفاوتهم فى مساعيهم ومواهبهم ، حتى هذا فانه من جملة الحوادث الطبيعية لأنه ناتج عن مزاج طالب الرزق ودرجة قواه العاقلة وهما من ثمار الاقليم والوراثة والتربية كما تقدم فلا حيلة له فيها

ومع ذلك فالانسان يشعر بأنه حر الارادة وانه مسئول عما يعمل ، وعلى هذا الشعور وهذه المسئولية يتوقف نظام الهيئة الاجتماعية وشرائع الامم ، وبدونهما يكون الوجود بجملته عبثاً . فلا بد أن يكون للعقل نوع من الاستقلال فى أعماله مع تأثره بالعوامل الخارجية . على أن ما يتأثر بتلك العوامل آلته وليس هو . فما يظهر من الخلل فى أعماله لم يتطرق الى جوهره . ويؤيد ذلك أن الانسان لو تتبع تاريخ احكام عقله على شهواته منذ حداثته إلى كهولته لرأى العقل والشهوات فى حرب دائمة ، وأن العقل يقوى على الشهوات بتوالى السنين ، حتى اذا أدرك الشيخوخة تمت له السيادة فيصبح بعيداً عن الخطأ قليل السقوط لان العناصر المقاومة لاغراضه ضعفت أو انحلت . ولا يعترض على ذلك بما يصيب العقل من الخرف فى الشيخوخة فان الضعف حينئذ فى الدماغ وليس فى العقل نفسه . ونرى من ثبات العقل فى أحكامه على اختلاف أطوار الحياة انه شىء غير المادة وأن له نوعا من الاستقلال يجعله مسئولا عن أعماله . لأن حكمه على الشهوات منذ الشبوبية الى الشيخوخة واحد . واذا غلبت هى عليه فى الشبوبية فلأنها حينئذ أقوى منه ، وقد يطاوعها هو أو يساعدها لكنه يفعل ذلك وهو يعتقد أنه يفعل خطأ

[عن الهلال سنة ١٩ صفحة ٣٣]

هل فى الوجود عالم آخر

لا يخفى ان البحث فى المعاد من أقدم بحوث الانسان . وما من أمة ارتقت مداركها الا فكرت فى مصيرها بعد الموت . وذهب الاكثرون الى أن فى الوجود عالماً آخر ينتقل اليه أهل هذا العالم يعاقبون فيه أو يثابون . وقد أسندوا أحكامهم الى العلم المعروف عندهم ، ولذلك كانت كتب الأقدمين مشحونة بالأدلة المبنية على فلسفتهم وعلومهم مما لا نفهمه لبعد مصطلحاتهم عن مصطلحاتنا واختلاف قواعد علومهم عن قواعد علومنا . كان مدار الأقدمين فى إثبات المعاد على البراهين الجدلية التى هى من قبيل علم الكلام ، وأكثر المعول فيها على الألفاظ . أما اليوم فان علومنا مبنية على المحسوسات ومرجعها الى العلوم الطبيعية المؤيدة بالتجارب التى لا يبقى معها مجال للريب . ولا يمكن الاستدلال على هذه الحقيقة بطريق هذه العلوم وهو عمل شاق لا يتيسر الوصول اليه ، ولكنا نبحث فيه على سبيل الاستنتاج العقلى دون أن نتوقع وصولنا الى برهان صريح

يختلف النظر فى هذا الموضوع عنه فى مسألة الأرواح . ان هذه لا نرى اثباتها ضروريا لتكملة النظام ، وأما الخلود والمعاد فوجداننا يدل على حاجة الطبيعة اليهما . إذ لا يمكننا أن نتصور هذا الوجود صائراً الى العدم . واذا كنا قد أتينا هذا العالم لنقضى فيه أياما ثم نتلاشى كان وجودنا عبثاً وكانت الخليقة برمتها ألعوبة لا معنى لها ولا فائدة منها

واذا بحثنا فى المعاد والخلود بالنظر الى العلم الطبيعى لا نراهما يخالفان النواميس الطبيعية ، لأن الخلود خاصة من خصائص مادة هذا الكون ، إذ قد ثبت بالكيمياء والطبيعيات ان المادة والقوة وهما أساس الموجودات لا تتلاشيان ، وإنما تتحولان من صورة الى صورة باختلاف التركيب والتحليل على نسب متفاوتة . وما الموجودات

على اختلاف أحوالها من الجماد والنبات والحيوان الا من ظواهر ذلك التحول . فمقدار المادة أو القوة فى هذا الكون واحد منذ الخليقة الى الآن ، وسيبقى كذلك الى الأبد لا يزيد قمحة ولا ينقص قمحة . فاذا كان الخلود من خصائص المادة الأصلية المكونة منها الموجودات ، فهل يستحيل أن يلازمها فى بعض صورها ؟

بقى أن ننظر فى هل هناك عالم آخر غير هذا يجرى فيه العقاب أو الثواب ؟ ويدلنا النظر فى نظام الموجودات ان هذا العالم الذى نحن فيه لا يكون تاما أو معقولا الا اذا فرضنا عالماً آخر متصلا به يكون متمماً له . واليك البيان :

اذا تدبرنا حوادث الطبيعة رأيناها تجرى على قواعد ثابتة ضمن حدود معينة ، فالسيارات تجرى فى أفلاكها بأزمنة ومسافات محدودة بنظام تام بحيث نستطيع التنبؤ عن مسير كل منها وتعيين المكان الذى يبلغه بعد مائة أو الف سنة أو أكثر . ونعرف أوقات الكسوف والخسوف بالدقيقة والثانية والثالثة . ونرى الفصول الأربعة تتوالى بأوقاتها على نظام معلوم . واذا نظرنا الى سائر الحوادث الطبيعية لا نعدم لها تعليلا يرتاح اليه العقل ويستنير به الذهن . فاذا تساقط المطر علمنا أنه بخار الماء الذى تصاعد بحرارة الشمس عن سطوح البحار ثم تكاثف ببرد الجو فعاد ماء وتساقط مطراً ، ثم يجرى جداول وأنهاراً تصب فى البحار فترجع الى حيث أتت ، فتعود الشمس فتبخرها فيتصاعد بخارها فى الجو حتى يتكاثف بالبرد وينزل مطراً وهكذا على توالى الأدهار

واذا أشعلنا شمعة حتى احترقت كلها علمنا أنها لم تتلاش ، ولكنها تحولت الى مواد غازية لا تدركها أبصارنا . واذا استقبلنا حبلا من نور الشمس بموشور فانحل الى ألوان النور السبعة علمنا أن النور مؤلف من هذه الألوان ، واذا مزجناها عاد النور الى ما كان عليه

ولو صببنا حامض الكبريتيك على كربونات الكلس لا نرتاب مطلقاً أن المركب الحاصل من ذلك انما هو كبريتات الكلس وقد أفلت غاز الحامض الكربونيك فى الهواء . ومثل ذلك يقال فى سائر التفاعلات الكيمياوية فان نواميس تركيبها وتحليلها من أدق النواميس وأضبطها . وشاهد النظام فى ذلك انك اذا عمدت الى عمل تنبأت عن عواقبه قبل وقوعه ، أو لو رأيت حادثاً استطعت تعليله بما يرتاح اليه عقلك ولا يبقى لديك مكان للابهام أو الالتباس

واعتبر ذلك فى ظواهر الحياة ، فاننا اذا غرسنا بزرة زيتون في الأرض علمنا يقينا أنها لا تنبت الا زيتونا ، وبزر الليمون لا ينبت الا ليموناً ، وهكذا فى سائر أنواع النبات. ونعلم يقيناً أيضا ان النبات لا يولد حيواناً ولا الحيوان نباتاً . وان لكل نوع من النبات أو الحيوان عمراً لا يتعداه . وفى أعمال الحياة نواميس جارية بغاية الدقة ، فالحيوان يتولد من جنين والجنين من بيضة وكل ذلك بنواميس جلية يرتاح اليها العقل . ولو أردنا تعداد الامثلة لضاق بنا المقام

فالنظام شامل للكائنات، وهى مرتبطة بعضها ببعض بسلاسل من الأسباب والنتائج، لا يسع العقل الا التسليم بها والرجوع اليها . فاذا سقط حائط على مار فقتله ظننا أول وهلة ان ذلك حدث بالمصادفة ، ولكن المصادفة اسم لا معنى له لأن الحائط لم يقع الا بعد أن أثرت فيه فواعل الرياح والحرارة والمطر أعواما ، والريح لم تمر به الا مدفوعة بعوامل طبيعية معلومة اقتضتها نواميس الرياح المقررة . والرجل لم يمر بجانب ذلك الحائط الا لأسباب اقتضت مسيره ، ولو بحثت عنها لرأيتها مبنية على نواميس طبيعية راهنة لا مناص له منها . واذا مات واحد بغتة يتبادر الى ذهننا أن موته كان مصادفة أو لغير سبب ، ولكنا لو فتحنا الجثة لوجدنا فى بعض أعضائه الرئيسية مرضاً تمكن به لأسباب مبنية على نواميس طبيعية

وخلاصة القول اننا نرى الحوادث الطبيعية مما يتعلق بالمادة والقوة على اختلاف مظاهرها ، جارية بكل دقة ونظام ، ولكل منها نواميس وقواعد وتعاليل يرتاح العقل اليها ويعجب بدقة نظامها وصحة مقدماتها ونتائجها

ولا نزال نرى ذلك النظام مرعياً حتى نصعد من الأعمال المادية الى الحوادث النفسية المعنوية ، أو الأدبية المتوقفة حسب الظاهر على الحوادث الطبيعية ، فنرى فيها نقصاً أو خللا يقف بنا حيارى لا نعلم وجه الحكمة أو العدل فى وقوعه

فاذا أصيب أحدنا بمرض وتمكن فيه حتى قضى نحبه ، فلا نعدم وسيلة فى تعليل سبب المرض وكيفية الوفاة والرجوع فيه الى نواميس طبيعية مقررة . واذا أصابت أحدنا مصيبة من فقر أو شقاء لا نعجز عن تتبع ذلك الى أصوله وأسبابه ونعلله تعليلا يقبله العقل . وكل ذلك راجع الى النواميس الطبيعية المتعلقة بالمادة والقوة . ولكنا لو نظرنا الى مجمل هذه الحوادث من وجهها الأدبي أو قسناها بمقياس العدل أو حاولنا تطبيقها على أحكام العقل ، لرأينا فيها خللا أو نقصاً لا يزيدنا الا جهلا ولا

يزداد بحثنا فيها الا تعقيداً حتى يقودنا الى الشكوك وتضارب الظنون

ولايضاح المراد نقسم حوادث هذا الكون الى مادية ، وأدبية ، أو معنوية . فالحوادث المادية نريد بها ما هو جار من تفاعل المادة والقوة كالحوادث الفلكية والظواهر الجوية والأفعال الكيمياوية ونواميس النمو فى النبات والحيوان وما جرى مجرى ذلك من الحوادث الجارية فى الطبيعة . ونريد بالحوادث الأدبية أو المعنوية أفعال النفس بالنظر الى أحكام العقل على ما يظهر لنا من مجمل حوادث هذا الكون ونسبتها الى ما نشعر به أو نتوقعه من الحكمة فى الخلق . ومن أمثلة أعمال النفس المشار اليها حكمنا على بعض الحوادث من حيث انطباقها على العدل أو الشفقة أو الحنو أو عدم انطباقها . مثال ذلك اذا سمعنا أو قرأنا أن رجلا قتل ابنه عمداً فاننا نشعر بانقباض ونتمنى الانتقام من القاتل ولو كنا لا نعرفه أو لم يكن لنا علاقة بالمقتول . وبالعكس اذا سمعنا أن رجلا انتصر لمظلوم فأنجده وأنقذه من يد ظالم ، فاننا نشعر بارتياح الى هذا العمل ونرى فى أنفسنا ميلا الى الفاعل رغبة فى الثناء عليه أو مكافأته ، فيدل ذلك على أن فى طبيعتنا قوة نقيس بها الحوادث المعنوية ونحكم بصوابها أو خطئها بلا تعليم ولا تدريب . فوجود هذه القوة الفطرية فينا يقتضى انطباقها على سائر القوى

واذا تأملنا فى ماجريات هذا الكون نرى المادية منها منطبقة على أحكام العقل ونرى فى أنفسنا ارتياحاً اليها لأنها جارية على نواميس مقررة مرتبط بعضها ببعض بنظام معلوم وعلى وتيرة واحدة بحيث إذا علمنا مقدماتها تنبأنا بنتائجها بناء على علمنا أن للسبب الواحد نتيجة واحدة دائماً

أما الحوادث الأدبية المعنوية أو النفسية فعلى خلاف ذلك ، وقل أن نرى فيه ما ينطبق على أحكام العقل أو ترتاح اليه النفس . مثال ذلك رجل قضى حياته فى عمل البر والاحسان إلى الفقراء واعالة المصابين ، عاملا على التقوى والورع ، ونرى النكبات مع ذلك تتوالى عليه والضيق يحدق به فلا يكاد ينسى مصيبة حتى يصاب بأخرى ، فيقضى حياته آسفاً كئيباً وربما مات كمداً وحزناً . ورجل لا ديدن له إلا ارتكاب المحرمات واتيان الموبقات لا يفتر عن الأذى والظلم ونرى الخيرات تنهال عليه والسعد يخدمه فيقضى حياته سعيداً متمتعاً بملاذ الدنيا ونعيمها !

وهناك فتى غض الشباب يانع الفؤاد ذكى فطن يتوقع الناس منه خيراً وهو راغب فى خدمة بنى الانسان أخذ يهيىء نفسه وآماله واسعة وصدره رحب وقلب

والديه عالق به يعدان الساعات لجنى ما غرســاه فيه من العلوم والأدب للتمتع بثمر اتعابهما . ولـكنه لا يكاد يبدأ بالعمل حتى تدهمه المنية فيقضى نحبه فتضيع بموته الآمال ويذهب تعبه واستعداده أدراج الرياح !

وهناك شاب آخر ينشأ على المنكرات وأذية أهله ومعارفه فيطلب الناس موته ويتمنون قضاء نحبه ، ولـكنه يعمر طويلا ويتمتع بثمار تعبه وربما بتعب سواه !

وهناك طفل ولد مريضاً بمرض ورثه عن والده فقضى حياته (القصيرة) يقاسى من العذاب من المرض حتى مات وهو لم يقترف ذنبا . وقد يتفق أن والده الذى جر عليه هذا الوبال لم يقاس من عواقب مرضه امرأ يسوءه . وآخر ورث عن والده ثروة طائلة وصحة جيدة فعاش فى رغد ورخاء متنعماً منغمساً فى الترف عاكفا على الملاهي ، وقد يكون شريراً فيستخدم أمواله ونفوذه للاضرار بالناس . وآخر ورث عن والده الفقر أو مات والده مدينا وقضى هو كل حياته يعمل ويجد لوفاء الدين حتى مات من عظم الشقاء والبلاء !

وهناك أرملة أحبت البقاء من أجل ولد وحيد ربته بدموع عينيها وعمل يديها منذ دب إلى أن شب ، اذا مشى راقبته عيناها أو تكلم خفق له قلبها واذا تبسم انتعشت جوارحها واذا غاب شيعه عقلها ، فاذا دنت ساعة عودته جعلت تطل من النوافذ وقد شاعت عيناها ، وكلما رأت شبحاً ظنته ابنها فلما أبطأ قليلا خارت قواها وجثت تصلى وتطلب الى الله أن يحرســه من نائبات الزمن ، فاذا عاد نسيت كل أتعابها وقامت بخدمته تحمد الله على نعمه . فلما شب لم يعد همها الا الاهتمام بزواجه فكلما رأت فتاة نظرت اليها من وجه المناسبة بينها وبينه ، وهي تظن أن ليس فى الدنيا فتاة تليق بابنها ، حتى وقع اختيارها واختياره على عذراء تنطبق أوصافها على ما يريدان ، فخطبتها له وأخذت تعد معدات العرس فاستقدمت الفراشين والنجارين وابتاعت أحسن الاثاث وهي تعد الايام والساعات منتظرة يوم الفرح وهى فى ذلك أصيب العريس بمرض لم يمهله ليلة فقضى وترك والدته فى حال أنت أدرى بها !

وهذا خريستوفورس كولومبوس مكتشف أميركا جاء العالم بخدمة لا تعادلها خدمة ، ولـكنه قضى حياته فى الخطر والمشقة ، ومات حزيناً يائساً . وكم من المخترعين والمكتشفين الذين يذيبون أدمغتهم وينهكون أجسامهم فى البحث والتنقيب حتى

يخترعوا آلة أو يكشفوا مخبأ ، ولكنهم يموتون من عواقب الشقاء والتعب وهم لم يذوقوا ثمرة أعمالهم !

هذه أمثلة قليلة تذكر القارىء بحوادث كثيرة أغرب منها ، سمعها أو شاهدها ، وكلها تدل على اختلال الحوادث الأدبية وعدم انطباقها على أحكام العقل وشعور النفس . فهذه الأمثلة ونحوها لا تدل على نظام عاقل، ولا نرى فيها حكمة أو رابطة كما نرى في الحوادث المادية ، لأن أحكام عقولنا تقضى على فاعل الخير بالخير وعلى فاعل الشر بالشر وتعلمنا الشفقة على المصابين والحزانى ونصرة المظلومين والنقمة على الظالمين مما لا نراه فيها

فنظام هذا الكون يدل على حكمة فائقة في وضعه ، ونرى آثار هذه الحكمة في كل عمل من الاعمال المادية . أما الأعمال الأدبية فقلما نرى حكمة فيها ، فيظهر أن فى هذا النظام نقصاً من جهة معلومة هى الحوادث الأدبية أو المعنوية . ولا يعقل أن الذى أوجد هذا النظام المحكم أراد أن يكون فيه نقص أو ظلم أو اجحاف الا أن يكون قد جعل لهذا الكون تتمة تسد هذا النقص . ولا يمكن أن يكون ذلك الا فى عالم آخر نظامه متمم لهذا . وبما أن ذلك النقص متعلق رأسا بالانسان فلا يسد الخلل الا اذا وجد الانسان فى ذلك العالم وهو لا يكون هناك الا مبعوثا ، وهو المعاد

فهل فى الحوادث الطبيعية ما ينافى هـذا القول ؟ وهل يترتب على فرض المعاد مناقضة لنظام الكون المعروف ؟ كلا . لأننا لم نستطع حتى الآن ادراك حدود هذا الكون ولا الزمان الذى وجد فيه فكيف يمكننا الحكم قطعياً على ما وراءه أو على مالا يقع تحت حواسنا منه ، ومثلنا فى ذلك مثل رجل مغمض العينين حمل الى حديقة ثم رفع الغطاء عن عينيه فمشى فى الحديقة فاذا هى محاطة بسور عال لا يمكنه أن يتعداه ولا أن يرى ما وراءه ، فلو جاءه مخبر بأن وراء هـذا السور بحراً أو براً أو وادياً أو جبلا أو مدينة ، فلا يمكنه أن يكذبه ولا هو مكلف بتصديقه حتى يعتقد صدق قوله الا اذا أقام له دليلا يقبله عقله

فوجود العالم الآخر لا ينافى نظام هذا العالم بل هو متمم له كما تقدم

[عن الهلال سنة ١٧ صفحة ٤٧٠]

الحب والجاذبية

ما هي الجاذبية

هي قوة من القوى الطبيعية ملازمة للمادة لا تنفصل عنها بسبب من الأسباب . وبالجاذبية تطلب كل دقيقة من دقائق المادة وكل جسم من أجسام الكون على اختلاف أشكالها واقدارها الاقتراب من الأجسام الأخرى . وبها تستقر الثوابت فى أماكنها وتدور السيارات فى أفلاكها ، وبالجاذبية تتماسك أجزاء المادة بعضها ببعض ، وبها تتقارب تلك الأجسام فتتألف الاجرام ، وبها تمتص الجوامد السوائل أو الغازات فيتداخل بعضها فى بعض ، وبالجاذبية تتحد العناصر فتتألف منها المركبات على اختلاف خصائصها وصفاتها . فهى بهذا الاعتبار تبدو لنا على سبعة أشكال

(١) جاذبية الأفلاك وبها تتوازن الاجرام السماوية فيحفظ كل منها مكانه اما ساكناً وإما متحركا

(٢) جاذبية الالتصاق وهي تجاذب دقائق المادة الواحدة بعضها الى بعض كتجاذب دقائق الخشب أو دقائق الحجارة أو الماء أو غيرها وبها يحفظ كل جسم قوامه وشكله

(٣) جاذبية الملاصقة وهى تجاذب أجسام مختلفة المادة والشكل فتلتصق معا كتجاذب الخشب والغراء أو تماسك الطين والحجر

(٤) الجاذبية الشعرية وهي القوة التى يمتص بها الجامد جسما سائلا كامتصاص الاسفنج أو الخشب أو الحجارة للماء أو نحوه من السوائل . أو غازاً كامتصاص الماء للهواء

(٥) الجاذبية الكيمياوية ويسمونها أيضاً الالفة الكيمياوية وهي القوة التى

تتحد بها مواد مختلفة فتولد مركبات جديدة كاتحاد الفضة والحامض النتريك فيتولد منهما نترات الفضة (حجر جهنم)

(٦) الجاذبية المغنطيسية أو الكهربائية وهى قوة جاذبة تظهر فى حجر المغنطيس أو تتولد فى المجارى الكهربائية

(٧) جاذبية الثقل وبها تقاس أوزان الاجسام باعتبار جذب الارض لها

هذه هى ضروب الجاذبية ومرجعها كلها الى الجاذبية العامة المستقرة فى دقائق المادة ، فان كل دقيقة منها تجتذب ما حولها فتجعل نفسها مركزاً والكون كله دائرة حولها . ومن تبادل هذا الجذب فى الدقائق كلها تتألف الاجسام على اختلاف كثافتها ومقاديرها ، ومتى تألفت الاجسام الصغيرة أصبح كل جسم بنفسه مركزاً جاذباً لما حوله حتى يتألف من الاجسام الصغيرة جسم كبير كالارض مثلا وسائر الاجرام ، فان كلا منها مركز من مراكز الجذب يجتذب الاجرام الاخرى اليه . وقد تتألف الاجرام على شكل مجموعات تجتذب مجموعات أخرى ، فان النظام الشمسى مؤلف من عدة اجرام كل منها يجتذب الآخر ، وهى كلها معاً تجتذب النظامات الاخرى وهكذا الى ما لا يدركه العقل

ما هو الحب

اختلف العلماء فى تحديد الحب وتقسيمه وتعليله وأطالوا الجدال فيه مما لا حاجة بنا اليه ، لأننا انما نختار من طرق البحث أبسطها وأسهلها لئلا نجر القارىء الى غياهب التعقيد والتشويش مما لا فائدة منه . فالحب غريزة فطرية فى الانسان تتألف بها القلوب ويتم بها الاجتماع البشرى ، وهى أنواع تتباين مظاهرها وإن كانت ترجع كلها الى مبدأ واحد . واليك أنواعها :

(١) حب الذات وهو أساس كل حب ومنه المبدأ واليه المصير . فان كل انسان يحب ذاته فوق كل شيء ، حتى الحيوان والنبات ، فان فى كل فرد من أفرادهما ميلا لاكتساب كل شيء لنفسه وهو حب الذات

(٢) حب البنين والاقارب وهو يمتاز عن حب الذات ولكنه يليه فى المرتبة ، فان الانسان يحب ذاته أولا ثم أولاده فأقاربه

(٣) حب الاصدقاء والمعارف والجيران

(٤) حب الوطن والملة والمذهب
(٥) الحب العام وهو ميل الانسان الطبيعي الى الاجتماع والاستئناس ببنى جنسه
(٦) الحب الجنسي وهو الميل المتبادل بين الاناث والذكور . وهو ضرب آخر لا يقاس بغيره من ضروب الحب

واذا دققنا النظر في كل هذه الأنواع وبحثنا فيها بحثا تحليلياً ، رأيناها ترجع الى نوع واحد منها هو حب الذات ، فان حب الانسان نفسه يحمله على حب أبنائه وأهله وأصدقائه ووطنه ودولته بل هو أصل الاجتماع ومرجع آمال الانسان

فالانسان بحب الذات يطلب لنفسه كل لذة ومنفعة ، ثم يطلب ذلك لأقرب الناس اليه فينشأ نظام العائلات ، فاذا تألفت العائلة وأصبحت جسما واحداً يجتذب الخير له بلا نظر الى استقلال أفراده فيتكون من تآلف العائلات وسائر الجماعات جسم آخر كالأمة أو الملة أو الطائفة من أى مذهب . ولكل أمة أو طائفة دواع مشتركة بين أفرادها يطلبون بها النفع لهم جميعاً باعتبار المجموع بلا نظر الى العائلات أو الافراد ، ويحصل بين الدول أو الأمم صداقة أو محبة هي غير أنواع الحب الاخرى ولكنها ترجع كلها الى حب الذات

بقي علينا الحب الجنسي وله مزية أخرى تميزه عما سواه ، فهو كثيراً ما يكون قهريا غير اختياري ، وإن يكن في أوله اختيارياً ، على أنه راجع مع ذلك الى حب الذات . لأن الرجل يرى في حبه المرأة ارتياحا تتطلبه نفسه فاذا أحبها إنما يجيب هوى نفسه

فاذا اتضح كل من ضروب الحب والجاذبية على حدة ، آن لنا أن نبين أوجه المطابقة أو المقابلة بينهما . فلننظر أولا في أوجه المشابهة بينهما بوجه عام فنرى للجاذبية ناموساً مشهوراً هو « أنها تزداد قوة بازدياد القرب بين الاجسام المتجاذبة » والحب كذلك ، فهو يكون على أشده بين الأقربين ويقل كل ما بعدت العلاقة ، وزد عليه أنه لا يحصل بين الغرباء إلا بالمعاشرة والمزاولة وهي تقوم مقام القرب . ومن نواميس الجاذبية أن كل دقيقة تجتذب ما حولها لنفسها ، والحب يقضي على كل فرد أن يجتذب ما حوله اليه ، وإذا رأيت في اجتذاب الحب تمييزاً بين النافع والضار ، فاعلم أن ذلك الاختيار انما هو من أعمال العقل . ولو ترك الحب وشأنه لاجتذب كل شيء نافعاً كان أو ضاراً

وترى تلك المشابهة متسلسلة في ضروب كل من الحب والجاذبية على نسبة واحدة . فحب البنين يقابل جاذبية الالتصاق وحب الاصدقاء والجيران يقابل جاذبية الملاصقة ، والتحاب بين الدول يشبه جاذبية الافلاك لأن تحالف الدول يحفظ نظام العمران كما تحفظ جاذبية الافلاك نظام الكون

وأما الحب الجنسي فانه يقابل الجاذبية الشعرية والجاذبية الكيمياوية معاً . ومن غريب المشابهة بينهما أن الجاذبية الشعرية لا تكون إلا بين مادتين مختلفتي الكثافة . فاما أن تكون احداهما جامدة والاخرى سائلة كاجتذاب السكر والخشب للماء أو غيره من السوائل ، أو تكون الاثنتان سائلتين وبينهما تفاوت في الكثافة كالماء الصرف والمياه المعدنية أو نحوها ، أو تكون بين جامد وغاز ، أو بين سائل وغاز . وتتم الجاذبية الشعرية بين السوائل بواسطة غشاء ذي مسام يفصل بينهما كالجلد الرقيق أو الخزف الفخار أو نحوها . وهو ما يعبرون عنه في الطبيعيات بالاندسموس والاكزسموس ، أي الدخول والخروج . ومن نواميس الاندسموس والاكزسموس أن السائل اللطيف يطلب الكثيف ويسعى اليه ، ومعنى ذلك أنك اذا قسمت وعاء في منتصفه بحاجز من صفاق غشائي كجدار المثانة أو نحوها ، وصببت في أحد القسمين ماء نقياً ، وفي القسم الآخر مذاب الملح بمقادير متساوية ، فان السائلين يخترقان الغشاء بالجاذبية الشعرية ويطلب أحدهما الآخر ، ولكن مقدار الماء الصرف المنسكب في مذاب الملح يكون اكثر من مذاب الملح المنسكب في الماء . وعلى هذا المبدأ تفعل الاملاح في اطلاق الامعاء ، فالملح الانكليزي أو المياه المعدنية اذا نزلت الامعاء كان بينها وبين مصل الدم غشاء الامعاء ، وهو ذو مسام فيحصل بين السائلين اندسموس واكزسموس . وبما أن مذاب الملح الانكليزي أو الماء المعدني اكثف من مصل الدم ينسكب من المصل في الامعاء كميات وافرة تتضاعف بما يهيجه الملح في غشاء الامعاء فيزداد الانسكاب

فترى مما تقدم أن الجاذبية الشعرية هي تجاذب دقيق بين مادتين احداهما كثيفة والاخرى لطيفة ، ويحصل عن التجاذب اختلاط كلي . ولا يخفى ما بين ذلك والحب الجنسي من المشابهة ، فان هذا أيضاً لا يحصل إلا بين جنسين أحدهما كثيف (نشيط) والآخر لطيف . ويحدث فيه امتزاج بين روحي المحبين لا يحدث في سائر أنواع الحب وهو أكثر تلك الانواع خروجا عن سلطة العقل

ومن غريب المشابهة أيضاً أن الجاذبية الشعرية تليها الجاذبية الكيمياوية غالبا ، لأن

المواد قبل أن تتركب تمتزج ، والامتزاج يشبه الجاذبية الشعرية ، فاذا حصلت الجاذبية الكيمياوية تركب العنصران المتجاذبان ، فيتكون من تركبهما مادة جديدة ذات خواص مستقلة هي غير ذينك العنصرين . وكذلك في الحب الجنسي فانه اذا انتهى بالزواج كون مولوداً جديداً ذا نفس مستقلة

وما أشبه الجاذبية الكهربائية أو المغنطيسية بالحب الكاذب الذي إنما يظهر لغرض في النفس ثم يزول بزوال ذلك الغرض ، فان الجاذبية المشار اليها إنما هي ظاهرة من ظواهر بعض المجاري الكهربائية ، فاذا بطلت تلك المجاري بطل الجذب

النفور والحرارة

وقد يعترض بأن الحب في الناس يخالطه ضد هو النفور أو البغض مما لا نرى مثله في الجاذبية . والجواب عن ذلك ان في المادة قوة مستقرة بين دقائقها يقال لها قوة الدفع (ضد الجذب) ، وبها تحفظ الدقائق الابعاد فيما بينها ويعسر ضغطها وتزيد قوة الدفع بالحرارة . فالحرارة في المادة تشبه النفور في الناس . ثم لو نظرنا الى النفور على اختلاف ضروبه وحللناه تحليلا لوجدنا سببه الحسد وسبب الحسد اشتهاء خير في أيدي الآخرين يرجو الحاسد الحصول على مثله . فكأنه يتصور أن ذلك الخير كان مقدوراً له فأخذه المحسود من بين يديه عنوة أو وقف في سبيله فحال بينه وبين ما يرجوه . وقد يكون السبب في النفور مناظرة على أمر أو مسابقة اليه فيقع التنافر بسبب ذلك ، وربما كان للنفور أسباب أخرى مرجعها جميعاً الى ما يخالف مقتضيات حب الذات . فالنفس تطلب أموراً تسعى في الحصول عليها ، وكل ما يقف في سبيلها يهيج فيها حاسة النفور . ومثل ذلك الجاذبية فان الجسم اذا سقط من مكان الى آخر بقوة الجذب فاعترضه جسم آخر حتى صده عن مقصده تولدت من تصادمهما حرارة فتزيد قوة الدفع بين دقائق المادة . وزد على ذلك ان القوى الطبيعية : النور والحرارة والكهربائية والجاذبية ، انما هي قوة واحدة يتحول بعضها إلى بعض تحت أحوال مخصوصة ، ومنها جاذب ومنها دافع . وكذلك العواطف الادبية كالحب والنفور ، فانهما من مصدر واحد يتحول أحدهما إلى الآخر ويسهل تحولهما ويتعدد كلما اشتد ، ألا ترى العاشقين كلما اشتد فيهما العشق تعدد تغاضيهما فيحلو لهما العتاب والمصافاة ؟ !

[عن الهلال سنة ٧ صفحة ٤٢٧]

هذبوا ابناءكم وهم اطفال

الناس من حيث تأثير التربية فى الانسان فريقان : فريق لا يرون للتربية فائدة على الاطلاق ، وعندهم أن الانسان إنما يشب على ما فطر عليه إن خيراً وإن شراً . فالصادق عندهم مفطور على الصدق منذ ولادته ، والكاذب مفطور على الكذب وكذا الكريم والبخيل والمقدام والكسول وغيرهم . وحجتهم في ذلك أن عشرة إخوة قد يربون فى بيت واحد وأحوال واحدة يربيهم أب واحد وأم واحدة ، ثم يتعلمون في مدرسة واحدة ، ومع هذا فان كلا منهم يشب على خلق خاص به ، وقد يكون بينهم الصادق المبالغ فى الصدق ، والكاذب المبالغ في الكذب ، أو الفاضل العفيف والسافل الدنىء ـ فأين تأثير التربية فى هؤلاء ؟ فعندهم أن التربية هى مصقلة تصقل بها المواهب كما يصقل النحاس والفضة والذهب والماس وغيرها ، فانها تنظف الظواهر ، ولا تتطرق الى البواطن ، ولا يلبث كل من هذه المعادن أن يعود الى طبعه بعد قليل ، لأن النحاس لا يزال نحاساً والذهب لا يزال ذهباً والفضة فضة

وفريق يزعم أن الانسان صنيعة التربية يكون كمايشاء مربيه فيشب على ما يتعوده من خير أو شر . وقلما يكون للفطرة تأثير فى أخلاقه وأطواره . بل هو كالعجينة أو الطينة ما تريد طبعه فيها انطبع واذا جفت ظل هذا الطبع فيها . وحجتهم أن الطفل يولد وهو لا يدرى شيئا ولا علم له بشىء فيكتسب العلم مما يقع عليه بصره أو يطرق سمعه من الحوادث الجارية حوله . فاذا كلموه بالعربية شب وهى لسانه أو بالانكليزية فكذلك أو بكلتيهما فيشب وهو يتكلمهما . واذا ربوه على اعتبار الخير شراً أو الشر خيراً شب على هذه التربية

والواقع أن التربية ليست من قبيل صقل النحاس أو الفضة أو الذهب أو غيرها من المعادن لأن هذه أجسام جامدة والانسان حى نام . ولا هى من قبيل العجين أو

الطين فان هذين لا حياة فيهما ولا مرونة تدفعهما الى طريق يستدعيها النمو . والانسان فيه منذ طفولته قوة كامنة تدفعه الى النمو والتغير شأن الاجسام الحية

وإنما الانسان من حيث التربية وسط بين ذينك القولين فهو كالشجرة تنمو مستقيمة أو معوجة بحسب ما يطرأ عليها من المؤثرات . فلو ألقيت بعض بذور البرتقال فى بستان ولم تتعهدها بالسقى أو الاصلاح ولا تعمدت أذيتها بوجه من الوجوه فانها تنمو وتصير أشجاراً وفيها المعتدل والمعوج والقصير والطويل والمثمر وغير المثمر ، وفيها ما لا يكاد يثمر حتى ييبس وفيها ما لا ينبت بالكلية . ولو تتبعنا أسباب ذلك لرأينا بعضه يرجع الى أصل تركيب البذور والبعض الآخر يتعلق بالظواهر الجوية والبعض الآخر بالحوادث الأرضية ـ هذا شأن الانسان اذا ترك للطبيعة ولم يعتن بتربيته . فقد يكون فيه استعداد للاعمال العظمى وفطرة غريزية للاخلاق الحسنة وقد يكون مفطوراً على الرذائل والخمول فيشب بمقتضى ذلك مع ما قد يطرأ عليه فى طفولته من الطوارىء الخارجية وهى مختلفة وتأثيرها على الناس مختلف

أما اذا غرست تلك البذور بيدك فى أمكنة أبعادها متناسبة ثم تعهدتها بالسقى والاصلاح ، فاذا تبينت في بعضها ميلا الى الاعوجاج تلافيته وأسندتها وقومتها وغصنها لا يزال لدناً ثم تعهدتها بالمقراض فقطعت ما ينبت فيها من الاغصان الفاسدة أو المعوجة ـ إذا فعلت ذلك بعناية وتعقل لا تكاد ترى فى بستانك شجرة عوجاء أو مشوهة . على أنك لا تزال ترى بين تلك الاشجار تباينا فى الحجم والشكل وقوة النمو . واذا كان بين تلك البذور بذرة من برتقال برى لا تطمع فى أن تجعلها حلوة من الغرس الاول ولو سقيتها مذاب السكر وبذلت جهدك فى تحليتها

والانسان يولد وفيه غرائز فطرية تذهب به الى الخير أو الى الشر وفيه أيضا قابلية للاكتساب ، فاذا عومل بالعناية اللازمة اكتسبت غرائزه شكلا جديداً ، فاذا كان ميلها الى الخير زادتها تلك العناية رونقا واذا كان ميلها الى الشر لطف شرها تلطيفا حسنا . فاذا ولد أحدهم وفيه ميل فطرى الى الكذب مثلا وعنى مربوه منذ طفولته بتقبيح الكذب في عينه ومراقبة ذلك فيه المراقبة الدقيقة وتتبع كل خطوة من خطواته فانه يتعود أن يخاف من الكذب . فاذا شب لا يبعد أن يعود اليه ولكنه يبقى بحكم العادة يخافه فيقل وقوعه فيه . وقس عليه سائر الرذائل

وقد يولد الطفل وفيه جراثيم بعض الفضائل فاذا أهملت التربية ماتت تلك الجراثيم كما يزداد البدن ضعفا اذا لم يسع في تقوية أعضائه بالرياضة البدنية ونحوها . ومن الأمور المشهورة أن بعضهم قد اكتسب بدنه قوة عظيمة بمجرد الرياضة البدنية ولم يكن أحد يتوقع منه ذلك

على اننا اذا اعتبرنا التربية بالنظر الى الأمة على وجه الاجمال ، رأينا تأثيرها أعظم كثيراً ويزداد هذا التأثير بتوالى الأجيال . كما تتحول الأشجار البرية الى أشجار بستانية بتوالى غرسها وتعهدها بالاصلاح والعناية . ويظهر هذا جلياً فى تأثير الأديان فى الأمم . فترى لكل أمة آدابا وأخلاقا عامة تختلف عن آداب الأمم الأخرى وأخلاقها قد اكتسبتها بتوالى الأجيال من تعاليم الدين . واذا انتقلت الأمة من دين الى آخر لا تلبث أن تتغير آدابها وأخلاقها حتى توافق تعاليم الدين الجديد ـ اعتبر ذلك فى قبائل الجرمان كيف كانت أطوارهم وأخلاقهم قبل اعتناق الديانة المسيحية ، وكيف أصبحت بعدها . وفى قبائل العرب فى الجاهلية وفى الاسلام وقس عليه . أما فى الأفراد فالتربية أقل تأثيراً وقلما يظهر أثرها الا اذا بوشرت فى الصغر والعود رطب فانها تأتى بفوائد حسنة

ولا بد فى تربية الأولاد من النظر فى قواهم (غير البدنية) نظراً تشريحيا فهى تقسم بالاجمال الى قسمين : القوى العاقلة والاخلاق (القوى الأدبية) وقلما تجد علاقة متبادلة بينهما . إذ قد يكون المرء قوى العقل فيحل المعضلات ويحرز علوم الأولين والآخرين ويذهب فى الفلسفة مذاهب سامية ويرتكب مع هـذا أدنى الرذائل . فكم من عالم منافق أو بخيل أو فاسد الآداب ، وكم من ضعيف العقل صادق اللهجة حر الضمير كريم الخلق . لكن بعض كبار العقول اذا كان فيهم ميل فطرى الى شيء من الرذائل أصلحوه بقوة ارادتهم وصبرهم . على أن الغالب فى أقوياء العقول أن يكونوا حسان الأخلاق

ويهمنا مما تقدم أن الطفل يخلق وفيه شيئان يجب الانتباه اليهما فى تربيته وهما عقله وأخلاقه . فالعقل اذا قصر الوالدان فى تربيته فالمدرسة تعوضها عليه . اما الاخلاق فلا بد من تداركها فى الطفولة ، والا فان المدرسة قلما يكون لها تأثير فى تربيتها . والأخلاق هي عماد الفضائل وعليها يتوقف مستقبل الانسان في هذه الحياة من خير أو شر ـ بالأخلاق يكون الانسان سعيداً أو تعساً ، وبالأخلاق يكون نافعاً

أو ضاراً . فلا يفرح الآباء اذا رأوا أبناءهم يسبقون أقرانهم فى العلم والمعرفة وغيرهما من ثمار الذكاء لأن ذلك لا يغنيهم شيئاً اذا لم يكونوا على خلق حسن . ماذا يفيد الرجل كثرة ما يحسنه من اللغات أو ما يفهمه من العلوم اذا كان كاذبا أو متكبراً ؟ أو ماذا يفيده علمه اذا ساء أدبه وتلطخت سيرته ؟ فانه ساقط لا محالة . فتهذيب الاخلاق أول ما يجب الاعتناء به وهو من واجبات الآباء والأمهات . بل هو من واجبات الامهات على الأكثر لأن الأم تصاحب الطفل فى هذه السن اكثر مما يصاحبه أبوه . ولذلك قالوا ان التى تهز السرير بيمينها تهز الأرض بيسارها . لانها اذا أحسنت تربية أخلاق ابنها جعلته سعيداً لنفسه ومفيداً لابناء نوعه

فالوالدون مطالبون بتربية أولادهم على حب الفضائل ونبذ الرذائل . ولكن هذا التعريف مبهم لاتساع حدوده وكثرة ما يعدونه من صنوف الفضائل والرذائل . وفى اعتقادنا ان تربية الاخلاق التي يرادبها سعادة الانسان ومنفعة أبناء نوعه تنحصر فى هذه العبارة : « علم ابنك الصدق والترتيب والمحافظة على الوقت وبغض اليه الكبرياء » لان الصدق أساس كل الفضائل . فالصادق لا يكون خائنا ولا مختلساً ولا سارقا ولا زانياً ولا مزوراً ولا نماما . فاذا عاملت صادقا فأنت فى مأمن على مالك وعرضك وهو على يقين من رغبة الناس فى معاملته

والترتيب أساس انتظام الاعمال فمن يتدرب من طفولته على وضع كل شيء فى مكانه يشب مرتباً فى أعماله فى هذه الحياة . فمن تعلمه أمه اذا خلع قميصه ألا يلقيه على الارض كيفما اتفق ، بل يضعه فى المكان المعد لوضع الثياب ، واذا عاد من المدرسة لا يضع كتبه فى مكان لا يهتدى اليه فى الصباح الا بعد البحث ، فانه يتعود الترتيب ويشب مرتباً فى حساباته وتجارته ومعاملته ، فلا يضيع شيئاً من أوراقه أو دفاتره ولا يخشى ضياع ثروته . ومن كان محافظاً على وقته لا تفوته فرصة لا يعمل فيها عملا فانه لا يخاف فقراً

وأما الكبرياء فهى عقبة من عقبات الرزق فى سبيل هذه الحياة . فلو عرفت صانعاً مهما بلغ من مهارته فى صناعته وكان متعجرفاً كبير الدعوى فانك تنفر منه وقد تعاف نفسك الانتفاع بصناعته فراراً من معاملته . واذا بحثت بحثاً تحليلياً فى منزلة معارفك عند نفسك من حيث رغبتك فى مجالستهم أو نفورك من قربهم لرأيت للكبرياء والتواضع دخلا عظيما فى ذلك . لان المتكبر مكروه حيثما كان ، والمتواضع

مقبول في أى حال . وكبير الدعوى لا تجدمن يحبه أو يصبر على عشرته أو معاملته ، لانه جاهل ولو أحرز علوم الارض وأحمق ولو أحاط بفلسفة المتقدمين والمتأخرين ـ إذ لا يدل على مقدار جهل الانسان اكثر من جهله مقدار نفسه . ولو بحثت فيما يعبر عنه الناس بقولهم : « فلان خفيف الروح » أو « فلان ثقيل الروح » لوجدت علة هذا فى الغالب التواضع والكبرياء . فالمتكبر المدعى يستثقل الناس دمه ، وبالعكس الوديع المتواضع فانه مقبول حيثما أقام وهو خفيف الروح أو الدم . ولا يخفى ما يترتب على ذلك من المنافع أو المضار فى حياة الانسان

[عن الهلال سنة ١١ صفحة ٤٨٥]

ما هو الاستقلال الحقيقي

لا يعرف قدر الحرية غير العاقل الحكيم،ولا يدرك السبيل اليها غير المتقدالبصير. واذا باتت حرية قوم فى قبضة قوم أقوى منهم بطشا وأمنع جنداً فمن الجهالة أن يلتمسوا استرجاعها بقوة السلاح إلا اذا استنصروا قوما آخرين . وهب أنهم أفلحوا وكسروا تلك القيود فهل يضمنون ألا يكون نصراؤهم الحديثون أشد وطأة عليهم من أعدائهم الاولين ؟ على أن التاريخ والقرائن يدلاننا على خطر تلك الخطوة

ولا نطيل الكلام فى هذا الموضوع والقارىء يعلم ما آلت اليه مصر فى مثل هذه الشئون من أقدم أزمنة التاريخ الى الآن . يكفينا من ذلك ما تقلبت عليه منذ الفتح الاسلامى . فقد كانت قبيل الاسلام تحت سلطة الرومان فلم يرض أهلها بهذا الاحتلال فاستنصروا المسلمين ونصروهم على رجال حكومتهم فدخلت مصر فى حوزتهم فانتقلت من دولة الى دولة وأهلها في كل حال محكومين . وقضت بعد ذلك أجيالا تحت سيطرة الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين حتى تولاها بنو الاخشيد فى أوائل القرن الرابع للهجرة ،فمل المصريون مما استحكم بين الاخشيدية من الخلاف، فاستنجدوا الدولة الفاطمية فى المغرب فجاء القائد جوهر مصر ففتحها وكان رجالها عوناً له فى الفتح فأصبحت فى سلطة الفاطميين فى أواسط ذلك القرن . وما برحت فى قبضتهم الى أواسط القرن السادس فى خلافة العاضد بن يوسف فاختلف اثنان من رجال دولته على الوزارة فخرج المغلوب منهما الى الشام واستنجد نور الدين زنكى صاحب دمشق فأنجده بجند تحت قيادة شيركويه عم يوسف صلاح الدين (السلطان صلاح الدين) وكان لا يزال غلاما فآل ذلك الاستنجاد الى تداخل الاكراد فى حكومة مصر ، ثم أفضت الوزارة الى شيركويه ومنه الى صلاح الدين وأخيراً استخرج صلاح الدين الحكومة لنفسه فانتقلت مصر من الدولة الفاطمية الى الدولة الايوبية

ولو تتبعت تاريخ مصر فى انتقالها من دولة الى أخرى لرأيت سبب ذلك الانتقال فى الغالب استنجاد فئة من أهل البلاد أو رجال الحكومة دولة أجنبية . ولنا فى الحوادث العرابية أقرب دليل

فاذا تبين لك ذلك علمت ان الالتجاء الى دولة أجنبية التماساً للاستقلال ضرب من العبث . فاستنهاض الهمم وإثارة العواطف فى هذا السبيل لا يخلوان من العواقب الوخيمة بغير فائدة ترجى

بقى علينا البحث عن سبيل آخر الى الاستقلال . لأن الاستقلال مستحب تهواه النفس الأبية وتستهلك فى الحصول عليه

فنقول اننا اليوم فى حاجة الى استقلال أدبى أكثر مما نحتاج الى استقلال سياسى ، ومعنى ذلك أننا نحتاج الى التدرب على الاستقلال فى الفكر والاستقلال فى العمل لكيلا نكون عالة على الحكومة لا نعلم أولادنا الا فى مدارسها ، ولا نرشح شبابنا الا لخدمتها ، فاذا أغلقت الحكومة أبواب تلك المدارس بات أبناؤنا بلا تعليم ، أو سدت أبواب الخدمة دونهم تعرقلت مساعيهم وباتوا يشكون الفاقة . وهي أحوال تكاد تكون خاصة بمصر أو هى على معظمها فيها

وسبب هذه الاحوال أن المغفور له محمد على باشا لما تولى شؤون هذه الديار، رأى الجهل مخيما على ربوعها . وهو حكيم يعلم أننا فى عصر النور ، ولا سبيل الى الاستنارة الا بالعلم فأنشأ المدارس وجعل صبغتها عربية ، ونشط كل عمل عربى ، وأحيا الجامعة العربية ثم أنشأ الدواوين والمصالح فاحتاج الى كتاب وعمال فاتخذهم من تلامذة تلك المدارس ، وكثيراً ما كان يبعث البعثات العلمية الى أوربا على نفقة حكومته لتعليمهم . واقتدى به من خلفه من الولاة والخديوين . فأصبحت المدارس الاميرية مبعث العلم ومصالح الحكومة مصدر الرزق ، وشغل المصريون عن زراعتهم وصناعتهم وتجارتهم فباتوا عالة على عاتق حكومتهم . حتى اذا كان الاحتلال الانجليزى واقتضى الاقتصاد الادارى الاستغناء عن بعض المستخدمين غصت الشوارع بأهل البطالة ، وبات أبناء البيوت العامرة يتضورون جوعا لأنهم أصبحوا بعد تعودهم خدمة الحكومة لا يستطيعون عملا مستقلا . لأن الاستقلال الحقيقى إنما هو استقلال الامة بمصالحها وطرق معايشها من التجارة أو الزراعة أو الصناعة فتجتمع الثروة فى أيديها والثروة دماء المجتمع الانساني لا تحيا الأمة بدونها

فبدلا من أن تتعلق معايش الأمة على أهواء الحكومة ، تصبح الحكومة فى حاجة الى ثروة الأمة أو الى رأيها ، وأقل ما ينجم عن ذلك أن الحكومة اذا أرادت الاقتصاد لا يترتب على اقتصادها اقفال البيوت فينقم أصحابها عليها . ولو تدبرت أسباب نقمة اكثر الغاضبين على الحكومة اليوم لرأيت حجتهم أنها تولى وظائفها أناساً دون آخرين . فما أغنانا عن هذا التحاسد !

ومما نحتاج اليه من ضروب الاستقلال استقلال الفكر ، ومن ثماره الرأى العام وذلك لا يكون الا بالتعليم والتثقيف

ما برح أهل الهند يعترفون لنا بالسبق فى ميدان العلم ويغبطوننا على ما نلناه من عوامل المدنية ، حتى رأيناهم قد سبقونا فى هذه السنين الاخيرة الى السعي فى نشر لواء العلم وتعميم التربية ، فألفوا الجمعيات لانشاء المدارس وشكلوا اللجان للبحث فيما تحتاج اليه بلادهم من ضروب التربية الصحيحة . فوقف خطباؤهم على المنابر وبذل أغنياؤهم الأموال فى سبيل التعليم . ونحن أولى منهم في التماس ذلك ، وفينا بحول الله نخبة الادباء والفضلاء ، وبين ظهرانينا جماعة كبيرة من أهل اليسار لا يدخرون وسعاً فيما يؤول الى ترقية شئوننا ، ولكن كتابنا (أو بعضهم) شغلوا عن الجوهر بالعرض ، فبذلوا قواهم فيما لا طائل تحته من إثارة الضغائن وتهييج العواطف وهم يعلمون أنهم اذا دعوا الناس الى قومة لا يلقون مجيباً واذا لقوا لا نخالهم يجهلون العاقبة ـ هذا الى ضياع الوقت واضلال البسطاء فلا يزيدون الجهال الا جهالة

فحاجتنا الكبرى الآن الى الاصلاح الأدبي قبل السياسى . وهو اصلاح الأمة فى شئونها الأدبية ومعاملاتها العمومية ، ولايتم ذلك الا باصلاح العائلات ، وهذا لايكون إلا بالتعليم والتربية [عن الهلال سنة ٨ صفحة ٢٩٧]

آفات التمدن الحديث
في الهيئة الاجتماعية الشرقية

مر على الانسان من أول عهد التاريخ الى الآن أدوار كثيرة تمدن فى كل دور منها تمدنا يختلف نوعا ومقداراً باختلاف الاحوال والأماكن . وتقلب التمدن فى عهد التاريخ بتقلب الدول والاجيال فنشأ التمدن المصرى القديم والتمدن الاشورى فالفينيقى فاليونانى فالرومانى فالتمدن العربى الى التمدن الافرنجى الاخير وهو التمدن الحديث . على أن اكثر ضروب التمدن مأخوذ بعضها عن بعض أو قائم بعضها على أنقاض بعض . والتمدن على إطلاقه حسن لأنه دليل الارتقاء أو هو الغاية التى تسعى الأمم اليها فاذا بلغتها بلغت ذروة مجدها

على اننا لو نظرنا فى أنواع التمدن على اختلاف العصور ، لما رأينا تمدناً خلا من آفات مازالت تنخر فى بدنه نخر السوس حتى أماتته وذهبت بأهله الى مهاوى الانحطاط . فقد كان من آفات التمدن المصرى القديم مثلا استبداد الفراعنة والكهنة بالشعب واستعباده وتسخيره واستبقاؤه فى ظلمات الجهل . فأقاموا الجمعيات السرية حاجزاً بينه وبين العلم فانحصرت المعرفة فى فئة الكهنة دون سائر الناس ، فآل الجهل بهؤلاء الى الانغماس فى عبادة الاحجار والانصاب والتعويل على الخرافات والاوهام ، وما عاقبة الجهل الا السقوط

ومن آفات التمدن العربي المغالاة فى الترف والقصف والاستكثار من الجوارى والمماليك . والعرب انما اقتنوا المماليك فى بادىء الامر من الاسرى للتفاخر بأبهة الملك والتمتع بلذة النصر . ولكنهم ما لبثوا أن عمدوا الى اقتنائهم بالمال أو بالمهاداة ، وما زالوا يبالغون فى ذلك حتى كثر هؤلاء وتعلموا وتدربوا فمدوا أيديهم الى

الحكومة وجعلوا يرتقون فيها رويداً رويداً حتى قبضوا على أزمة الاحكام فاندرست دولة العرب ونشأت دول الاكراد والشركس والاتراك وغيرهم مما يطول شرحه ولا محل له هنا

ويقال مثل ذلك فى سائر أصناف التمدن القديم فقد كان لـكل منها آفة أو آفات ما زالت تنخر فيه حتى أماتته . ويزعم أصحاب التمدن الحديث انه أفضل ضروب التمدن وأقربها الى البقاء لأنه مؤسس على العلم والعدل والحرية . وهو قول معقول نرجو أن يكون صحيحاً ، ولـكن لهذا التمدن أضراراً كثيرة لا يصح التجاوز عنها ، وقد انتبهت بعض الأمم اليها فتلافت شرورها وتغافلت أمم أخرى عنها وماعاقبة تغافلها الا السقوط

وغرضنا فى هـذه المقالة البحث فيما جره هذا التمدن من الأضرار على الهيئة الاجتماعية الشرقية مما كانت غنية عنه فى حالها الأولى . ولا نتعرض لما اكتسبه الشرق من فضل التمدن الحديث فانه مشهور لا يحتاج الى بيان . وذكر مساوىء هذا التمدن لا يقلل قيمة ما اشتهر من محاسنه ، ولـكننا عمدنا الى ذكر المساوىء رغبة في تجنبها قبل استفحال أمرها

التهتك

طبع الشرق على الحياء والغيرة وجاءه الحجاب متمما لهما . فأصبح التحجب من الغرائز الشرقية الظاهرة . ومهما قيل فى الحجاب وأضراره أو منافعه فانه بلاخلاف خير من التهتك الشائع فى بعض المدن الـكبرى

يبدأ تاريخ الشرق الحديث بظهور الاسلام . والاسلام إنما انتشر وتأيدت دولته فى الصدر الاول بما اشتهر به الخلفاء الراشدون من العفاف والنزاهة عملا بالـكتاب والسنة . فكان الناس فى القرن الأول للهجرة لا شاغل لهم الا الجهاد والفتوح والتسابق الى الفضائل ، حتى رسخت قدم الاسلام وتوطدت دعائمه على عهد الدولة الأموية . ثم عمد الأمويون في أواخر دولتهم الى البذخ والقصف وبالغ بعضهم فى التهتك فآل بهم ذلك الى السقوط . فانتقل الملك الى العباسيين فعملوا على نشر العلم والصناعة حتى بلغ التمدن فى عهد الرشيد والمأمون أعلى ذرى المجد . فمالوا الى البذخ وعمدوا الى اقتناء المماليك والجوارى ـ بدأ الخلفاء بذلك واقتدى بهم الناس على اختلاف طبقاتهم عملا بالقول المأثور : « والناس على دين ملوكهم » ـ وتصدق هذه

القاعدة على أهل كل تمدن غير التمدن الحديث فى بلاد الشرق لاختلاف العناصر فيه واختلاط الاذواق والاخلاق مع تمتع الناس بالحرية الشخصية فلا يعمل العامل الا ما يتراءى له . وأما من قبل فقد كان الناس كما يكون خلفاؤهم أو سلاطينهم ، ليس من حيث الآداب العمومية فقط بل فى كل شيء حتى اللباس والطعام والصلاة وغيرها . فقد كان سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموى (سنة ٩٦ ـ ٩٩ هـ) يحب الطعام اذا أتاه الطباخ بشواء فلا يصبر حتى يبرد فيأخذه بكمه وكان نهماً يأكل أكلا كثيراً ، فكان الناس فى زمن خلافته اذا تلاقوا سأل بعضهم بعضاً عما أكلوا البارحة وعما يأكلون اليوم . وكان عمر بن عبد العزيز الاموى (سنة ٩٩ ـ ١٠١ هـ) زاهداً صاحب عبادة وتلاوة قرآن ، فكان الناس اذا تلاقوا فى أيامه سأل بعضهم بعضاً . ما وردك الليلة وكم تحفظ من القرآن وكم تقوم من الشهر ؟ وأدلة ذلك كثيرة فى الأعصر الأولى للاسلام الى أوائل هذا القرن اذ دخل التمدن بلادنا ونودى بالحرية الشخصية وأصبح الناس أخلاطاً من أمم شتى وألسنة تترى لا قاعدة لآدابهم ولا رادع لهم

واتفق أن التمدن جاء هذه البلاد وهى فى مهاوى الانحطاط على أثر استبداد المماليك ومن جرى مجراهم . ولكنه لم يتناول فى أول عهده الا التعليم والتربية مع المحافظة على الحشمة الشرقية . وأما التهتك وخرق الحجب فلم يظهر إلا فى أواخر القرن الماضى لما كثر تقليدنا للافرنج حتى فيما ينافى فطرتنا . وربما لاينافى فطرتهم ، إذ ما يوافق طبع الغربي قد لا يوافق طبع الشرقى . بدأنا بهذا التقليد فى أول القرن الماضى على أثر دخول الفرنسيين مصر فكان بين ما خلفوه من عادات الافرنج اطلاق سراح المومسات كما كان شأنهم فى بلادهم . وخرج الفرنسيون وبقى ذلك الأثر حتى تولى المغفور له محمد على باشا فشدد النكير على أماكن الفحشاء وعمل على قطع دابر المتهتكات نفياً وقتلا . ويحكى أنه علم مرة بارتكاب بعض رجاله منكراً من هذا القبيل فأمر به وبالمرأة فأغرقا فى النيل معاً

وكان المغفور له سعيد باشا من أكثر الولاة سعياً فى صيانة الآداب العمومية . ولم يطلق سراح أهل الخلاعة إلا على عهد الخديو اسماعيل لكثرة من قدم مصر من جالية الافرنج على اختلاف مقاصدهم وأغراضهم . وظهرت على أثر ذلك بيوت الخلاعة وانتشرت وسائل التهتك . وما زالت الحال الى الآن والحكومة ساكتة

عنها كأنها ترى الاصلاح والمدنية يفتقران الى مثل تلك البيوت ـ بل هى تمهد السبيل لها بما أوقفته من الاطباء لفحص المومسات فحصاً طبياً فى أوقات معينة وأماكن معلومة ـ وهى انما فعلت ذلك اقتداء بدول الافرنج . ولعل عذرها أنها اختارت أهون الشرين ، فلما لم تر سبيلا الى منع الفجور خافت تفشى الامراض الخبيثة فعينت الاطباء دفعاً لتلك الغائلة

فالحكومة لا تلام فى عجزها عن قطع دابر المومسات اليوم . وهي اذا أرادت ذلك فالامتيازات الأجنبية تقف فى سبيلها في جملة العثرات . ولكنها تستطيع أمراً لا عذر لها فى التغاضى عنه وهو اخراج تلك الاماكن النجسة من أواسط المدينة وابعادها عن الشوارع العمومية فيقل خطرها ولا يصل اليها الا المستهلك فى سبيل شهواته وينجو جماعة كبيرة من الشبان الذين انما ينقادون الى تلك الاماكن بضعف ارادتهم فيساقون كما تساق الشاة الى الذبح بلفظة أو اشارة على اثر كأس من الخمر أو قدح من البيرا ، مع سهولة الوصول الى « نوافذ جهنم » لقربها من الحانات والقهوات

ولو اقتصرت تلك الآلات الجهنمية على التربص فى منازلهن ونصب الشباك على النوافذ والابواب لهان البلاء . ولكنهن يخرجن للصيد فى الطرق وحول الحدائق يشرن بالحواجب والعيون والأنامل . وقد يفعلن ذلك على مشهد من رجال الشرطة لا يبالين ولا يالون كأنهن يدعون الناس الى فضيلة أو يساومنهم على تجارة

نعم اننا فى عصر الحرية وكل مسئول عن نفسه ، ولكن المحافظة على الآداب العمومية من قبيل المحافظة على الأمن العام ، إذ لا تنقضى ليلة لا نسمع فى غدها خبر خصام أو نزاع ووقوع قتيل أو جريح فى أماكن الفحشاء أو ما يجاورها . وقلما تتبعنا السبب إلا رأيناه يتصل بما قدمناه من اطلاق السبيل الى هذا الحد

[عن الهلال سنة ١٠ صفحة ١٠٩]

الانتحار

الحاد والمزمن

الانتحار أو قتل النفس قديم بقدم الانسان ، لأنه من نتائج الضعف البشرى والانسان ضعيف من فطرته . وأقدم ما ذكروه من حوادث الانتحار مقتل شمشون فى أوائل القرن الثانى عشر قبل الميلاد ومقتل شاول في أواسط القرن الحادى عشر على ما جاء فى التوراة

وأما حوادث الانتحار فى التاريخ القديم فكثيرة من أفظعها أن فرقة من الجند الرومانى على عهد تركوين الأول انتحرت كلها سنة ٦٠٦ ق م تخلصاً من عار توهموا أنه لحقهم بأوامر صدرت لهم أن يحتفروا أسرابا للاقذار العامة . وهناك حوادث أخرى انتحر فيها الملوك والقواد والفلاسفة وغيرهم

ومع ذلك فالشرائع اليونانية والرومانية كانت تعد الانتحار من أفظع الجرائم وكانت تحرق اليد التى تتعمد ذلك دون سائر البدن ــ هذا الى غضب الكنيسة على المنتحر لأي سبب كان . وكانت تحلل الاستيلاء على ماله وعقاره . ثم تعدلت تلك القوانين وخففت فاكتفوا بصلبه على قارعة الطريق عبرة للناس . ثم تعدلت مرة أخرى سنة ١٨٨٢ ولكن المنتحر لا يزال الى الآن يدفن ولا يصلون على جثته

وللعلماء بحث طويل فى الانتحار وأسبابه وعلاقته بالفصول والأعمار والمهن والبقاع والاجناس وغيرها . وقد وضعوا الاحصاءات المختلفة عن حوادث الانتحار فى ممالك أوربا باعتبار الازمان

ويظهر من مقابلة هذه الاحصاءات ان الانتحار فى إيرلندا أقل منه في سائر

ممالك أوربا . وفى سكسونيا أكثر منه فيها كلها . ويظهر بالاجمال ان سكان جزائر بريطانيا العظمى وايطاليا أقل تعرضاً للانتحار من سواهم

وقد بذل العلماء قصارى جهدهم فى إرجاع هذه الفروق الى أسباب متصلة بالشعوب أو بالأقاليم أو بالازدحام أو بأحوال أخرى ولكنهم لم ينتهوا الى نتيجة قطعية . وبحث آخرون فى علاقة ذلك بالجنس بين الذكور والاناث وبالسن بين الشباب والكهول وبالمهن ودرجة التهذيب ، فاتضح من هذه الجهة أن الانتحار فى المتعلمين أكثر منه فى سواهم ولذلك رأيناه يتزايد بتوالى الاعوام

أما بالنظر الى الجنس فقد اتضح أن الانتحار فى الاناث لا يقل عن ١٥ ولا يزيد على ٣٠ فى المائة من معدل وفيات الانتحار فى أى بلد كان وما بقى فهو من الذكور . ومع ذلك فانه يختلف باختلاف الامم فهو على معظمه تقريباً عند الانجليز ، فقد كان معدل وفيات الانتحار فى نسائهم الى سنة ١٨٧٦ نحو ٢٦ فى المائة من مجموع المنتحرين ثم أخذ فى التناقص . وكذلك الحال فى فرنسا . وأما فى بروسيا وسائر المقاطعات الجرمانية فمعدل الانتحار فى النساء عشرون فى المائة من مجمل الحوادث

أما السن فتأثيرها في الانتحار أقرب الى القياس والضبط ، ويؤخذ من الاحصاءات التى وضعوها فى هذا الموضوع أن للسن تأثيراً فى حوادث الانتحار يكاد يكون واحداً فى كل الممالك ، مع اعتبار ما يشاركه من العوامل الاخرى التى تختلف باختلاف الأقاليم والأمزجة . ويظهر من هذه الاحصاءات أيضاً ان حوادث الانتحار آخذة فى الازدياد كل سنة

وقد ثبت أن وطأة الانتحار تتزايد بسرعة من سن العاشرة الى الخامسة والخمسين . وتبقى على وتيرة واحدة تقريباً عشر سنين ثم تتناقص بغتة . ومما يستحق الذكر ان نسبة الانتحار فى الاناث الى الأعمار تختلف عنها فى الذكور

وللمهن تأثير على حوادث الانتحار ولكن تحقيق تلك النسبة صعب . على أن الدكتور اوكل قد بذل العناية فى استخراج ذلك فى المدة من سنة ١٨٧٣ - ١٨٨٣ فوجد أكثر المهن تعرضاً للانتحار الجندية وحوادث الانتحار فيها تزيد على سائر الحوادث زيادة فاحشة . ولعل السبب فى ذلك اقتدار أصحابها على الانتحار فى أى وقت كان لوجود الاسلحة معهم دائماً . ثم يأتى بعد الجند أصحاب النزل والحانات ممن يدمنون المسكرات . ثم رجال الطب والصيدلة والعطارة لسهولة توصلهم الى العقاقير

السامة ومعرفتهم أنسبها للقتل بلا ألم . ولاحظ الدكتور أوكل أيضا أن أصحاب المهن البدنية على الاجمال أقل تعرضا للانتحار من اصحاب المهن العقلية . وبالجملة ان الانتحار فى المتعلمين اكثر منه فى أهل الجهالة ــ نقول ذلك مع الأسف الشديد !

وللفصول تأثير شديد فى الانتحار فقد تحققوا بالاحصاء والمراقبة انه يحدث فى مايو ويونيو أكثر منه فى سائر الأشهر . ويكاد ذلك يكون عاما فى كل الممالك الا فى بافاريا وسكسونيا فان معظمه يقع فى يوليو . ويظهر تأثير الفصول فى الانتحار فى الاناث اكثر منه فى الذكور وخصوصاً فى ايطاليا ، ويعلل بعضهم بان الاناث يفضلن الانتحار غرقا وهذا ميسور لهن فى الصيف اكثر منه فى الشتاء

وطرق الانتحار تختلف أيضاً باختلاف البلاد . فالانكليز يفضل رجالهم الانتحار شنقاً ونساؤهم غرقا . والطليان اكثر مايكون انتحار رجالهم باطلاق الرصاص ونسائهم بالغرق . والبروسيون اكثر من نصف حوادث الانتحار عندهم بالشنق رجالا ونساء . وهناك طرق أخرى لا نخوض فيها لضيق المقام

قلنا ــ ولم يتأت لأحد أن يضع احصاء لحوادث الانتحار فى بلادنا، ولكن بالقياس على البلاد الاخرى يجب أن يكون هذا المنكر قد تكاثر فيها من أواسط القرن الماضى ثم تزايد زيادة فاحشة فى أواخر ذلك القرن . وسيتزايد فى القرن الحاضر بناء على ما تقدم من علاقة تلك الجريمة بانتشار العلم وتزايدها بتزايد انتشاره للاسباب التى قدمناها . ولأن التعليم وسائر وسائل الحضارة تضعف القوى البدنية وتزيد حساسة القوى العصبية فتتعاظم الانفعالات النفسية حتى تسدل على العقل حجابا كثيفاً فيعمل صاحبه مالا يعمله الا المجانين . والانتحار ضرب من ضروب الجنون وخصوصاً ارتكابه للاسباب التافهة التى قد لا تخرج عن اعتبارات وهمية لا حقيقة لها فى الواقع . فالمنتحر اذا كان مصابا بداء عضال لا يرجو منه شفاء مطلقاً وهو يقاسي منه آلاما مبرحة قد لا يلام اذا أحب التخلص من هذه الحياة وعجل أجله أياما أو أشهراً وان كان ذلك مما لا يجيزه الشرع ولا الدين

ولكن أكثر الذين عرفناهم من المنتحرين شبان فى مقتبل العمر صحاح الأبدان والعقول يرجون مستقبلا مجيداً وقد حامت الآمال حولهم . فلا نعلل انتحارهم بغير الجنون الموقت ، والا فيستحيل على عاقل أن يقدم على ارتكاب جريمة القتل من نفسه وهو اذا أراد أحد مسه بجارحة أعظم أمره وطالبه بعمله إما انتقاما وإما

تقاضيا ، فكيف يقدم هو على قتل نفسه وفيه عقل ؟

على أن المنتحر لا يمد تلك اليد الأثيمة لهدم هذا البناء المقدس الا وهو مقتنع بما يسوغ له ذلك وربما عد عمله فضيلة . على أنه لو أبقى على نفسه وكاشف أحداً بعزمه أو تربص ريثما يعود الى رشده لرجع عن جنونه

وأكثر ما نسمع به من حوادث الانتحار سببه الفقر أو اليأس من النجاح أو الفشل فى بعض الأعمال أو الخيبة فى بعض الآمال . فالذى ينتحر فراراً من الفقر انما هو جبان أدى به اعتقاده العجز عن الارتزاق الى التخلص من الحياة بفعل منكر يفتقر الى إقدام أكثر مما قد يحتاج اليه الارتزاق . فلو أنه بدلا من إقدامه على قتل نفسه نشط للسعى فى أسباب الرزق بالاسفار أو الأخطار لكفى نفسه مؤونة هذا الذنب واختبر الحياة من وجه آخر ، ولكننا لا نعد الانتحار إقداما وإنما هو جنون ناتج من ضعف الارادة وانحطاط القوى الأدبية

أما الذى ينتحر لفشل فى أمل فما أضيق مطامعه وما أقصر آماله ! وما عليه اذا خابت آماله فى جهة إلا أن يحولها الى جهة أخرى ويعد خيبته درساً استفاده فى حياته الدنيا فلا يعود الى تعليق الآمال وحصرها فى جهة واحدة أو فى شخص واحد اعتباراً بقول الشاعر :

لست الملوم أنا الملوم لأننى أنزلت آمالى بغير الخالق

لا نستثني من ذلك ما يحدث من هذا القبيل فى حوادث العشق ونحوه لأن الحب مهما يكن من سلطانه على القلوب فالعقل لا يزال يرقب سبله فيستشرف حركات القلب ويهزأ بها ويعد أكثرها جنوناً ـ فلا يعدم الانسان بالعقل نذيراً فى ساعة اليأس ، وما عليه إلا أن يجيب انذاره بالتربص برهة ريثما يثوب الى رشده . والغالب فى التربص أن ينجو من الموت ويضحك مما مر فى ذهنه من هذا الشأن

ومن الأسباب المهيئة للانتحار بين شباننا مطالعة أقاصيص الانتحار فى الروايات الغرامية المنقولة الى لساننا ، وفيها من ينتحر أو يتسرع فى الانتحار لأسباب طفيفة وهمية ، ومؤلف الرواية يحسن ذلك العمل ويعده من الفضائل . فاذا كان القارىء ضعيف الحكم انقاد متأثراً بتلك الكتابة الى استحسان الانتحار ـ فالانتحار فظيعة من الفظائع البشرية المحرمة شرعاً وأدبا ولا يقدم عليها إلا من مسه الخبل أو غلب عليه الجبن والضعف

على أننا نرانا بالغنا فى اعظام عمل المنتحرين « الانتحار الحاد » ـ ونريد به قتل النفس الذى يرتكبه المرء عن حدة أو غضب أو يأس يلتمس الموت العاجل ـ وفاتنا النظر فى « الانتحار المزمن » وهو قتل النفس على مهل . ومرتكبوه يزيدون على أضعاف أولئك . إن بين ظهرانينا مئات وألوفاً يقتلون أنفسهم بعادات تتملك فيهم فتنخر عظامهم وتذيب أكبادهم وتقرح أمعاءهم وتشوش اعمال أدمغتهم فتفسد آدابهم وتهدم منازلهم وتسقط بهم الى حضيض الذل والضعف . ولو أردنا تعداد الرذائل التى يعد مرتكبها منتحراً لضاق بنا المقام ، فنشير الى بعضها ونبدأ برأسها وهو السكر « رأس المعاصى » ـ ألا تعدون السكير منتحراً وهو إنما يستدنى أجله بما يتعاطاه من تلك « الارواح الشريرة » زيادة عما يأتيــه من الاضرار فى أثناء ذلك الانتحار « المستطيل » من القدوة السيئة وما قد يورث أولاده من العلل البدنية والعقلية

ومن ضروب الانتحار المزمن « الفحشاء » وفى الاشارة اليها ما يغنينا عن تدنيس القلم فى تفصيل أضرارها

ومن قبيل الانتحار المزمن أيضاً « المقامرة » فان الاسترسال فيها يضعف البدن ويورث العلل ويفسد الاخلاق. وكثيراً ما كانت المقامرة علة للانتحار

وقل نحو ذلك فى سائر الرذائل على اختلاف ضروبها . فانها مجلبة للاسقام والعلل وتنتهى بالموت . ومن يعمل الفكرة فى أحوال الطبيعة ير من النواميس الأدبية الثابتة أن الذين يحيدون عن طريق الفضيلة يعرضون أنفسهم للهلاك وينتحرون « انتحاراً مزمناً » وشواهد الحال أكبر دليل

[عن الهلال سنة ١١ صفحة ٣٣٦]

اخلاق الانكليز

الثبات والتعويل على الحقيقة

للانجليز أخلاق بارزة واضحة تختلف عن أخلاق غيرهم من الأمم يمكن تلخيصها في كلمتين (١) « أنهم يجنحون فى أعمالهم وشئونهم الى الحقيقة المحسوسة دون الظواهر » (٢) « أنهم ثابتون على مبادئهم وعاداتهم ومشروعاتهم » فاذا عرفت هذا فيهم هان عليك تعليل أكثر ما يعرض لك من أخلاقهم . والانكليزى هادىء الخلق يندر أن تغلب عليه الحدة حتى تخرجه عن طور ارادته ، ولذلك تجدهم يبحثون فى أهم المسائل وأحرج المشاكل ويتجادلون ويتناقشون بهدوء وسكينة . ويغلب فى أدلتهم أن تبنى على العقل أكثر مما تبنى على العواطف . ويظهر لك الانكليزي جامداً وقد ترى فى نفسك تفوقاً عليه بسرعة الخاطر ، لكنك عند العمل تجده أثبت منك قدما وأصبر على التعب وأقدر على المشروعات الكبرى . وترى فيه سكوناً وطول أناة فى موقف يستفز سواه ويهيج غضبه . وليس ذلك من بلادة فى طبعه وإنما هو من قبيل ثباته فى أعماله وتعويله على الحقائق ، فلا يكترث للصغائر ، بل يجعل همه الغرض الذى يسعى اليه لا يبالى بما يقف فى طريقه من العقبات ، ولا سيما اذا كانت تلك العقبات أموراً وهمية كالكلام فى الصحف ونحوها اذا لم يكن مبنياً على حقائق محسوسة

الكبرياء والانانية

ومن الاخلاق المشهورة عن الانكليز أنهم متكبرون يترفعون عن مخالطة سواهم من الأمم ، وهي تهمة لا تخلو من الحقيقة . ان الانكليزى معجب بنفسه يفتخر

بدولته وأمته وينفرد عن سائر الأمم فلا يزاوجهم ولا يختلط بهم إلا بما تقتضيه المصلحة التجارية أو السياسية . ولا عجب فاتنا فى عصر الانجلوسكسون كما كان العرب في ابان دولتهم والرومان قبلهم . ولكل أمة عصر اذا تفوقت فيه على سواها توهمت امتيازها الفطرى عليهم بالجبلة الأصلية ، وهي طبعاً لا تنال ذلك التفوق الا لمواهب فيها تمتاز بها عن سواها

ومما يوجه الى الانكليز من الانتقاد أنهم انانيون يحبون الاستئثار بالمنافع لأنفسهم ، وهو خلق فطرى فى الانسان لا يختص بأمة دون أخرى . لكنه يظهر فى الانكليزى لأنه لا يبالى أن يظهره ويتمسك به . ولا يهمه ما يسميه الآخرون اريحية أو نجدة ويعدونها من أسمى المناقب ، فهو لا يعرض نفسه للخسارة لمنفعة سواه كما يفعل الفرنسيون مثلا ، أو كما يفعل العرب ويعدونه من مفاخرهم . ولذلك كان العرب أسرع اختلاطاً بالفرنسيين دون الانكليز

ومن مقتضيات الجنوح الى الحقائق ان الانكليزى صريح فى أقواله وأعماله لا يقول غير ما يعتقده ولو ساءك قوله ، فيظهر ذلك منه مظهر الجفاء ، ولكنه يعد المجاملة ضربا من العبث فلا يزال يتجنبك حتى يتعرفك ويثق بك فيمد لك يده ويصافحك ويكون حينئذ من أخلص الاصدقاء وأظرف الجلساء

التربية الادبية والعقلية

ومن مقتضيات هذا الخلق ما تراه من ثبات الانكليز فى أفضل وسائل التربية البدنية والعقلية ، ولا سيما الرياضة وهم قدوة الامم فيها . وقد ألف ديمولان الكاتب الفرنسى كتابه عن سر تقدم الانكليز ليحرض قومه على الاقتداء بهم فى التربية والاخلاق والتعليم وغيره . واختص غوستاف لوبون أخلاق الانكليز بالاطراء فى كتابه « العوامل الاخلاقية فى تكوين الامم » فالانكليزى رأى بعين الحقيقة أن هذا الضرب من التربية مفيد له فاتبعه ووضع له قواعد أساسها الفائدة الحقيقية بلا زخرف ولا تنميق. وزادهم ثباتاً فيها أنهم فطروا على احترام آراء رجال التاريخ وأصحاب المواهب منهم والعمل بها بلا جدال أو نقد — لعله من بقايا خضوعهم للشرفاء فى عصر الاقطاع . ولهذه المنقبة فضل كبير فى جمع كلمتهم وتأييد مساعيهم لأن الأمة اذا عملت برأى عقلائها كانت كلها عقلاء . بخلاف الامم التى يزعم كل من أفرادها أنه صاحب

الرأى الأصوب والنفوذ الأعلى ويرى الانصياع لرأى سواه صغاراً ومذلة كما هو شأن الأمم الضعيفة التى صارت الى الشيخوخة وآذن الزمان بفساد أمورها وانقضائها

الصدق والوفاء

المشهور أن الانكليزى على الاجمال بطىء الخاطر غير مفرط الذكاء. لكنه ناجح على الغالب فى أعماله ومشروعاته. فما هي علة نجاحه ؟ العلة الحقيقية أنهم يعملون بالقواعد التى قرر عقلاؤهم أنها وسيلة النجاح ، وقد رسخت فى أذهانهم بالتربية للاسباب التى قدمناها . وهي تعلمهم أن التاجر أو الصانع يجب أن يعول فى أعماله على الحقائق مع المنفعة المتبادلة . فجعلوا معولهم على الصدق والأمانة والثبات ، وهى أهم أسباب نجاحهم فى أعمالهم الكبرى والصغرى . وقد اشتهر ذلك عنهم حتى جرى مجرى الأمثال . والمشهور بين تجار الأرض أن الانكليزى اذا سألته عن سعر بضاعته أعطاك آخر سعر يوافقه ، ولا يفتح باباً للاخذ والرد أو المساومة كما تفعل سائر الأمم

المحافظة على التقاليد

قد رأيت الأمة الانكليزية لا تزال حتى الآن محافظة على الارستقراطية برغم اعراقها فى الدستورية ـ حتى الدستور عندها لا يزال محفوظاً بالتقليد، أى أنهم لم يدونوا قواعده وشروطه بما يسميه العثمانيون القانون الأساسى أو نحوه . وإنما يجرون فيه على التقاليد الماضية فيحكمون فى شئونه بالقياس على أحكام سابقة أصدرها أسلافهم مع مراعاة مقتضيات الأحوال ، واذا عرضت مسألة لم يسبق الحكم فيها حكموا فيها وعدوا حكمهم سابقة لمن يأتى بعدهم

فالانكليز من اكثر الأمم محافظة على التقاليد المتوارثة . وذلك من قبيل الثبات فى أخلاقهم . ولهذا السبب كانوا من أشد الناس احتراما لرجال التاريخ منهم ، ينصبون لهم التماثيل ويعملون بأقوالهم . ولهذا السبب نفسه جروا فى استعمارهم على احترام تقاليد الأمم التى تدخل فى سلطانهم أو حمايتهم . فلا يتعرضون لهم فى شىء من أديانهم أو عاداتهم . بل يساعدونهم على القيام بشعائرهم الدينية أو الوطنية . ولهذا كان الشرقيون اكثر ارتياحا الى سيادتهم من سواهم لولا ترفعهم وبعدهم عن المجاملة

التدين والنظام

ومن قبيل الثبات والمحافظة على التقاليد أنهم متمسكون بعقائدهم الدينية . وبرغم تطرف أكثر الأمم من جيرانهم وزملائهم في الحرية الدينية حتى جاهروا بمناوأة رجال الكهنوت ومطاردة الجمعيات الدينية ، فالانكليز ما زالوا متمسكين بأهداب الدين يحافظون على طقوسه وتعاليمه ولا سيما الراحة يوم الأحد

ومن هذا القبيل أيضاً خضوعهم للنظام وتقديسه والرضوخ له باحترام وافتخار لا يستنكف من ذلك كبيرهم ولا صغيرهم . ولا يرى الملك بأساً أن يعترف بالخطأ بين يدى أصغر رعاياه ولا يعد هذا حطة . وإنما هو من نتاج جنوحهم الى الحقيقة واحترامهم إياها . وتجد كتبهم المدرسية مشحونة بالحكايات التي تعلم هذه المنقبة وأمثالها من الصراحة في القول والاعتراف بالخطأ . غير القدوة الحسنة التي يستفيدها التلاميذ من أساتذتهم أو والديهم أو كبارهم فى هذا السبيل

الشعور بالواجب

ان الشعور بالواجب عام فى الممالك الراقية لكنه ظاهر كل الظهور فى أخلاق الانكليز . فالانكليزى يعرف ما عليه من حق أدبى أو مادي فيؤديه فى حينه بلا مطالبة أو استحثاث . يعمل هذا بهدوء وسكينة . لأنه من أكثر الناس عملا وأقلهم كلاماً . فاذا وعدك بزيارة كن على ثقة أنه منجز وعده . واذا كلفته بخدمة فمن التأدب عندهم لا يؤكد لك نجاحه فيها وإنما يقول : « انى سأجرب » فاذا قال هذا قائل منهم عدوا قوله وعداً أكيداً . وهكذا اذا عزم أحدهم على تكليف آخر بخدمة أو مطالبته بحق له أو وعد يتوقعه فانه يجعل طلبه بصورة الاستفهام أو الشك فيقول مثلا : « ماذا تظن لو فعلت كذا » فيجيبه : « أظننى فاعلا كذا » فيعد ذلك وعداً لابد من قضائه . وهذه التعابير تكون غالباً فى الطبقة الراقية من القوم

[عن الهلال سنة ٢٠ صفحة ٤٢٦]

التآليف فى اللغة العربية

لا يستطيع من راقب سير العلم بمصر فى الأعوام الأخيرة غير الاعتراف بوجود نهضة أدبية كثر فيها المؤلفون وتعددت المؤلفات ، وإن كنا بالقياس إلى سائر الأمم أطفالا فى هذا الميدان . وينقصنا على الخصوص التدرب على البحث والتنقيب والقياس والاستنتاج . فان بعض كتابنا لا يزالون يسيرون فى طرق تأليفهم على خطة أسلافنا القدماء . والتأليف فى العربية قديم كما جاء فيما بسطناه فى كتابنا « تاريخ آداب اللغة العربية » . وكان لعلماء العربية القدماء القدح المعلى فى هذا الباب ، لكن لكل عصر نسقا فى التأليف يلائم أهله . فنسق هذا العصر يختلف عن نسق القدماء مثل اختلاف سائر أحوالنا عن أحوالهم . ونحن فى هذه النهضة عولنا فى اقتباس العلوم الحديثة على أصحاب هذه المدنية فنقلناها عنهم ، ولهم طرق فى التأليف يحسن تحديها لما فيها من التمحيص والترتيب والتبويب مما يسهل على القارىء تفهم الموضوعات وحفظها

ومع ذلك لا ينبغى لنا أن نبخس آدابنا العربية حقها ولا سيما فى الموضوعات التى كتب فيها أسلافنا ، وإن اختلف ما كتبوه من حيث روحه وأسلوبه عما يقتضيه هذا العصر . لكنا نرى بعض كتابنا ينظرون الى تلك الآداب بعين الاحتقار ولا يتعبون أنفسهم فى تفهمها . ولو فعلوا لوجدوا فيها كنوزاً ثمينة في كثير من المباحث التى يحتاجون الى نقلها من اللغات الافرنجية . ولعل السبب فى إهمالهم المصادر العربية ما يجدونه أول وهلة من الغرابة فى أسلوبها لأنه يخالف ما تعودوه من الأسلوب العصرى . ولو زاولوا مطالعة تلك الكتب قليلا لتعودوا ذلك الأسلوب وهان عليهم فهمه . وقد يجدون فى تلك الكتب حقائق هامة غير ما يستفيدونه من طرق التعبير والألفاظ الوضعية فيستعينون به على تقويم أسلوبهم عند نقل ذلك العلم عن المصادر الافرنجية

ومن غريب ما رأيناه من هذا القبيل أن بعضهم يعتمدون على هذه المصادر ولو كان ما يكتبونه متعلقاً بعلوم العرب أنفسهم أو تاريخهم . ولعلهم يفعلون ذلك لثقتهم بتدقيق الافرنج فيما يكتبونه ، لكن ذلك جر بعضهم الى ارتكاب خطأ شوه ما كتبوه . فقد قرأنا كتابا حديثاً في تاريخ الاسلام فرأينا فيه رسائل كتبها بعض القواد المسلمين الى خلفائهم في صدر الاسلام هي في أصلها العربي مثال البلاغة وحسن البيان ، فترجمها مؤلف ذلك الكتاب عن الافرنجية فجاءت أعجمية اللهجة عارية من البلاغة العربية مع إمكان نقلها بعبارتها الأصلية لفظاً ومعنى

ومعلوم ان العلم الحديث جاءنا أولا على يد الفرنسيين والايطاليين في زمن محمد على باشا ، ثم تناولنا جانبا منه عن الانكليز والاميركان وخصوصا في سوريا . ثم كان الاحتلال الانكليزي لمصر فسعى أهله في نشر لغتهم بيننا ، فأصبحت المصادر التي نعول عليها فيما نكتبه اما فرنسية أو ايطالية أو انكليزية . ولكن الايطالية لم تثبت لضعف نفوذ ايطاليا بيننا فانحصرت مصادرنا في الفرنسية والانكليزية .

وبدهي أن من يتناول العلم عن أمة يتعلم لغتها وآدابها يشب على حبها فيتوخى تقليدها والاقتداء برجالها . فأصبح كتابنا من أجل ذلك فئتين : فئة تقلد الفرنسيين ، وفئة تقلد الانكليز . وقل من يجمع بين الاثنين ، فاختلفت أذواقنا باختلاف ما لديهما من المبادىء والاخلاق حتى ظهر أثر ذلك فيما نكتبه لفظاً ومعنى . فقل أن تقرأ مؤلفاً ألفه كاتب من أهل هذا العصر في علم حديث الا قرأت في خلال سطوره مبادىء احدى الأمتين الفرنسية أو الانكليزية . ولعل هذا هو السبب في تشيع عامتنا الى إحداهما لأن الأمة من حيث المبادىء والأخلاق تسير على خطوات كتابها فتتبع كل فئة منهم فئة من الكتاب فتقلدهم في أقوالهم وأعمالهم

ولا يقتصر تقليدنا كتاب الافرنج على فحوى ما يكتبونه، ولكنه قد يتناول طرق التعبير، فترى اللهجة الافرنجية ظاهرة على عبارات بعضنا مهما كانت ألفاظها عريقة في العروبة . لأن لكل لغة نسقاً في التعبير خاصاً بها ، فمن كانت مطالعاته ومراجعاته في كتب فرنسية اكتسب ملكة التعبير فيها وخصوصاً اذا أهمل المطالعة في الكتب العربية ، وهكذا يقال في مطالعي الكتب الانكليزية

فعلى من يعمد الى التأليف أن يحافظ على ملكة اللسان العربي ويتجنب التعبيرات الافرنجية ولا يتم له ذلك الا بمطالعة الكتب العربية الخالية من شوائب العجمة . بل

لا بد له من مطالعة الكتب التي كتبها العرب في الموضوع الذى يريد الكتابة فيه أو ما يقرب منه لاقتباس طرق التعبير فى ذلك العلم . إذ لكل علم عبارات وألفاظ لا يستحسن إيرادها فى علم آخر . فلغة العلوم الطبيعية مثلا غير لغة الموضوعات الأدبية ، ولغة التاريخ غير لغة الطب ولغة الكتابة غيرلغة الخطابة . فما يستحسن إيراده من العبارات المبرقشة بأنواع البديع فى موضوع أدبي تهذيبى يستقبح فى موضوع طبيعى أو رياضى . فعبارة أبي الفضل الهمذانى فى رسائله لا تستحسن فى إثبات قضية هندسية أو تقرير حقيقة طبيعية . واذا كتبت المعانى التهذيبية بعبارة الهندسة لا تؤثر فى النفس تأثيرها لو كتبت بعبارة مزخرفة بأساليب الاستعارة وضروب المجاز . هذا الى ما تقتضيه الحقائق العلمية من البساطة وما تستلزمه الموضوعات الأدبية من المبالغة والاطناب بين تهديد وتنديد وترهيب وترغيب . فيقسم الانشاء بهذا الاعتبار الى قسمين كبيرين : انشاء علمى، وإنشاء أدبى . ولكل منهما فروع يستخدم كل فرع منها فى موضوع دون الآخر

الاسلوب

اذا تصفحت كتابا ثم نظرت فيه نظراً عاما رأيته مؤلفاً من شيئين متباينين هما موضوعه ولغته أو أسلوبه أو هما معناه ولفظه . فالموضوع أو المعنى هو الغرض الذى يريد المؤلف إيصاله الى ذهن القارىء ، وأما الأسلوب فهو الآلة التى يستخدمها فى إيصال ذلك الغرض . فاذا عمد جماعة الى التأليف فى الثورة العرابية مثلا ، كان غرض كل منهم بيان تلك الثورة بما تقدمها أو دعا اليها من الأسباب ، ثم ما توالى من حوادثها الى انقضائها وما نجم عنها من العواقب السيئة أو الحسنة . فاذا قرأت كتاب كل منهم على حدة رأيتهم يختلفون فى كيفية تأدية تلك الحوادث وترتيبها باختلاف ما يعلمه كل منهم أو ما فطر عليه من طرق التعبير . وظهر لك تباين فى أساليب التأليف وإن يكن الموضوع واحداً . وقد تستحسن أسلوب بعضهم وتستهجن أسلوب البعض الآخر وهو الفرق بين ملكات الانشاء فى الكتاب

واذا أمعنت الفكرة فى كتاب قرأته ونظرت فى إنشائه نظراً تحليليا رأيت فيه أشياء تميز كلا منها عن الآخر وهي :

(١) ترتيب الحوادث اجمالا بنسبة بعضها الى بعض . كأن يقدم الكاتب سبباً

على آخر أو يبني حادثة على أخرى أو يذكر نتيجة كل حادث فى أثر ذلك الحادث أو يجمع كل النتائج معا . الى غير ذلك من أساليب الترتيب

(٢) سرد كل حادث على حدة وترتيب جزئياته بنسبة بعضها الى بعض بقطع النظر عن علاقته بالحوادث الأخرى

(٣) تنسيق العبارات التي يتألف منها كل حادث جزئي باعتبار ربطها بعضها ببعض بين تقديم وتأخير على ما يراه الكاتب مؤديا لما في ضميره

(٤) وضع الالفاظ فى مواضعها بالنظر الى قواعد الاعراب والبيان كتقديم الفعل على الفاعل والمبتدا على الخبر مع ما يختاره من أساليب الاستعارة أو نحوها

فاذا عرفت هذه الاقسام الأربعة وتدبرت كلا منها على حدة علمت أن الثلاثة الأولى منها مرجعها فى الغالب الى ذوق الكاتب الشخصى وهى قلما تكتسب بالدرس أو المطالعة الا فى أحوال مخصوصة . أما القسم الرابع فهو وحده يمكن اكتسابه بالدرس وقد لا يكون الدرس وحده كافياً لاتقانه

والانشاء بالمعنى الذى نريده انما يقوم بالاقسام الاولى ومدارها تنسيق المعانى وترتيبها على ما يوافق أذواق الناس بقطع النظر عن الاعراب أو البيان . فهو من هذه الحيثية ملكة غريزية لا تكتسب بالدرس كما قد يتبادر الى الذهن . ولكن الدرس وسعة الاطلاع يهذبانها ويرقيان ذوق صاحبها

فالكتابة في اعتقادنا ملكة غريزية كملكة الشعر . فالشاعر المطبوع تظهر شاعريته ولو لم يعرف العروض ، وكذلك الكاتب المطبوع ، لأن المعنى صورة من صور الذهن ، والكتابة رسم تلك الصور على الورق والمعانى تخطر لعامة الناس كما تخطر لعلمائهم على تفاوت بينهم،وكل منهم يعبرعن معانيه اماتكلماً أوكتابة على أسلوب خاص به . فقد تقرأ عبارات أو تسمعها من أناس لا يعرفون علماً من علوم اللغة فتفهمها وتتأثر منها فترسخ فى ذهنك ويتشربها ذوقك لما تؤانسه من تناسب أجزائها وتناسق معانيها وسهولة انشائها مما لا تعثر عليه فى عبارات بعض المتضلعين من علوم اللغة

والمعاني ترجع فى وضوحها وابهامها الى حالة صورتها فى ذهن الكاتب . فاذا كانت الصورة واضحة فى ذهنه ظهر ظلها واضحا فى كتابته أو تكلمه . واذا كانت مشوشة ظهر لك تشوشها فى خلال سطوره . ويكون ذلك غالبا فيمن يكتبون فى

موضوعات لم يحسنوا درسها . وقد يقرأ بعضهم مقالة لا يستطيع فهمها فيحسب ذلك بلاغة فى الكاتب أو سمواً فى انشائه . ويظن اشكال فهمها عليه ناجما عن جهل منه فى أساليب الكلام . وعندنا أن توقف القارىء عن فهم كتاب دليل على ضعف الكاتب وقصر باعه فى موضوع ذلك الكتاب . حتى قد يستدل على تمكن الكاتب من موضوع كتب فيه من سهولة فهم ما يكتبه . فاذا قرأت مقالة ولم تستوعب معانيها فاعلم أن كاتبها لم يفهمها أيضا إلا فى بعض الأحوال . إذ يكون الكاتب متضلعا فى موضوع فيتوخى المبالغة في اختصار ما يكتبه حتى يمتنع فهمه على غير المتضلع ، كما كان يفعل بعض علماء الكلام أو المنطق أو الفلسفة، فقد تقرأ فى كتبهم ولا تفهمها إلا بعد اعمال الفكرة والمراجعة. ولا تستطيع ذلك إلا اذا كنت متضلعا فى تلك العلوم . فمثل هؤلاء انما يكتبون لبيان تعمقهم فى العلم لا لافادة القراء

وقد يظن أول وهلة أن سبب ذلك التعقيد متصل بطبيعة تلك الموضوعات فلا يستطاع التعبير عنها بأبسط من ذلك ، وهو الواقع فى بعض العلوم ، ولكنه لا يمنع امكان الكتابة فيها بعبارة بسيطة سهلة كما يفعل الافرنج ، فانهم يتوخون البساطة والسهولة فى أصعب الموضوعات العقلية لأنهم انما يكتبون لافادة القارىء . وكثيراً ما تفضل مراجعة بعض هذه الموضوعات فى اللغات الافرنجية لقرب تناولها مع أن منها فى العربية مطولات شتى

فالعمدة فى الانشاء على ترتيب أجزاء الموضوع وتنسيق العبارات بتناسق المعانى مع السهولة والوضوح . وهي ملكة غريزية لا تكتسب بالمزاولة أو الصناعة للاسباب التي قدمناها . ولكل كاتب اسلوب خاص به يمثل سلسلة أفكاره يعبر عنه الافرنج بقولهم (Style) وهو الذوق أو النفس فى اصطلاح الكتاب ، فالكاتب يمتاز بذوقه ويعرف به ، ومن عانى الكتابة ودرس أذواق الكتاب سهل عليه تمييز الكاتب بمجرد مطالعة ما يكتبه . وقد يشرح المقالة اذا كتبها غير واحد وينسب كل قطعة منها الى كاتبها . ويقول العرب : « ما قرأت كتاب رجل إلا عرفت مقدار عقله فيه » ويقول الفرنسيون : « Le style c'est l'homme » أى ان الاساوب يمثل كاتبه . وأساليب الكتاب تختلف باختلاف سلاسل أفكارهم ، فمنها السهل والسلس والبليغ والواضح والمعقد والملبك والمشوش والركيك . فاذا قرأت عبارة حكمت أول وهلة أنها سهلة أو مشوشة أو واضحة أو معقدة أو غير ذلك

ويختلف أسلوب الانشاء باختلاف الموضوعات . فالعلم الطبيعي يوافقه أسلوب لا يوافق العلوم الأدبية أو الاجتماعية أو التهذيبية ، وهما غير اساليب المراسلات ، فيستقبح اسلوب الخطابة في بيان الحقائق الطبيعية أو الرياضية أوالمنطقية كما يستهجن اسلوب الرياضيات والاقيسة المنطقية في موقف الخطابة أو المراسلات كما تقدم

فالخطب وما يشبهها في اسلوبها من المراسلات أو كتب التحريض والتهديد ، لها نسق خاص يراد به اثارة العواطف واستنهاض الهمم كقول الامام على يخاطب أصحابه يوم واقعة صفين :

«معاشر المسلمين،استشعروا الخشية ، وتجلببوا السكينة ، وعضوا على النواجذ فانه أنبى للسيوف عن الهام ، واكملوا اللأمة ، وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلها . والحظوا الخزر واطعنوا الشزر ونافحوا بالظبا . وصلوا السيف بالخطا ، واعلموا أنكم بعين الله ومع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .فعاودوا الكر واستحيوا من الفر ، فانه عار في الأعقاب ، ونار يوم الحساب ، وطيبوا عن أنفسكم نفساً ، وامشوا الى الموت مشياً سجحاً ، وعليكم بهذا السواد الأعظم والرواق المطنب ...»

فمثل هذا الاسلوب لا يستحسن في بيان حقيقة طبيعية كايضاح أسباب المطر أو سرد نواميس الجاذبية . ولا في اثبات قضية هندسية كالبرهان على أن مربع الوتر يعدل مربعي الساقين ، ولا في شرح فائدة طبية كتشخيص مرض الروماتزم أو النقرس أو نحوهما ، ولا في بسط حقيقة تاريخية ، فان لكل مقام مقالا

فعلى الكاتب الأديب أن يفهم ذلك ويتدبره فلا يضع الاشياء في غير مواضعها فيذهب سعيه في خدمة العلم هباء منثورا . .

[عن الهلال سنة ٢٠ صفحة ٥٤٣]

اللغة العربية الفصحى
واللغة العامية

ألقى المستر وليم ولكوكس فى كلوب الأزبكية خطبة موضوعها : « لم لا توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن ؟ » وقد أفاض حضرة الخطيب فى ذكر الأسباب المانعة لتلك القوة ، ثم ذكر العلاج وعدد الطرق المؤدية الى إيجادها . وليس من غرضنا الخوض فى شىء من مآل تلك الخطبة الا فيما يتعلق باللغة العربية

فقد قال حضرته إن من جملة العوامل فى فقد قوة الاختراع عند المصريين استبقاؤهم اللغة العربية الفصحى : وأشار باغفالها واستبدالها باللغة العامية اقتداء بالأمم الاخرى ، وذكر منها بنوع خاص الأمة الانكليزية ، وقال إنها استفادت فائدة كبيرة باغفال اللغة اللاتينية التى كانت لغة الكتابة عندها واستبدالها باللغة الانكليزية الحاضرة

وعندنا أن المستر ولكوكس لم يصب المرمى فى رأيه من هذا القبيل ، لأن ما صدق على اللغة الانكليزية لا يصدق على لغتنا لأسباب كثيرة نذكر منها

أولا : ان الانكليز باستبدالهم اللغة اللاتينية باللغة الانكليزية قد استبدلوا لغة أجنبية بلغة وطنية ، وليس كذلك الحال فى اللغة العربية ، فان الفرق بين لغة الكتابة ولغة التكلم عندنا ليس بالشىء الكبير ، وقد لايكون أكثر من الفرق بين لغة كتاب الانكليز ولغة عامتهم الذين لا يعرفون القراءة

ثانياً : ان استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية اذا أنقذنا من شر فانه يوقعنا فى شر أعظم منه ، لأن الناطقين بالعربية تختلف لغتهم العامية باختلاف الأصقاع . والفرق بين لغة مصر والشام ليس بأقل من الفرق بين اللغة الفصحى واللغة العامية ، وكذلك بين لغة أحد هذين القطرين ولغة بلاد المغرب أو الحجاز أو غيرها من البلاد

العربية . ولايخفى ما بين هذه الأقطار العربية من العلائق الأدبية والمدنية والسياسية . فباستبدالها اللغة الفصحى باللغة العامية المصرية مثلا نحرم أبناء الشام وبلاد المغرب من فائدة ما نكتبه فى تلك اللغة ، وهكذا لو استبدلناه باللغة العامية الشامية أو المغربية أو الحجازية . واذا لم نخسر بهذا الا الجامعة العربية لكفى بها خسارة

ثالثاً : ان اللغة فى كل أين وآن تتبع حالة عقول الناطقين بها ارتقاء وانحطاطاً ، فلغة العامة منحطة بنسبة انحطاط أفكار الناطقين بها ، وليس لها أن تقوم مقام اللغة الفصحى ولا سيا العربية لأنها أرقى لغات العالم ، وفيها من أساليب التعبير ما تعجز لغة العامة عن القيام بمثله . فاذا أردنا تدوين العلوم على أنواعها باللغة العامية كما ارتأى حضرة الخطيب ، فانها لا تقوم بتأدية المعانى الكتابية كما يجب ، ومن أين نأتى بالألفاظ التى نعبر بها عن الاصطلاحات العلمية ولا سيا الحديثة منها ، وقد كادت تعجز اللغة الفصحى عن القيام بها ؟ فاذا قال إننا ندخل اليها تلك الاصطلاحات ، نقول إن الاصطلاحات المشار اليها ليست بالشىء القليل ، وإنما هي قسم عظيم من اللغة ولا سيا لغة العلم ، فان معظمها اصطلاحات علمية . وتعليم العامة ألفاظ اللغة الفصحى كما هي أسهل من تعليمهم الاصطلاحات العلمية وإدخالها الى لغتهم ، وهذا شأن اللغة فى سائر أنحاء العالم . والمستر ولكوكس يعلم أن الكتب العلمية العالية المكتوبة بالانكليزية الآن لا يستطيع عامة الانكليز فهمها مهما بولغ فى إيضاحها وبسطها ، وذلك دليل على أن بين العامة والخاصة حجاباً لو حاولنا حسره عادت الطبيعة فسدلته

رابعاً : ان الجامعة العربية قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحى . إذ لولا القرآن الشريف والمحافظة عليه منذ صدر الاسلام وعودنا اليه فى إصلاح ما تفسده الطبيعة من لغتنا ، لتشتت شمل الشعب العربى وأصبح كل قطر من الأقطار العربية مستقلا عن الآخر لايفهم لغته كتابة ولا تكلما ، كما حصل فى الأمم التى كانت تتكلم اللغة اللاتينية ، فقد أصبح لكل منها لغة مستقلة لاتفهمها الأمة الأخرى ، مثال ذلك فرنسا وايطاليا واسبانيا وغيرها ، والفضل الاكبر فى حفظ الجامعة العربية الى الآن للقرآن الشريف والمحافظة عليه

خامساً : ان إغفال اللغة الفصحى يستوجب إغفال كل ما كتب فيها من العلوم على نواعها منذ الف وثلثمائة سنة ، وهى خسارة لا تعوض مهما قيل فى فائدة اللغة العامية فى الكتابة

فيتضح مما تقدم ان استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية رأى إغفاله أولى

بنا ، ليس فقط لكونه عقيما ، بل لأنه مضر باللغة والناطقين بها علمياً ودينياً وأدبياً

على أننا لا يليق بنا ختام الكلام فى هذا الباب قبل الاشارة الى ما طالما شكونا منه من توخى بعض الكتاب اختيار الألفاظ المستهجنة المهجورة ، اما إظهاراً لبراعتهم فى حفظ مفردات اللغة ، واما إحياء لألفاظ طوتها يد الأيام لما اقتضته حالة الحضارة وتنوع احتياجات الناس . فاذا قال المستر ولكوكس انه انما أراد إغفال مثل هذه اللغة فاننا نوافقه فيه ونؤيد قوله لأن استعمال الألفاظ المستهجنة يحول دون الغاية المقصودة من تلك الكتابة ، ولاسيما فى الموضوعات العمومية كالكتب التاريخية والقصص الأدبية . اما فى الموضوعات العلمية العالية فان الضرورة تبيح لهم استخدام الألفاظ الوضعية لما وضعت له بغير تساهل ، وعلى الخصوص لأن تلك الموضوعات انما يقرأها أفراد من خاصة الناس وهم مكلفون بمعرفة أوضاعها واصطلاحاتها

وأما فى القصص والروايات والتواريخ وسائر الموضوعات الأدبية العمومية ، فالكاتب مكلف بانتقاء الألفاظ التى تفهمها العامة ، مع مراعاة جانب اللغة والاعراب . فاذا عرض للكاتب معنى له لفظان الواحد مهجور والآخر مألوف ، فانه مطالب باغفال المهجور واستعمال المألوف . وتلك قاعدة من قواعد الانشاء الصحيح لا تخفى على حضرات الكتاب . فبدلا من أن نقول : « وجلس سجاح وجهه » نقول : « وجلس تجاه وجهه » لمطابقة سجاح وتجاه للمعنى المقصود زنة ومعنى . وعندنا أن المجاوزة الى ما وراء ذلك واستخدام كلتين أو ثلاث مألوفة تؤدى معنى مراداً ، أفضل من استخدام كلمة واحدة مهجورة تؤدى ذلك المعنى ، وإن خالفنا فى ذلك على نوع ما قاعدة من قواعد البلاغة ، لأننا نتمكن من الجهة الثانية من إفهام المطالع اذا كان عامياً أو غير عامى ما أردنا افهامه بدلا من أن نحمله على الملل من القراءة والتقاعس عن المطالعة ، ونحن نود مواظبته عليها لتحصل الفائدة المقصودة من كتابتنا . ويجب علينا فهم المقصود بالذات من كتابة الكتب الأدبية للعامة ، فاننا إنما نريد بها اكتسابهم المبادىء الأدبية أو التاريخية لا تعليمهم الفاظ اللغة وقواعدها لأنهم فى غنى عن ذلك ، لاشتغال كل منهم بعمل يقيم به أود حياته ولا حاجة به الى دخائل اللغة . أما من أراد منهم درس قواعد اللغة ومفرداتها فهناك كتب خاصة بذلك فليعتمد عليها

وخلاصة القول أن الموضوعات العلمية العالية لا غنى لكاتب فيها عن الارتكان الى ماوضع لكل علم من الأوضاع والاصطلاحات . ولا مندوحة له عن استعمالها فهما

العامى أو لم يفهمها ، على أن العامى فى غنى تام عن هذه البحوث لبعدها عن مداركه واحتياجاته

أما البحوث التاريخية والأدبية العامة وما جرى مجراها فالكاتب فيها مطالب بتجنب كل ما يحول دون فهمها لدى الخاص والعام ، فيجب أن تكون عبارته فيها بسيطة واضحة سلسة خالية من كل تعقيد حتى تكون المعانى جلية للمطالع كل الجلاء ، لا يحتاج فى فهمها الى التوقف لحظة أو مراجعة معجمات اللغة ، والا فان عجز الكاتب عن ذلك يعد نقصاً فى واجبات صناعته

ونحن فى موقف نلتمس فيه لحضرة المستر ولكوكس عذراً فيما ارتآه لأنه على ما نظن إنما حكم بأفضلية استبدال اللغة الفصحى باللغة العامية لما رأى فى بعض الكتب من التعقيد فى مثل ما تقدمت الاشارة أليه

على أننا لو سرنا فى كتابتنا على الخطة التى أشرنا اليها بحيث نجعلها بسيطة واضحة ، مع مراعاة جانب اللغة والاعراب ، ما تركنا لحضرته أو لسواه باباً للاعتراض أو وجهاً لابداء مثل ذلك الرأى

[عن الهلال سنة ١ صفحة ١٧٦]

فهرس